المكتبة الفلسفية

تاريخ الفلاسفة

تأليف

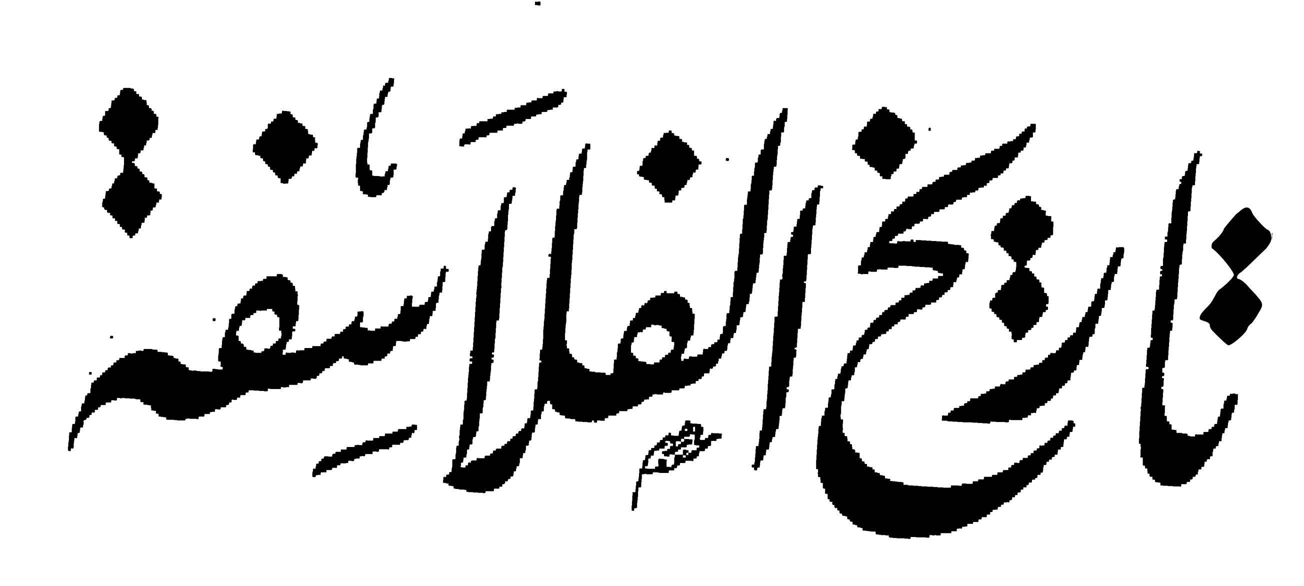
طاليس المليطي

ترجمه من الفرنسية إلى العربية

الأستاذ/ السيد عبد الله حسين

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

المكتبة الفلسفية



تأليف

طاليس المليطى

ترجمه من الفرنسية إلى العربية

الأستاذ/ السيد عبد الله حسين

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٣٦ شارع بورسعيد – القاهرة
تلـ/ ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٣٨٤١١ / فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المليطي، طاليس
تاريخ الفلاسفة / تأليف طاليس المليطي، ترجمة من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية السيد عبد الله حسين
- ط ١ – القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٧
٢٠٦ص، ٢٤سم
تدمك : 977-341-346-2
١- الفلاسفة اليونانيون
- أ-حسين ، السيد عبد الله (مترجم)
ب- العنوان
ديوى : ٩٢١,١

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/١٤٩٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نوَّع أصناف الخلائق، وجعلهم مختلفين في العوائد والخلائق، وجعل فلاسفة اليونان أشهر الفلاسفة، وحكماءهم مشاهير الحكماء بلا سفه، أوليس أن منهم من وضع الطب والميقات، والرياضيات والطبيعيات، فهل ينكر أحد معارف أفلاطون وسقراط، ولطائف مهارة أرسطاليس وأبقراط، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاء دينه بالعمل بمقتضى الأخبار الجميلة، والآثار الجليلة، وحفظت شريعته من أحكام الأوائل كل فضيلة، وتنزهت عن كل رذيلة، وعلى آله الذين أزالوا الشبه والضلالات، وأيدوا دينه بالآيات الباهرات.

أما بعد...

فيقول المتوسل بسيد أهل الخافقين، عبد الله بن حسين، لما تعلقت همة وزير مصر الأعظم، وعزيزها المفخم، صاحب العز الأكبر، الذي يعجز عن أمثاله كسرى وقيصر، بإحياء ممالكه الإسلامية، وإخراجها من حيز الجهالة إلى حيز العلمية، بذل في ذلك الجهد التام، وأرسل إلى الديار الإفرنجية عدة شاع أمرهم في الأنام، فحصلوا قدرًا جسيًا من اللغات والفنون، وجلب لهم كتب العلوم، وصار يترجمها المترجمون، وكنت من جملة مَن تعلم اللغة الفرنسية على قدر الحال، فأردت أن أصرف همتي في كسب رضاء الخديوي الأكرم، الذي أحسن إليَّ بحسن التربية وأنعم، فشرعت في ترجمة تاريخ فلاسفة اليونان؛ حيث إنه عند الإفرنج عظم الشأن، وكنت وقت ترجمته بمدرسة الألسنة بالأزبكية، فاستعنت في مشكلات الكتاب وتحرير ترجمته بمدير تلك المدرسة البهية، كما أن المدرسين بها اعتنوا بتصحيحه، واجتهدوا في تهذيبه وتنقيحه، وقد أهديت هذا

الكتاب الفائق، ذا المنهل الرائق، المشتمل على الدرر النفائس، لحضرة البيك ناظر عموم المدارس، حفظه مولاه، ولكل خير أولاه، وهنا أوان الشروع في التعريب، فأقول مستمدًا من القريب المجيب.

هذا مختصر ترجمة مشاهير قدماء الفلاسفة

طاليس الفيلسوف

طاليس المليطي، وُلِدَ في السنة الأولى من الأولمبياد الخامس والثلاثين -أي قبل الميلاد بنحو ستمائة وأربعين سنة؛ لأن الأولمبياد دور مدته أربع سنوات- وتُوفي في الأولمبياد الثامن والخمسين، وعُمره ثمان وتسعون سنة، وطاليس هذا من ذرية قورموس بن أوجنور من أهالي بلاد الصور من أعمال الشام، وكان سبب انتقال أهله لمليطة التي ولد فيها طاليس جور ظلمة ملوك بلادهم حتى على صلحاء الناس، وحتى على أهل ذلك الفيلسوف، فلما أهانوهم خرجوا من بلادهم الشامية، وأقاموا بمملكة مليطة اليونانية.

وهذه المدينة من مدن يونيا التي وُلد فيها طاليس في السنة الأولى من الأولمبياد السابق، وكان أول مَنْ استحق أن يُلقب باسم الحكيم، بل كان أعظم مؤلفي الفلسفة المسماة يونانية، نسبة للمملكة التي بها ميلاده، ومكث مدة من الزمان في منصب الأقضية والأحكام، وبعد أن قضى ذلك على وجه حسن مناسب لأصول المصلحة، حملته الرغبة في البحث عن أسرار الكائنات على ترك خدمة المصلحة العامة المتعلقة بالمملكة.

فتوجَّه إلى برِّ مصر الذي كان مشهورًا بالعلوم حينئذٍ، ومكث مدة من السنين يمارس علماء البلاد وهم القسيسون فتعلم أصول دياناته، وكان معتنيًا بسائر العلوم مجتهدًا فيها، لا سيما في علم الهندسة وعلم الاسترونومية يعني: علم الهيئة، وكان لا يكتفي بمعلم واحد، بل كان يتحيل على جميع الحكماء المصريين في التلقي عنهم مدة إقامته عندهم، وكان لا يبني المعارف في الفلسفة إلا على التجربة مع وفور العقل والتدبير، ومن ثَمَّ كان قليل التكلم كثير

التفكر، وكان لا يعتني بمصلحة نفسه، بل لا يعتني إلا بالأمور التي تتعلق بالبلاد عمومًا، فهي عنده مقدمة.

وقال بعض المؤلفين: إن بعض الحكماء كان يرى أن أخذ الثار أحب إليه من جميع لذات الدنيا، ولكن هذا الرأي بعيد جدًّا من مذهب اكرسيب، ومن لين جانب طاليس.

ولما رجع طاليس إلى بلده المسماة مليطة، اعتكف في خلوة عظيمة، ولم يشغل فكره إلا بالأمور العلوية والسماوية، يعني علم النجوم والهيئة وما أشبه ذلك، وحمله حب الخلوة والحكمة على اختيار الوحدة وترك الزواج، وكان عمره في ذلك الوقت ثلاثًا وعشرين سنة، فأشارت عليه أمه اقلويولين بالتزوج ومخالطة الناس، فقال لها: إن الإنسان في صغر سنه لا يليق به الزواج، وفي كبر سنه يفوت عنده أوان الزواج، وبين هذين الأجلين لا ينبغي له أن يختار زوجة.

وقال بعض الناس: إنه تزوج في آخر عمره بامرأة مصرية، صاحبة معارف مؤلفة لجملة من الكتب العظام، واتفق لبعض غرباء مملكة مليطة أنهم عدوا إلى الجزيرة اليونانية المسماة «قو» وتسمى الآن جزيرة استنكوي، واشتروا من بعض الصيادين النصيب الذي يخرج في الشبكة، بأن يقول المشتري للصياد: كل ما خرج في هذه الرمية يكون لي بكذا. فرمى الصياد الشبكة فخرج فيها كرسي من الذهب الإكسير، له ثلاث قوائم، فقيل في شأنه: إن هيلانة أم اليونان كانت أتت من مدينة «ترواه» مرة، وألقت ذلك الكرسي في هذا المحل بإشارة بعض الكهنة عليها، فحصلت مشاجرة بين الذي معه الكرسي وبين الغرباء وبقية الصيادين، ودخل في تلك المشاجرة أهل المدائن اليونانية، واشتد الشر بين جميع أهل المدائن، حتى كاد أن يقع بينهم حرب شديد، ثم اتفق جميعهم على تحكيم الوحي -أي الكاهن-.

فأرسلوا الكاهن دلفيس وحَكَّموه في ذلك، فحكم بأن الكرسي يعطى للحكيم الأول -يعني لأعظم الحكماء- فعند ذلك أرسلوه إلى طاليس، فلم يرض به وأرسله إلى بياس، وبياس أرسله إلى واحد آخر تواضعًا منه، وهذا الآخر أرسله إلى واحد، فأرسله إلى سولون، فقال سولون: لا يوجد أحد أعظم من صاحب الكهانة. فأرسله إلى دلفيس، فوهبه لصنمه الشمس، واعترض بعض الناس من مملكة مليطة على طاليس، وقال: إن علومه لا تنفع لكونها لم تخرجه عن حيز الفقر والمسكنة. فقال طاليس: إن أهل العقول لا يحبون جمع المال الكثير، بل يحتقرون وصف الغني، وإنما يحبون اكتساب العلوم والمعارف التي لا تتولد منها حادثة مضرة، ولم يزل مفكرًا فيما قيل له، حتى علم بشدة فطنته في الاسترونومية -أي علم الهيئة بالقحط-، فأخبر أن السنة القابلة تكون مجدبة جدًّا، فاشترى جميع ثمار الزيتون التي كانت موجودة حول مملكة مليطة قبل أوان ظهورها، فحملت الأشجار بثمار كثيرة جدًّا، وحصل منها ربح عظيم، ولكن لما كان طاليس منزهًا عن الطمع بالكلية، قَسَّم جميع ما ربحه في تلك السنة على جميع تجار مليطة.

وكان طاليس يحمد الله على ثلاثة أشياء: حيث جعله من العقلاء دون البهائم، ومن الرجال دون النساء، ومن الروم دون البربر -أي الأعاجم-، وكان يزعم أن العالم لا أول له ولا آخر له، وأنه يرى في جميع أزمنته على حالته التي هو عليها الآن، وكان أول مَنْ قال من الروم: إن الأرواح غير فانية، بل هي أزلية أبدية.

ودخل عليه رجل من أهل مليطة في بعض الأيام وسأله: هل يمكن أن تخفى أسرارنا على الإله؟ فقال له طاليس: لا تظن هذا أبدًا؛ لأن جميع الأسرار

الخفية لا تخفى على الإله العليم.

وكان يقول: إن أكبر الأشياء في الدنيا المكان؛ لأنه مشتمل على جميع الموجودات، وأن أقوى البواعث الحاجة؛ لأن الإنسان يقطع دونها كل مشقة حتى يدرك غرضه، وأسرع الأشياء العقل؛ لأنه في طرفة عين يمكنه أن يطوف بالكون كله، وأحكم ما يكون الزمن؛ لأنه يظهر جميع الأمور الخفية، ولكن أعظم من هذا كل وألطف منه عمل الإنسان بما يليق بعقله.

وكان كثيرًا ما يقول: إن كثرة الكلام ليست من شأن العقلاء، وإنه يلزم تذكر الأحباب في حال حضورهم وغيابهم على حد سواء، وإنه يجب على الإنسان بر والديه وإعانته لهما؛ لأجل أن يجازى بذلك في كبره، فتشد ذريته ظهره عند ضعف قواه، الذي هو أصعب الأشياء.

وكان يقول: إن الذي يسلينا عند حلول المصيبة من أحد، علمنا بأن الذي إذا نابها هو أشقى منًا وأسوأ حالًا منًا.

وكان يقول: إن الأمر الذي تلوم أخاك على فعله، لا ينبغي لك أن تفعله بنفسك، وإن السعادة الحقيقية هي تمتع الإنسان بالعافية، وأن يكون عنده رزق الكفاف، وأن لا يضيع عمره في الجهل والجبن.

وكان يقول: إنه لا شيء أصعب على الإنسان من معرفة حقيقة نفسه، فهو الذي اخترع هذه الحكمة العظيمة الآتية، وكتبها على رق من الذهب، وعلقه في هيكل الشمس، وهي هل أنت أيها العالم، تعرف حقيقة نفسك؟

وكان يزعم أن الموت والحياة مستويان ذاتها، فسئل: لأي سبب لم تقتل

نفسك؟ فأجاب بقوله: حيث كان الموت والحياة مستويين، فما يحملني على إيثار الموت على الحياة.

وكان يتسلى بعض الأحيان بنظم الأشعار، ويقال: إنه الذي اخترع نظم الأشعار الهكسامترية -يعني المسدسة- واتفق أنه جاءه رجل من شرار الناس، وقال له: هل يصدق الإنسان في ما قاله بحلفه عليه؟ فأجابه ارتجالًا من غير روية وقال له: ذنب الحلف أخف من الزناء بيسير.

وكان له تلميذ صديق اسمه مندريتي البريني، فجاءه يومًا في مدينة مليطة ليزوره، وقال له: ما تريد أيها الأستاذ مني من الجزاء في نظير ما صنعته من المعروف العام؛ حيث مهدت أصولًا وحِكمًا، منها تعلمت، وبها عرفت، وأود أن أكافئك عليها شكرًا، لمعروفك ومجازاة لفضلك. فقال له طاليس: لا أود في نظير ذلك شيئًا، اللهم إلا أنك حين يقتضي الحال أن تُعَلِّم هذه الأصول لتلامذتك، فانسبها إليَّ، ولا تكتم عزوها لي، بل أخبر مَنْ يتلقاها عنك أني مخترعها، ومبتدع المذهب الذي يحتوي عليها، وكان أول اليونانيين الذين عرفوا علم الطبيعة وعلم الهيئة.

وكان يزعم أن الماء هو الأصل الأول لكل شيء، ويقول: إن الأرض ما هي إلا ماء وجمد، والهواء هو ماء ثقيل الزنة، وإن جميع الأشياء تتغير ذاتها من حالة إلى حالة، إلى أن يؤول أمرها إلى رجوعها ماء، وإن سائر ما في الكون لا يخلو عن إحساس ما، وإنه مملوء بما لا يدركه الطرف من المخلوقات، وكلها متحركة ذات أرواح، وإن الأرض في وسط العالم تتحرك على مركزها الأصلي، الذي هو عين مركز العالم؛ لأنها من حيث كونها موضوعة على مياه البحار ثبت لها هذا الاضطراب، الذي كان سببًا في تحركها.

وكان يقول: إن كلًّا من الآثار العجيبة الناشئة عن الأشياء، وكذا الائتلافات بين الأشياء المتجاذبة كالمغناطيس والكهرباء، يدل على أنه لا شيء في الدنيا إلا وله روح إحساس.

وكان يقول: إن سبب زيادة النيل كثرة هبوب الرياح الدورية؛ أي التي تهب كل سنة في أوقات معلومة من الشمال إلى الجنوب، فتحجز المياه التي تجري من الجنوب إلى الشمال، وتجريها إلى أن تعم الأرض.

وهو أول من أخبر عن كسوفات الشمس والقمر قبل وقوعها، وهو الذي اجتهد الغاية في رصد حركات هذين الكوكبين على اختلافهما.

وكان يقول: إن الشمس جسم مضيء بنفسه، وإن جرمها قدر جرم القمر مائة وعشرين مرة، والقمر جسم غليظ، لا يمكنه أن يعكس نور الشمس إلا بجهة واحدة من سطحه، وبهذا يقام البرهان على اختلاف الصور التي يرى بها القمر أي منازله الأربعة، وهي تربيعه في أول الشهر، وقبيل آخره، وانتصافه، ومحاقه.

وكان أول مَنْ فحص على أصول الهواء، والزوابع، والصواعق، وأسباب البرق والرعد، ولم يكن أحد قبله يفهم طريقة مقياس ارتفاع القلاع والأهرام، ونحوها من ظلها الجنوبي، حين تكون الشمس في زمن الاعتدال، وهو الذي قال: إن السنة ثلاثمائة وخمسة وستون يومًا، ورتَّب قواعد الفصول، وحدَّد كل شهر ثلاثين يومًا، وفي آخر كل اثني عشر شهرًا أضاف خمسة أيام لأجل تمام السنة، وهذه القاعدة تعلمها من المصريين، وهو الذي رصد الدب الأصغر – أي بنات نعش الصغرى– الذي به يهتدي الملاحون من أهل مملكة الصوريين،

وبينما هو ذات يوم خارج من محله بقصد رصد الكواكب، وإذا هو قد وقع في حفرة عميقة، فمضت إليه عجوز من خدمة بيته وأخرجته، ثم قالت له: أتزعم يا طاليس، أنك تعلم جميع ما يقع في السماء مع أنك لم تعلم ما تحت رجليك.

وقد قضى طاليس عُمره في عز وجاه، وكان يستشار دائمًا في مهمات الأمور، حتى أن اكبريبوس لما عزم على حرب بلاد العجم، وكان قد نصب رئيسًا على جيش عظيم، وسار به إلى أن وصل إلى نهر هاليس، وهو نهر عظيم عميق، لا قناطر له ولا سفن عنده، فتحير في تعدية عساكره، وإذا بطاليس أقبل عليهم في ذلك الوقت، والتزم له أن يعدي له جميع الجيش بدون قناطر ولا سفن، فابتدأ أولًا بعمل صورة خندق كبير على شكل هلال، مبتدئًا بأحد طرفي الجيش منتهيًا بطرفه الآخر، فتشعب بهذه الطريقة ذلك النهر إلى ذراعين -أي فرعين-، حتى صيره قابلًا للخوض فيه من الجهتين، ثم عدَّى جميع الجيش بدون تعب.

وكان لطاليس مزيد اعتناء في هذه الواقعة، بكون المليطيين لا يتعاهدون مع اكريبوس، الذي كان يسعى في المعاهدة معهم دائمًا، وهذا الاحتراس والتبصر كان سببًا في خلاص وطنه ونجاته؛ لأن الملك قيروس الذي كان انتصر على اللدين أغار على جميع المدائن التي تعاهدت معهم، واحترم مَنْ كان من أهل مدينة مليطة، فإنهم لم يخالفوه ويتعاهدوا مع غيره.

وكان طاليس في ذلك الوقت هرمًا جدًا، فلأجل حظه نفسه أمرهم ذات يوم أن يضعوه على تل مرتفع من التراب، لأجل أن يروح نفسه بنظرة إلى القتال فظمئ ظمأ شديدًا من شدة الحر، فهلك بغتة في ذلك المحل الذي كان ينظر القتال به، وكان ذلك في الأولمبياد الثامن والخمسين، بعد أن عاش اثنين وتسعين سنة، وعمل له أهل مدينة مليطة جنازة عظيمة.

تاريخ سولون الفيلسوف

سولون وُلِدَ في السنة الثالثة من الأولمباد الخامس والثلاثين -أي نحو ستمائة وأربعين قبل الميلاد- وصار يقارض بماله في مدينة أثينا في السنة الثالثة من الأولمبياد الخامس والأربعين، وتُوفي في ابتداء الأولمبياد الخامس والخمسين، وكان عُمره ثمانية وسبعين سنة، وكان أصل سولون من مدينة أثينا، وولد في مملكة سلامين في الأولمبياد الخامس والثلاثين، وكان من نسل ملك يوناني يسمى قدروس، وكانت أمه بنت عم أم بيزستراث، فصرف بعض زمن صباه في السفر إلى بر مصر، الذي كان ميدانًا لأهل العلوم في ذلك الوقت، فمن بعد تعلمه قوانين الحكم، وجميع ما يلزم للشرائع وعوائد البلاد، رجع إلى مدينة أثينا، ولما صار بذلك من أرباب العز والجاه، بلغ أعظم المناصب.

وكان سولون ذا عقل عظيم وقوة عظيمة مع صدق وتثبت، وكان شاعرًا ماهرًا وخطيبًا فقيهًا بالقوانين، شجاعًا في الحرب، ومضى طول عمره شديد الغيرة على حماية حرية وطنه، وعدوًّا كبيرًا للظلمة، وقليل الاعتناء في علو مراتب أهله وعياله، ولم يكن يعتني بالبحث في أسباب الطبيعة، وكان مثل طاليس لا يلازم شيخًا بعينه، بل كان يصرف همته بالكلية في علم الأخلاق والسياسة، وله هذه الحكمة العظيمة، وهي (خير الأمور أوسطها).

ولما سمع بشهرة طاليس سافر من بلده إلى مدينة مليطة، فلما وصلها واجتمع بهذا الفيلسوف، تحادث معه قليلًا، ثم قال له: يا طاليس، إني تعجبتُ من عدم زواجك، فهلا تزوجت حتى يكون لك ذرية تربيهم وتعلمهم. فلم يجبه حالًا عن سؤاله، ثم بعد أيام أحضر له رجل وأوهمه أنه غريب جاء يزوره، فقال طاليس: هذا الرجل يزعم أنه قدم عن قرب من مدينة أثينا. فقال سولون

لذلك الغريب: ما عندك من أخبارها؟ فقال الغريب: ما عندي خبر، وإنما رأيتُ فيها شابًا ميتًا دفن يوم خروجي منها، وشهد جميع أهل المدينة جنازته ودفنه؛ لأنه ذو نسب عظيم، وابن رجل مكرم عند جميع الناس، وأن أباه غائب عن مدينة أثينا من مدة قريبة، وأحبابه بتلك المدينة كتموا هذا الخبر عن أبيه؛ خوفًا عليه أن يموت من الغم والحزن.

فصاح سولون: إني لأب مسكين، قليل الحظ. ثم سأل الغريب عن اسم أب الشاب، فقال: إن اسمه غاب عن حفظي، ولكن سمعتُ جميع الناس يقولون: إنه رجل كثير الحكمة. فزاد على سولون القلق والاضطراب في هذا الوقت، وحصل له انزعاج عظيم، فقال له سولون: هل سمعت أن أب الشاب يُسمى سولون؟ فأجابه الغريب بالبديهة وقال: نعم، هو سولون. فعند ذلك غاب سولون عن الوجود، وحصلت له حرقة شديدة، ومَزَّق ثيابه، وأزال شعره، وضرب رأسه، ولم يدع شيئًا من الأمور المحركة للغم والحزن من أشعار وغيرها إلا استعمله، حتى صار كئيبًا.

فقال له طاليس: ما لي أراك حيران في أمرك، تبكي كثيرًا، أتبكي على الخسارة التي لا يمكن جبرها ولا بدموع الدنيا؟ فقال سولون: هذا هو الذي أبكاني؛ لأن هذا أمر لا دواء له. فعند ذلك أخذ طاليس في الضحك على سولون من هذه الأمور المختلفة التي حصلت منه، وقال له: يا أخي هذا هو الذي منعني من الزواج؛ لأني أعرف أنَّ أثبت الرجال قلبًا لا يمكنه تحمل مشقة العشق وتربية الأولاد. ثم قال له: لا تغتم؛ لأن الذي قيل لك أمر مخترع ومزاح ابتكرته لك لمجرد الهزل.

وقيل: إنه من مدة زمان طويل حصلت حروب كثيرة بين الأثينين

والمغاريين بسبب جزيرة سلامينا، وانتهى الأمر بعد حروب شديدة من الجانبين، إلى أن انهزم الأثينيون، وحصل لهم مشقة شديدة بسبب كثرة سفك الدماء، حتى أنهم اتفقوا على أن كل مَنْ تكلم في شأن الحرب مع المغاريين لأجل جزيرة سلامينا، وطلب تجديد الحرب معهم؛ يكون عقابه الموت، ما دام المغاريون مستولين عليها.

ثم إن سولون رأى أنه إذا تكلم في ذلك أضر نفسه، وإذا سكت يعود الضرر على وطنه، وأهل مملكته وهو أشد، فأخذ في أسباب الجنون عمدا خديعة لهم ليقول كل ما يخطر بباله فشاع في المدينة أنه صار مجنونًا، وبعد ذلك أنشأ بعض أبيات من الأشعار المحزنة وحفظها، ثم خرج من محله بثياب من صوف رَثّة بالية، وربط رقبته بحبل وجعل على رأسه طيلسانًا قديمًا فاجتمع عليه أهل المدينة، فطلع لهم فوق الحجر الذي كانوا يعتادون المناداة عليه، فأنشد تلك الأشعار على خلاف عادته، وقال: يا ليتني لم أكن من أهل هذه البلدة واحسرتي أتمنى لو كنت مولودًا في بلاد الأعاجم أو البرابرة أو في أي محل يكون أشد خشونة في العيش، وقسوة في القلب، وجهلًا بالعلوم من هذه البلدة، فإن ذلك أهون عليَّ من أن يراني الناس ويشيروا إليَّ، ويقولون: إن هذا الرجل من أهل مدينة أثينا الذين هربوا من حرب سلامينا، فأسرعوا في أخذ الثأر، وامحوا عنا هذا العار الذي لحقنا، وتنبهوا حتى نأخذ هذه المدينة التي أخذها أعداؤنا ظلمًا.

فأثر قوله في عقول أهل مدينة أثينا، وأبطلوا اتفاقهم الذي كانوا اتفقوا عليه أولًا، وأخذوا سلاحهم وتوجهوا إلى حرب المغاريين، واتفقوا على جعل سولون رئيسًا على العساكر وحاكمًا عليهم، فنزل هو وجيشه في جملة من مراكب الصيادين، ومعهم مركب كبير له ستة وثلاثون مقذافًا، فرسى بالمراكب

بالقرب من سلامينا، فلما علم المغاريون الذين كانوا بالمدينة بذلك حملوا أسلحتهم من غير ترتيب، وأرسلوا سفينة كبيرة من سفنهم بمن فيها لينظروا تلك المراكب التي رست بالقرب من مدينتهم، فأخذ سولون تلك السفينة، وأسر جميع من كان فيها من المغاريين، ونقلهم منها عنده، وشحن تلك السفينة بأشجع من معه من الرجال من أهل مدينته، وأمرهم بأن يتوجهوا جهة سلامينا ويختفوا جدًّا، وطلع هو ومن بقي معه من جماعه إلى البر من جهة أخرى بقصد ملاقاة عسكر المغاريين الذين خروجوا من سلامينا مستحضرين للحرب، فلما اشتغلوا بتعديل الصفوف، وما يتعلق بترتيب الجيش للحرب، أسرع الذين أرسلهم سولون في السفينة إلى جهة سلامينا، ودخلوا المدينة وانتهبوا جميع ما كان فيها.

ثم لما أخذ سولون المدينة وهزم المغاريين، أرسل جميع الأسرى الذين أخذهم من المغاريين إلى مدينة أثينا، وأنشأ هيكلًا عظيمًا لشرف المريخ، وهو كوكب القاهر المسمى عندهم إله الحرب في المحل الذي رجع فيه منصورًا، ثم بعد مدة من الزمن تحركت جماعة من المغاريين وصمموا على أخذ سلامينا، فلم يأتوا بطائل، ثم انحط الأمر بينهم وبين سولون على تحكيم أهالي لقدمونيا في تلك القضية والرجوع إلى رأيهم فيها.

ثم إن سولون قال بحضرة المحكمين من أهل اسبرتا -وهي لقدمونيا-: إن فيلوس وأوريفاس ولدى جاكس ملك مدينة سلامينا، كانا حضرا سابقًا بمدينة أثينا وسكنا بها، وأعطيا هذه المدينة للأثينيين، بشرط أن يصيروا أهلها أثينيين، وأمر سولون أهل مدينة سلامينا بأنهم يفتحون القبور ليروا أن رءوس أمواتهم جهة مدينة أثينا، لا إلى الجهة التي أمرهم المغاريون الآن بالوضع إليها،

وأطلعهم على أنهم كانوا يكتبون على تابوت كل ميت اسم عشيرته، وهذه العادة خاصة بأهل أثينا، ولكن المغاريون لم يحملهم ما قاله على الصلح، بل صمموا على الحرب، وذلك لما أن المخاصمات التي مكثت زمانًا طويلًا متحكمة بين ذرية قيلون وذرية ميغاكلس، أخذت في التمادي، حتى انتهى أمرهم أن عزموا على هلاك المدينة بالكلية؛ وذلك لأن قيلون كان أراد أن يكون سلطانًا بمدينة أثينا، فظهر ما نواه فقُتل مع عدة من المتعصبين معه المهيجين للفتنة، ومن فرَّ منه ونجا بنفسه احتمى في هيكل منيرف -أي هيكل الحكمة-، وكان حاكمها في ذلك الوقت ميكالس، فتكلم بحكم عظيمة وأمرهم بالوقوف بين يدي أهل الشرائع، فأمروهم أن يمسكوا الشبكة المربوطة في نهاية صورة الصنم لأجل أن يحتموا فيه، فعند نزولهم من الكنيسة انقطعت الشبكة المذكورة، فقال ميكالس: هذا دليل واضح على أن الصنم ليس راضيًا عنهم. وأمر أهل المدينة برجمهم ومن فرَّ منهم، واحتمى في محراب من المحاريب أمر بذبحه، ولم يحترم هذه المحاريب، فذبحوا كل من أمر بذبحه، ولم ينج منهم إلا القليل بسبب شفاعة نساء القضاة، فخلصوا من ذلك.

فمثل هذه الأفعال الشنيعة صيرت القضاة وذراريهم مبغوضين عند الناس، فصاروا من ذلك الوقت غير مألوفين لأحد من الأهالي، فبعد مدة من السنين كثرت ذرية قيلون، وصارت ذات شوكة.

وكان سولون في ذلك الوقت قاضيًا بالمدينة، فخشي عليها من التلف بسبب ذلك، فشرع في أمر يكون فيه رضاء الجانبين، وهو أن يختار من الطرفين جماعة يكونون محكمين لأجل انتهاء هذا النزاع الواقع، فحكموا مراعاة لجانب القولنيين بطرد جميع ذرية مغاكلس من المدينة، حتى أنهم نبشوا عظام أمواتهم

وألقوها خارج مدينة أثينا، فعند ذلك انتهز المغاريون هذه الفرصة الملائمة لهم، وتوجهوا بأسلحتهم حين كانت نار الفتنة مضطرمة بين الطرفين، وأخذوا جزيرة سلامينا فما خمدت نار هذه الفتنة الأولى حتى جاءت عقبها فتنة أخرى أشد منها، وأكثر ضررًا، خصوصًا على الفقراء، فقد تراكمت عليهم الديون التي صيرتهم تحت أسر أصحاب الديون كالعبيد، وذلك أن الفقير إذا كان عليه دين مؤجل بيوم معلوم، إذا مضى ذلك اليوم ولم يدفع ما عليه من الدين، يأخذه صاحب الدين ويجعله عبد له، إما أن يستخدمه أو يبيعه في مقابلة دينه، فنشأ من ذلك أن جملة من أصاغر الرعايا الفقراء، اجتمعوا واتفقوا على أن يجعلوا لهم رئيسًا منهم، لأجل أن يمنع عنهم ذلك الاسترقاق بالديون، فلا يكونون عبيدًا لأحد من أرباب الأموال، ولأجل أن يلزم القضاة بقسمة جميع الأموال على جميع الناس بالمساواة على حسب الرءوس، مثلما صنع ليكرغه في مملكة اسبرتا.

وتولَّد من ذلك فتنة عظيمة اضطرمت نارها، ولم يقدر أحد على إطفائها، فاتفق الفقراء والأغنياء من الجانبين، وارتضوا على أن سولون هو الذي يسكن هذه الفتنة، ويحكم بين الفريقين لأجل تسكين هذه الفتنة بطريقة سهلة، فامتنع من ذلك، وتعلل بأمور كثيرة، ولم يقبل هذا المنصب المتعب، ثم في آخر أمره قبله، ولم يكن له رغبة إلا في نفع وطنه كما نواه.

وسبب اختيارهم له من الجانبين، أنه كان سابقًا يقول: المعادلة تمنع المجادلة. فسمعه جميع الناس من الفقراء والأغنياء، فكل فرقة فسرت هذا القول بما يناسب حالها، فالفقراء يقولون: إن سولون مراده أن تكون جميع الناس متساوية، وتقسم الأموال على حسب الرءوس، والأغنياء يقولون: مراده أن جميع الأشياء من مال، وغيره تكون بين الناس على قدر مراتبهم في الشرف.

وهذه المقالة هي التي جعلت سولون محبوبًا عند الفريقين، وكانت باعثة لهم على توليه عليهم، وأسرع كل فريق منهم في اختياره قاضيًا، لظنه أنه يحكم له بما فهمه من كلامه، حتى أن بعض الناس الذين لا دخل لهم في هذه الفتنة، ولا يخشون على ضياع شيء لهم، دخلوا في ذلك وقالوا: يلزم أن يكون الرئيس المحكم على الناس من أحسن أهل الأرض وأحكمهم، وأن يتولى سولون ملكًا.

فتباعد سولون عن ذلك بالكلية ولم يرض به أصلًا، وقال: إن صاحب هذا المنصب يسمى باسم طاغيه -أي ظالم-. فلامه خيار أحبابه في ذلك وقالوا: كأنك لا خبرة لك بالأمور، مجرد هذه التسمية يمنعك من هذا المنصب الذي اكتسبته بطريق حلال، أما سمعتَ بأن طيموندداس ولي نفسه بجزيرة أوبا - وهي جزيرة أغريبوز سابقًا وبيتاخس- الذي هو حكيم فيلسوف هو الآن سلطان بمدينة ميطيلينا، فامتنع سولون ولم يزده هذا القول إلا رغبة عنه وبعدًا، وقال: إن الأمارة الشرعية والولاية الملكية من أعظم المناصب العلية تحتف بها مصائب من كل جهة، ولا يمكن الخروج منها بعد الدخول فيها، ولم يكن له أقدام، ولا رغبة على هذا الأمر الصعب الذي عرض عليه، حتى إن جميع أصحابه قالوا: إنه كالمجنون، وأراد سولون أن يصرف جهده في تسكين هذه الفتنة التي وقعت بمدينة أثينا، فأمر بأن جميع الديون التي تقدم ذكرها توضع عن المدينين، وتبرأ ذمتهم منها؛ بحيث أنه لا يمكن أحد من أرباب الديون أن يطالب واحدًا من المدينين بدين.

وكان له سبع قطع من معاملة ذلك الوقت المسماة طالان ورثها من أبيه، فتجاوز عنها وتركها لأجل أن يقتدي بها الناس في التجاوز عن الديون، وأمر

أيضًا أن مَنْ حدث عليه دين من الآن فصاعدًا، لا يسوغ لرب الدين أن يطلبه منه، ولا يتعلق الدين بذات المدين، كما كانت عادتهم قبل ذلك، وإنما صنع ذلك لأجل دفع مضرة الفتن، التي كانت بين الفقراء والأغنياء.

وفي أول الأمر لم يرض أحد من الفريقين بذلك، وحصل لكل منهما غم فاغتم الأغنياء على خسارة أموالهم، وكان الفقراء أشد غمًّا؛ حيث لم يتساووا في القسمة مع الأغنياء، ولكن آل الأمر إلى أن رضي الفريقان بما صنعه سولون.

ولما رأوا حُسن تدبيره النافع، اختاروه ثانيًا أن يسعى في تسكين الفتنة، التي كانت سببًا في قسمة مدينة أثينا إلى ثلاث فِرَق مختلفة، وسلموا له أيضًا أن يصنع الشرائع والقوانين بما يليق بعقله، ويحكم بما يختار، فأهل الجبال أرادوا أن الرعية هي التي تتكلم في سائر المصالح؛ لأن أهل المدينة ليسوا مثلهم في العدد. وأهل السهول قالوا: ينبغي أن توكل المصالح إلى أهل الاعتبار. والبحريون قالوا: إنه ينبغي الحكم من الأهالي وأهل الاعتبار.

ولما اختاروا أن يكون حاكمًا يحكم بما يريد، ابتدأ بإبطال جميع القوانين التي كان عملها أدراكون الذي كان قبله؛ لأنها كانت مبنية على التشديد جدًّا، حتى كان أخف الذنوب فيها كالبطالة وسرقة شيء حقير كالفاكهة والحشيش، يجازى عليه بالقتل كجزاء الذنوب العظيمة التي هي مثل الفكر والقتل. وهذا معنى قولهم: إن الشرائع مكتوبة بالدم.

وقد سُئل أدراكون ذات يوم: لأي سبب تأمر في القصاص بالموت في سائر الذنوب المختلفة؟ فقال: أقل ذنب عندي يستحق هذا القصاص، ولا أعرف أشد منه حتى أجعله عقابًا للكبائر، فلذلك سويت بين الجميع.

وسولون قَسَّم الأهالي ثلاث طوائف مختلفة، بحسب ما يملكه كل واحد من الأموال، ورخص في الدخول في المصالح العامة الميرية لجميع الأهالي إلا الصنائعية، فإنهم لا يعيشون إلا من أشغالهم فكانوا مستثنين من الوظائف، فليس لهم هذه المزية التي اختص بها غيرهم، وأمر بأن كبار القضاة والحكام لا ينتخبون إلا من الرتبة الأولى، وأمر بأن الذي يدخل في فتنة من الفتن بعد ذلك، يُرسم له علامة في جسده، لتكون علامة يفتضح بها، وأمر بأن مَن تزوج بامرأة غنية، فوجدته عنينًا، فلها أن تمكن من نفسها من تختاره من أقارب زوجها، وأن النساء لا يدخلن بجهاز عن الأزواج وقت التزوج، إلا بثلاثة أثواب، وبعض أمتعة تكون بثمن قليل.

وأن مَنْ شاهدوه يزني بمتزوجة وقتلوه، فلا قصاص على قاتله، حيث كان قتله حال الاطلاع عليه، وقلل مصاريف النساء؛ حيث أبطل بعض عوائد لهن، كان يلزمها مصاريف كثيرة، ونهى أن يتكلم الإنسان بسوء في حق الأموات.

إن للناس الذين ليس لهم ذرية أن يجعلوا ميراثهم لمن يختارونه، بأن يوصي الرجل في أختياره بميراثه لمن أراد، وأمر بأن الذي يسرف في أمواله، يعلم بعلامة الفضيحة، ويفقد جميع إيراداته المرتبة له، وكذلك الذي يقصر في الإنفاق على أبيه وأمه عند كبرهما وعجزهما، ولكن قال: إن الابن لا يلزمهم الإنفاق على أبيه، إلا إذا كان علّمه صنعة في صغره.

وأمر بأن الغريب لا يحسب من أهل مدينة أثينا، إلا إن كان مطرودًا من بلده طردًا مؤبدًا، ويأتي بجميع أهله لأجل أن يتخذ له فيها حرفة من الحرف، ونقص من الإنعامات التي كانت تعطى للمصارعين أو البهلوانية، وأمر بأن بيت المال يربي جميع الأولاد الذين قُتل آباؤهم في حرب الأعداء لأجل حماية

الوطن، وأمر بأن أوصياء الأيتام لا يمكنون من السكنى مع أم الأيتام الموصى عليهم، وأن الوارث القريب لا يمكن أن يُجعل وصيًا على الأيتام، وأن السرقة مهما كانت عقابها الموت، ومَن فقأ عين شخص يعاقب بفقأ عينيه.

وجميع هذه القوانين التي أحدثها سولون، كتبت على الألواح، وأرباب المشورة الذين ولاهم تنفيذ هذه القوانين والعمل بها، عاهدهم، فحلفوا على رءوس الأشهاد أنهم يلتزمون حفظها والعمل بها، وحلفوا أن كل مَن حاد منهم عن العمل بها يلزمه أن يصنع صورة من الذهب وزنها ثقل نفسه، وينذرها إلى هيكل الشمس.

وكان هناك قضاة لتفسير الشرائع لأجل أجراء القانون بين الرعايا عند وقوع الاختلاف على هذا المنوال، وبينما هو ذات يوم يؤلف في شرائعه، وإذا بانكرسيس الحكيم أتاه وسخر من قوله وقال له: ما هذا أتزعم أن أنك بهذه النقوش تمنع ظلم الناس وأهويتهم؟ وقال: ما مثل هذه الأوامر إلا مثل بيت العنكبوت الذي لا يصيد شيئًا غير الذباب. فقال سولون: إن الناس يحفظون الأشياء على حسب اتفاق بعضهم مع بعض. وقال: أنا أجري شريعتي على وجه، بحيث أن جميع أهل بلادي يفهمون أن الأنفع لهم امتثالها لا مخالفتها.

وسُئل: لأي سبب لم تخصص جزاء لمن يقتل أباه وأمه؟ فقال: لأني لا أظن أنه يوجد أحد يفعل هذا الفعل القبيح أبدًا. وكان دائمًا يقول لأصحابه: إذا بلغ عمر الرجل سبعين سنة، فلا ينبغي له أن يخاف من الموت ولا يشتكي من مكاره الحياة، وأن جميع جلساء الملك يشبهون الترس الذي يستعمل للحساب في اللعب، فهو يلعب بهم على ما يقتضيه هوى نفسه، مثل آلات الشطرنج. وأن الذي يتقرب من الملك ليس لكونه محبوبًا، بل لكونه نافعًا له. وأنه ليس لنا هاد

يهدينا أعظم من العقل، فلا نقول شيئًا إلا بعد استشارته، وأنه ينبغي الثقة بصلاح الإنسان أكثر من الثقة بيمينه، وينبغي للإنسان قبل أن يصاحب إنسانًا أن يمارسه، ويتفكر في شأنه؛ لأنه من الخطر انقطاع المحبة بعد انعقادها.

وأن أعظم الأسباب في دفع إساءة المسيء عنك، أن تنسى إساءته لك، وأنه ينبغي للإنسان ألَّا يتولى حاكمًا حتى يعلم الطاعة لغيره. وأن الكذب ينبغي أن يكون مبغوضًا عند جميع الناس. وأنه ينبغي للإنسان أن يهتم بعبادة مولاه وبر والديه، ويجتنب مخالطة الأشرار.

ولحظ سولون أن بيزستراتث عمل له عصبة عظيمة بمدينة أثينا، وأخذ في أسباب كونه يصير بها سلطانًا، فعمل سولون غاية جهده في معارضة ما شرع فيه من المخاصمة، وجمع الناس في محفل عام، ولبس جميع سلاحه، وأظهر جميع ما كان بيزستراتث شرع فيه، وصاح سولون وقال: يا أهل مدينة أثينا أنا أعقل من الذين لا يعرفون قبيح قصد بيزستراتث، وأنا أشجع من الذين يعرفونه. ولكن خوفهم وقلة شجاعتهم منعتهم من المعارضة، فأنا مستعد لأن أكون قائدكم، وأحارب مع طيب نفس بذلك لأجل حماية حرية الوطن، فالجماعة الذين كانوا مساعدين لبيزستراتث قالوا: إن سولون مجنون.

ثم إن بيزستراتث بعد أيام جرح نفسه، وأمر أن يحملوه على عربة وهو غريق في دمائه، وأحضروه في محل ظاهر بحيث يراه جميع الناس، وقال: إن أعدائي جرحوني بطريق الخيانة، وصيروني بهذه الحالة الشنيعة التي تروني عليها. فعند ذلك تعرض جماعة من رعاع الناس وأخذتهم الغيرة، فأخذوا سلاحهم لمساعدة بيزستراتث، فصاح سولون وقال له: يابن أيبراقراس، أنت تعمل الحيلة التي علمها أوليس، حيث خدش نفسه ليغش أعداءه ويتهمهم،

وأنت جرحت نفسك لأجل أن تغش أهل بلدك، فاجتمع الناس وطلب بيزستراتث خمسين حارسًا فسولون أظهر على رءوس لأشهاد، وأبدى ما يترتب على ذلك من الأمور الخطرة، ولم يفد كلامه شيئًا مع هؤلاء السفلة القائمين، الذين أذنوا لبيزستراتث أن يأخذ منه أربعمائة، ويجمع له عساكر لأجل أن يأخذ بهم القلعة، فتعجب من ذلك أصحاب المدينة الأصلية، وعزم كل واحد منهم على الهروب إلى أي جهة كانت، ولكن لم تفتر همة سولون من ذلك، فبعدما أظهر لأهل البلاد حماقتهم وجبنهم قال لهم قبل ذلك، كان يسهل عليكم منع حدوث هذا الاستيلاء الظلمي، والآن بعد الوقوع يعد من فخركم إبطاله وإزالته بالكلية.

فلما رأى أن جميع ألفاظه لا تفيد في رجوع أهل البلاد عما عزموا عليه، رجع إلى بيته وأخذ سلاحه، وألقاه أمام باب مشورة الأهالي المسماة السنت، وصاح وقال: يا وطني العزيز، والله لقد ساعدتك على قدر ما يمكنني بالقول والفعل، وأشهد الله على أني ما أبقيت شيئًا لحماية الشرائع وحماية حرية وطني إلا فعلته، فيا أيها الوطن العزيز، إني ذاهب ومفارقك إلى الأبد؛ لأني قد أظهرت وحدي العداوة للحاكم الظالم. وجميع أهل البلد اتفقوا على أنه يكون عليهم حاكما، ولم يرض سولون أن يكون مطيعًا لبيزستراتث أبدًا.

ثم تخوّف سولون من أن الأثينيين يجبرونه على إبطال شرائعه، التي حلف أن يحفظها وتعاهدوا على إقامتها، فاستحسن أن يطرد نفسه طائعًا مختارًا، وأن يسافر لأجل معرفته الدنيا، أولى من أن يعيش معيشة رديئة بمدينة أثينا، فتوجه حينئذٍ إلى مصر ومكث فيها مدة من الزمن بديوان الملك امسيس.

ولما كان بيزستراتث يعتبر سولون اعتبارًا كاملًا ويعرف مقامه، حصل له

تأثر شديد بخروجه، فكتب له هذا المكتوب المشتمل على التبجيل والتعظيم، لقصد إرجاعه إلى أثينا (وصورته): لست أول إنسان من اليونان استولى على بلاده، ولم ارتكب شيئًا يخالف الشرائع ولا الآلهة، وذلك لأني من ذرية السلطان قدروس، الذي تعاهد اليونانيون على أنهم يبقون المملكة لذريته، وأنا لي اعتناء عظيم بحفظ أوامرك من حفظها حين كانت البلاد محكومة بالعامة، ولقد اكتفيت بالخراج الذي رأيته مرتبًا من غير زيادة، ولم يكن لي شيء يميزني من الأهالي، إلا أمور تشريفية يحتاج إليها منصبي، وليس عندي لك شيء من الغيظ، حيث كونك أظهرت للناس حالي الذي كنت أضمرته، ولا شك عندي أن إظهارك ذلك إنما كان الحامل عليه حبك للوطن لا بغضك لي، وإنك لا تدري كيف كانت طريقتي التي أنا عليها، ولو رأيتها لربما كنت ترضى بها، فأرجع حينئذٍ مطمئنًا وثق بكلامي، وأعلم أنه لا ينبغي لحكيم يكون مثلك أن يخشى من إنسان مثل بيزستراتث؛ لأني ما رضيت أن أضر الذين كانوا أعدائي طول عمرهم، فكيف أضر أحبائي وأني دائمًا أعتقد أنك من أعز أحبابي، ويكون لك جميع ما يسرك من جهتي؛ لأني أعلم أنك لست مذنبًا ولا خائنًا أبدًا، فإن كان لك أسباب تمنعك من المجيء إلى مدينة أثينا، فإنك تسكن حينئذٍ بأي محل تريده، ويحصل لي غاية السرور إذا كان سبب غربتك شيء غيري، ولا أكون سببًا فيها.

(فأجابه سولون بهذا الجواب): أنا أتيقن وأجزم أنك لا تصنع معي شرًّا؛ لأني كنت لك صاحبًا من قبل أن تتولى طاغية، وأعلم أني لست عندك أزيد من الناس الذين يكرهون الطاغية، ولو خلينا كل إنسان وعلقه، لما شك أن الأحسن أن تكون بلاد أثينا محكومة بعدة حكام ومشورات، وهذا بالضرورة أنفع لها من حاكم واحد فاعل مختار، وأنا اشهد أنك أحسن من جميع الطواغي،

ولكن لا أظن أن رجوعي إلى مدينة أثينا لائق بعد أن رتبت سياسة مبنية على الحرية، وامتنعت من الإمارة التي أعطوني إياها، فإذا رجعت يكون الحق لهم أن يلوموني، ويظنوا أني رضيت بما تفعله من جورك حتى رجعت ثانيًا.

(وكتب مكتوبًا آخر لابميميندس بهذه الكيفية وصورته): ولما كانت شرائعي لم يرتب على عملها فائدة عظيمة للمدينة، وحصل بفتحها منفعة عظيمة، وحينئذٍ فأرباب الشرائع والأحكام لا يمكنهم أن يجلبوا نفعًا للمدن، ولكن الذي ينفع هم الذين يسرقون الرعايا كما يريدون، إذا كان مقصدهم حسنًا وشرائعي لم يكن لها نفع، ولكن الذين خالفوها أبطلوا الجمهورية والحرية ولم يمنعوا بيزستراتث عن أن يتغلب على السلطنة، وقد أخبرتهم عن الذين سيأتي قبل وقوعه فما صدقوني، وبيزستراتث الذي كان أطمع أهل مدينة أثينا، ظهر لهم أنه أحسن مني، وأنه يقول لهم الحق، وقد عرضت عليهم أن أكون رئيس الأهالي لأجل تدارك ما يقع من المضار، فظنوا أني مجنون، ورخصوا لبيزستراتث أن يجعل له حراسًا، فتغلب على المدينة، واسترق أهلها، وأنا أخذت في أسباب الخروج منها، فخرجت. انتهى.

وأكرسيوس ملك مدينة لديانس، طلب من جميع اليونان الذين ببلاد آسيا أن يدفعوا له الجزية، فهرب كثير من عظماء الناس الماهرين الموجودين في هذا المحل، وتركوا أرض اليونان وسكنوا بمدينة ساردس كرسي السلطنة ذلك الملك، وكانت هذه المدينة في هذا الوقت عامرة كثيرة العز والشرف والأموال، وكان هؤلاء الغرباء الذين دخلوها يتكلمون كثيرًا في حق سولون، ويكثرون من مدحه والثناء عليه، فكان ذلك باعثًا للملك المذكور على أن ينظر سلولون، فأرسل إليه يطلبه ويترجاه أن يحضر عنده، فأرسل له سولون هذا الجواب: قد

عرفت منك كثرة المحبة والعز لي، وشاهدت منك التشريف لي، والله شهيد على أنني من حين فراقي لوطني، ما سكنت بمملكة حرة، فأحب أن أعيش بمملكتك، ولا أقيم بمدينة أثينا ما دام بيزستراتث متصرفًا في تلك الدولة، ولكن حالتي التي أنا عليها من المعيشة، في المحل الذي يستوي فيه جميع الناس، أهنأ عندي من معيشتي في مملكتك، ومع ذلك لا بد أني أنظرك وأمكث معك مدة من الزمن.

ثم توَّجه سولون إلى مدينة سارديس بتضرع أكرسيوس له في ذلك، حيث كان هذا الملك يرغب غاية الرغبة في نظره لشدة الاشتياق إليه، فلما أجتاز بلاد لديا، رأى كثيرًا من أعيان الناس العظام، كل واحد في موكب عظيم ومحفل جميل، وكان سولون لكما رأى واحدًا من هؤلاء الأعيان، يظن أنه الملك، فلما تمثل بين يدي الملك أكرسيوس، وتجمل الملك قصدًا بأفخر ما عنده من الثياب وأنواع الزينة والحلل، فلم يتعجب سولون في شيء من ذلك، ولم يحصل له ارتياب بسبب ما رأى من تلك الهيئة والأبهة، فقال له أكرسيوس: أيها الضيف، أنا أعرف حكمتك المشهورة على قدر سماع الصيت، وأتيقن أنك أكثرت السفر في البلاد، فهل رأيت أحدًا يلبس مثل ملابسي؟

فقال له سولون: نعم، الديوك الأهلية والبرية والطاوس لها شيء أعظم من هذا؛ لأن جميع ما كان عليها من الزينة شيء خلقي لم تتكلف التزين به، فتعجب الملك أكرسيوس من هذا الجواب الارتجالي، وأمر خدمته أن يفتحوا جميع خزائنه وينشروا جميع ما فيها من أمام سولون، وأمر أيضًا بأنهم يحضرون نفيس أمتعة السرايا، فجهزوا جميع ذلك، وأحضروا سولون مرة ثانية بين يدي الملك، فقال له: هل رأيت أحدًا أسعد مني؟

فقال له: نعم، رأيت طيلوس من أهل مدينة أثينا، وهو الذي عاش طول عمره على غاية من الصلاح في الجمهورية المتأدبة، وخلف ولدين معتبرين وأموالًا كافية في معيشتهما، ومات سعيدًا سلاحه في يده قرير العين بنصرة وطنه، وأهل مدينة أثينا عملوا له قبرًا عظيمًا في المحل الذي توفي به، واحتفلوا بجنازته احتفالًا كبيرًا وأظهروا له غاية الشرف.

فتعجب أكرسيوس من كلامه، وظن أن سولون رجل مجنون، وقال له: مَنْ أسعد الناس بعد طيلوس؟

فأجابه بقوله: كان في الزمن السابق إخوان: أحدهما يسمى أكليوبيس؛ والآخر بيطون، وكانا شجاعين جدًا، وكانا دائمًا ينتصران في جميع الحروب، وكانا محبين لبعضهما جدًا، وكانت أمهما قسيسة هيكل يونون، وكانا يحبانها غاية المحبة، فقصدت أمهما أن تقرب قربانًا لهيكل يونون، فركبت على عربة، فتأخر الذي يجر بها العربة، فجاء ولداها المذكوران، وجرا بها العربة عوضًا عن البقر وأوصلاها للهيكل، فأثنى عليهما جميع الناس، ودعوا لهما بالبركة، ففرحت أمهما بذلك، وطلبت من صنمة يونون أن تعطيهما كل ما ينفعهما، فلما فرغوا من القربان، وأكلوا رجعوا إلى منزلهم، فرقد الاثنان وأصبحا ميتين في ليلة واحدة.

فلم يقدر أكرسيوس أن يمنع نفسه من الغضب، وقال له: كيف لا تعدني من جملة السعداء؟

فقال له سولون: يا ملك الليدينينا، أنت من أسعد الناس، ومن أكثر الملوك رعايا، ولكن الدهر كثير التغير والزمن له حادثات، لا يمكن للإنسان أن يشك فيها، والليل والنهار يتولد فيهما الحوادث، وأنه لا يمكن للإنسان أن يعلم

لنصرة قبل انقضاء الحرب. فاغتاظ الملك أكرسيوس من ذلك غيظًا شديدًا وطرد سولون، ولم يشته أن ينظر إليه بعد ذلك أبدًا.

وكان ايزوب -الذي قيل: إنه لقمان الحكيم- في ذلك الوقت بمدينة سادريس، وكان حضر إليها بقصد تسلية الملك أكرسيوس. فلما بلغه ما حصل منه في حق سولون صاحب الفضل والمعرفة، تأثر من ذلك، وقال: يا سولون، لا ينبغي القرب من الملوك، فإن كان ولا بد فإنه لا ينبغي أن تخبرهم ما يستعظمونه، فيغتاظون منه.

فقال له سولون: إن الأمر بخلاف ذلك، وهو أن لا ينبغي القرب من الملوك، فإذا قرب الإنسان منهم، فإنه ينبغي له دائمًا أن ينصحهم على قدر الطاقة، ولا يقول لهم إلا الحق.

ويُحكى أن قيروس -ملك العجم- كان أسر الملك استياجس جد أكرسيوس أبا أمه، وأخذ جميع ملكه، وذلك إساءة أدب في حق اكرسيوس، فغضب أكرسيوس لذلك، وأخذته الحمية على جده، وقصد حرب بلاد العجم؛ لأنه رأى نفسه ذا ثروة كثيرة لا نهاية لها، ونظر أن أهل مملكته أشجع من جميع العالم في الحرب، فظن أنه لا يبعد عليه شيء، فمن سوء حظه انهزم، ورجع بالهزيمة إلى مدينة سارديس، فحاصروه فيها مدة أربعة عشر يومًا، وبعد ذلك أخذوه أسيرًا بالسلاسل والأغلال وأحضروه إلى قيروس، فأمر بأن يوضع مربوطًا في مستوقد مملوء بالحطب، ووضعوا حوله أربعة عشر غلامًا من بلاد لديا، وأمر بأن يحرقوه بالنار بمشاهدة قيروس وجميع العجم، وهموا بوضع النار في الحطب المذكور.

فبينما أكرسيوس في هذه الحالة المحزنة، وإذا هو يتفكر في الأقوال التي كان سمعها سابقًا من سولون، فصاح بتأسف وقال: يا سولون، ثلاث مرات، فتعجب منه قيروس، وأرسل يسأله ما هذا الاسم الذي تذكره، هل هو من أسماء الآلهة؟ تدعوه أجل أن يخلصك من هذا الأمر. فما أجابه أكرسيوس أصلًا، فشددوا عليه في الجواب، فأجابهم مع شدة حزنه، وقال: هذا الذي ذكرته رجل ينبغي أن الملوك يستصحبونه دائمًا، ويقربونه منهم، ويعتبرونه ويسمعون كلامه، فإنه أنفع من خزائنهم، وجميع ما عندهم من الأشياء النفيسة.

فقالوا: حدثنا عنه. واستعجلوه على ذلك، فقال: إنه أعظم حكماء اليونان، وأنا قد كنت أرسلت له سابقًا، لأجل أن أستشيره في جميع أموري المهمة، فقال لي من غير اعتناء: إن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا باطل وزائل، وإنه ينبغي أن أتوقع آخر عمري، وأنه لا ينبغي للإنسان أن لا يغتر بسعادته، ولا يعتمد عليها؛ لأنها معرضة لكثير من المصائب التي لا نهاية لها، فقد عرفت الآن حقيقة جميع ما قاله لي وفي أثناء تكلمه بهذا الكلام، اشتعلت النار في الحطب من تحت المستوقد، وابتدئ بصعودها إلى فوق، فعند ذلك حصل لقيروس شفقة على أكرسيوس لما سمع كلامه، ولما رأى هذه الحالة المحزنة التي كان عليها هذا الأمير الذي كان صاحب شوكة، فاتعظ في نفسه، وخاف أن تحصل له مصيبة بعد ذلك تشبه هذه الحالة، فأمر في الحال بإطفاء النار وإطلاق أكرسيوس من السلاسل والأغلال التي كان بها، وأحسن له بأحسن وجوه الإحسان مع غاية التشريف، واعتمد على مشورته في سائر الأمور المهمة جدًّا.

ثم إن سولون بعدما ترك اكرسيوس توجه إلى مدينة تيليقيا، وبنى مدينة عظيمة وسماها سولون باسمه، وبلغه أن بيزستراتث إلى الآن قائم بالسلطنة في

مدينة أثينا، ومدمن على الظلم بها، وأن أهلها ندموا على رضاهم له بغصب الملكة، فكتب لهم سولون كتابًا صورته هكذا: إنكم لم تنصفوا في نسبتكم سوء حظكم للآلهة، وما تقولونه الآن إنما هو ناشئ عن طيشكم في عدم تصديقكم الناس الذين لهم خبرة ومعرفة بتدبير ما يلزم للوطن، ومن كونكم ركنتم إلى قول الذي أراد غشكم، وأمرتموه بأن يتخذ لنفسه خفراء، فتوصل بذلك إلى أن استولى على وطنكم واستعبدكم طول العمر.

ثم إن برياندر ملك مدينة كورانت أظهر سولون جميع أشغال دولته، وترجاه في كونه يكون مشيرًا عليه فيها، فرد عليه سولون بهذا الجواب: أنت ولو نجوت من أعدائك الذين تعصبوا عليك وقتلتهم جميعًا، فإنه لا يفيدك حسن الحال، فإن من لا يخطر ببالك عداوته، هو الذي ينصب لك الشرك؛ وذلك لأن الناس ثلاثة أقسام: فمنهم مَن يخاف على نفسه، ومنهم مَن لا تسمح نفسه أن يرضى بأفعالك التي تعود بالضرر، ومنهم مَن يظن بعداوتك نفع وطنه نفعًا عظيمًا. فأعظم ما ينبغي لك سلوكه هو أن تترك المملكة بالكلية، وإن لم تصبر على ترك المملكة، فاتخذ لنفسك جيوشًا أخرين من بلاد الغرباء، لأجل أن تمسك زمام ملكك، وتستعين بها على أمانك، ولا يبقى عندك خوف من أي محل، وبعد ذلك لا تطرد أحدًا من بلادك.

ثم بعد ذلك توجه سولون إلى جزيرة قبرص مع فيلو قبرص أمير مدينة أوبيا، وهذه المدينة كانت موضوعة في محل عقيم جدًا، فأشار عليه سولون أن يبني له مدينة غيرها محل آخر يكون أحسن من هذا، فاختار له قطعة أرض سهلة كثيرة الخصب والثمار، وصار سولون يباشر عمارتها بنفسه، فنجحت فأراد فيلو قبرص أن يسمي هذه المدينة سولوس؛ لأجل إظهار الاعتراف

والشكر لسولون في نظير معروفه.

وكان سولون دائمًا يحب الحظ في مدة عمره الذي عاشه، وكان يحب المطعومات اللذيذة، ويحب الموسيقى يعني: علم الألحان، وجميع ما يستعان به على لذة المعيشة، وكان يكره الأشعار والتآليف المخترعة التي يخترع فيها الإنسان كل ما يبدو ويخطر بباله، وكان يرى أن هذا يعود بالضرر على الجمهورية، وأنه ربما يترتب عليه ما لا يحصى من الفتن.

وحين كان سولون له اعتبار عظيم بمدينة أثينا، شرع تثبيس أن يتلاعب أيامه وينشد قصائده المحزنة التي نظمها بنفسه، فحصل للرعية غاية الحظ. فبعد ما فرغ من هذا كله قال سولون لتثبيس: أنت ما تستحي من هذا الكذب، الذي تقوله عند جميع الناس؟ فأجاب تثبيس بقوله: إن هذا لا ضرر فيه؛ لأنه لأجل الهزل والمباسطة. فضرب سولون الأرض بعصا كانت بيده، وقال: إنا إذا أقررنا على هذا الكذب في هزلنا، فمن قريب يصير جدًّا، ويكون في الأشغال العامة والمصالح المهمة، ولهذا صاح سولون بعد ذلك حتى حملوا بيزستراتس على العربة وهو مجروح ملوث بالدماء في المجمع العام، فلما رآه سولون على هذه الحالة قال: في الأصل الخبيث يتولد منه الغش والخداع والتحيل، يشير بهذا إلى هذه الأشعار والقصائد والألعاب، وزعم بعضهم أن الذي أحدث المحكمة المسماة أريوباجه، وهي مشورة مؤلفة من جميع الكبار، الذي كانوا تقلدوا على التعاقب بجميع مناصب أثينا.

وسُئل سولون ذات يوم فقيل له: ما المملكة التي بلغت غاية التأديب عن غيرها من الممالك؟ فقال: هي التي لم يحصل لأهلها ذل ولا ظلم، وإذا حصل لغيرهم ظلم ينتصرون للمظلوم، ويأخذون حقه مع غاية الشدة والقسوة كأنهم

هم المظلومون.

وفي أواخر عمره ابتدأ بنظم قصيدة في شأن جزيرة أطلنطيلة، التي سمع ببر مصر أنهم يجعلونها وراء البحر المحيط المعروف، فادركه الموت بجزيرة قبرص، ولم يكمل منظومته. وكان ذلك في الأولمبياد الخامس والخمسين، وكان عمره قريبًا من الثمانين سنة، وأمرهم قبل أن يموت بأنهم ينقلون عظمه إلى مملكة سلامينا، ويحرقونه ويذرون رماده في الفلاة، وأهل مدينة أثينا بعد وفاته رسموا صورته من نحاس أصفر، وجعلوه ماسكًا كتاب القانون الذي ألفه بيده، وعليه ثياب مثل ثياب أمير الرعية، وأهل مدينة سلامينا صوروه في هيئة أخرى مثل خطيب يتكلم وينهى العالم، ويداه موضوعتان في طي ثيابه.

تاريخ بيتاقوس الفيلسوف

ظهر بيتاقوس في الأولمبياد الثاني والأربعين، وتُوفي في السنة الثالثة من الأولمبياد الثاني والخمسين وعمره سبعون سنة، وهو ابن هيراديوس أصله من مدينة نهراس، وولد في مدينة ميلطينا، وهي مدينة صغيرة من جزيرة ليسبوس، قريبًا من الأولمبياد التاسع والعشرين، واستمر مدة صباه يمارس الأمور العظيمة، وكان من رؤساء العساكر وشجعانهم، وكان محبًّا لوطنه وأهله.

ومن حكمه: ينبغي للإنسان أن يدور مع الزمن وأن لا يضيع الفرصة.

وفي أول أمره تحزب مع أخي السيا على ميلانحوس الملك، الذي كان تغلب واستولى على مملكة جزيرة ليسبوس وهزمه، فصار له صيت عظيم في الشجاعة بسبب هذه الواقعة. وقيل: إنها وقعت حروب شديدة مدة من الزمن بين الميطيلينيين والأثينيين بسبب قطعة أرض تُسمى اخليطيدس، فالميطيلينيون اختاروا أن يكون كبير جيوشهم بيتاقوس، فلما تجهز الجيشان وأرادوا القتال، طلب بيتاقوس المبارزة مع افروتون قائد جيوش الأثينيين لأجل أن يتحاربا، وكان افروتون مشهورًا بالشجاعة والنصرة في جميع الحروب، ولبس الإكليل مرارًا عديدة في الالعاب الأولمبيقية -أي ميدان الصنم-، فرضي بذلك افروتون، وقال: إن الذي يغلب صاحبه يصير له الفخر، ويكون حاكمًا لتلك الأرض التي هي سبب للقتال.

من غير شك فتقارب هذان الأميران من بعضهما بين الجيشين، وكان بيتاقوس قد خبأ سهمه تحت الدرقة، وقبل أن يتهيأ افروتون للقتال رماه بتباقوس بالسهم مسرعًا، فقتله أمام الجيشين، وصاح بأعلى صوته: أنا ما قتلتُ

رجلًا، وإنما هي سمكة. وصار بيتاقوس من هذا الوقت حاكمًا في تلك الأرض، ولما طال عمره لان جانبه وصار يذوق حلاوة الفلسفة شيئًا فشيئًا، وكان الميطيلينيون يكرمونه إكرامًا زائدًا، حتى جعلوه أميرًا على مدينتهم، فرتب قوانين في الجمهورية في جميع ممالكه، ثم لما طال عمره واكتسب التجاريب حصل له التعب والمشقة مدة نحو اثنتي عشرة سنة، فاختار لنفسه المعيشة في الغربة أولى من هذه المعيشة التي حصلت له في هذه المدة، ثم شرع في أمر سهل لأجل المعيشة في الدنيا، فلما تم له ما أراد شهد له الميطيلينيون بجميع المعروف الذي صنعه من أجلهم، وصنعوا له محلًا عظيمًا جدًّا، محفًّا بأنواع من أشجار الورد وأشجار العنب، وصنعوا فيه الشبابيك المذهبة المزينة؛ لأجل أن يعيش بينهم مسرورًا وينسى جميع ما أصابه من الأمور الصعبة، في نظير ما صنعه معهم من الجميل.

فعندها جرد سيفه بعزمه من غمده، وجذبه جذبة عظيمة، فحصل له سرور عظيم من جذبة ذلك السيف، فتعجب من هذا حكام البلد، وطلبوا منه أن يخبرهم عن سبب جذب السيف، فقال لهم: لا تطيلوا في الكلام، إن هذا السبب أعظم عندي من جميع الأشياء.

ثم إن أكرسيوس كتب له في بعض الأيام أن يحضر عنده، ويرى ما هو عليه من الثروة والغنى، فكتب له بيتاقوس هذا الجواب: أتريد أن تحضرني إلى مدينة ليديا لأجل أن أنظر خزائنك، وأنا سواء نظرت ذلك أم لم أنظره، لا أظن أنك أغنى الملوك، وإذا كان عندي جميع ما تملكه، لا أظن في نفسي ذلك، وأيضًا لا حاجة لي في النظر إلى شيء لا ينفعني في معيشتي، ولا ينفع أحدًا من أصحابي، ولكن يمكن أن أحضر عندك لأجل السرور بالاجتماع.

ثم إن أكرسيوس بعد أن قهر جميع الروم الذين كانوا بمملكة آسيا، نوى على أن يحضر له سفنًا، ويسير فيها ليستولي على جميع جزائر اليونان، وكان بيتاقوس في ذلك الوقت بمملكة سرديس، فسأله أكرسيوس عن خبر بلاد اليونان، فقال له: أيها الملك، إن أهل الجزائر اشتروا عشرة آلاف فرس لأجل الحرب معك، ويأخذوا مدينة سادريس.

فحصل له من ذلك وجل وقال له: أتظن أن أهل الجزائر يقدرون على أخذ ممالكنا بخيلهم هذه؟ فقال له بيتاقوس: الظاهر أنهم نووا على ذلك، فلو رأيتهم أيها الملك على ظهور خيولهم وعلى الأرض لرأيت عجبًا، ولا أظن أنك تقهرهم إذا أرسلت إليهم جيوشًا في البر، والأحسن أن ترسل إليهم جيوشًا في البحر، فيمكنك أن تقهرهم أنت والليديانيون الذين انتقمتم من الأروام، وصاروا في غاية الذل والأسر.

فظن اكرسيوس أن بيتاقوس كان صادقًا في ذلك القول الذي قاله له، فرجع عما كان نواه، واصطلح مع أهل هذه الجزائر.

وكان بيتاقوس قبيح المنظر وصورته بشعة، وكان كثيرًا ما يشتكي وجع عينيه، وكان غليظ الجثة قليل الانتباه جدًّا، وكان رديء المشية بسبب خلل كان في رجليه، وكان متزوجًا بينت القاضي أدراكون، وكانت امرأة متكبرة بذية اللسان سيئة الأخلاق جدا، بحيث إنها لا تطاق، وكانت تحتقره احتقارًا كليًّا لبشاعة منظره، ولكونها من أبناء الناس العظام.

وفي بعض الأيام دعا بيتاقوس جملة من أصحابه الفلاسفة، فلما طلب إحضار الطعام لهم، فمن سوء أخلاق زوجته ألقت السفرة بما عليها من

الأطعمة واللحم، فلم يغتم بيتاقوس من ذلك، ولم يحصل عنده غيظ، وقال لأصحابه: إنها مجنونة فلا تلوموها في ما صنعته، وذلك بسبب ما وقع له من زوجته من الشقاق. ومن هذه القبائح كانت له كراهة شديدة في النساء المخالفات لأزواجهن، وجاءه في بعض الأيام رجل يسأله فقال: إني أريد أن أتزوج بإحدى اثنتين واحدة منهما تساويني في الحسب وغيره، والثانية أغنى مني وأعلى نسبًا فاختر لي واحدة منهما. فرفع عليه عصا كان يتوكأ عليها، وقال له: اذهب إلى مجمع الصبيان الذين يلعبون فيه، واسمع منهم الذي يقولونه واعمل به. فتوجه الرجل إلى ملعب الصبيان، فسمعهم ينبهون بعضهم ويقولون: كل واحد يأخذ نده. فاعتبر بذلك هذا الرجل، وانتهى عن أخذ التي هي فوقه في الغنى والنسب، وأخذ الأخرى التي تقاربه في الصفات.

وكان بيتاقوس كثير القناعة، وكان لا يتعاطى شيئًا من أنواع الشراب، ولم يكن يشرب غير الماء، مع أن جميع الأشربة من خمر ونبيذ كانت مباحة لجميع الناس بمدينة ميطيلينا، وكان دائمًا ينهى برياندرس سرًّا عن شرب النبيذ لينال غرضه من سلطنة كوريته، ويتمكن من بقائه سلطانًا، وأمر بأن الذي يحصل منه ذنب حال السكر يضاعف عقابه، وكان يقول: إن الشرائع هي أعظم من كل شيء؛ لأن الآلهة في أغلب الأوقات يلتزمون أن يطيعوا أمر الشرائع، وكان من ذوي العقول العظام المقربين من الجمهورية؛ لأن الرجل الحكيم يلزمه دائمًا الامتثال لجميع ما يطرأ عليه من الشدائد، حتى تزول وتنكشف بأسهل حالة، وكان يقول: إنه يصعب على الإنسان جدًّا أن يسعد نفسه بنفسه.

وكان يقول: إنه ليس شيء أحسن من صنع المعروف المعجل. وكان يقول: إذا أردت نجاح أمر، فتفكر فيه وحدك، ويلزم الاهتمام والإسراع في عمل الشيء

الذي تريد فعله، وكان يقول: إن النصر المقبول هو الذي يحصل من غير سفك دماء، وكان يقول: يلزم الملك إذا أراد ضبط مملكته أن يكون هو وخاصته، وجنوده طائعين للشرائع مثل أقل الرعايا.

وقال لتلاميذه: إذا شرعتم في اختراع شيء أو عمل أمر، فلا تفتخروا به قبل تمامه؛ لأنه ربما منع من اتمامه سوء حظ صاحبه، فتسخر بكم العامة، ولا تلوموا أحدًا بسبب مكروه أصابه، فيصيبكم مثل ما أصابه، ولا تتكلموا بسوء في حق أحد، ولو كان عدوًّا لكم، واحفظوا أصحابكم وعيشوا معهم بالمعروف مع الاحتراس، فلربما انقلب الصديق عدوًّا، وعليكم بالعفة والزهد والصدق. وعليكم بطاعة الله، واحفظوا ما ائتمنتم عليه من الودائع والأمانات حتى تؤدوها إلى أهلها، ولا تبيحوا بالسر أبدًا، وكان قد نظم جملة من الأشعار، وقال فيها: يلزم الإنسان أن يأخذ قوسه ونشابه ويقصد قتل أرباب الشرور في أي محل يراهم به؛ لأن صاحب الشر صدره مملوء بالحقد، وفمه لا يبيح بما في ضميره، فينبغي أن يكون الإنسان منه على حذر.

وكان اكرسيوس أرسل إليه جملة من الدراهم على جهة الهدية، فامتنع بيتاقوس من قبولها مع غاية فقره، وأرسل يقول له: أنا عندي قدر ما أنا طالبه مرتين؛ لأن أخي توفي وليس له ذرية، فرجع ميراثه إليَّ وحدي. وكانت أجوبته سريعة دائمًا.

وسُئل: أيُّ الأشياء أكثر تغيرًا؟ فقال: مجاري المياه وأعراض النساء. وسُئل: أي شيء لا يفعله الإنسان إلا بغاية النظر والتاني جدًّا؟ فقال: اقتراض الدراهم من الأحباب. وسُئل: ما الشيء الذي يلزم في كل محل؟ فأجاب: إن الإنسان يغتنم الخير ويصبر على الشر حين يأتي. وسُئل: ما أعظم الأشياء؟

فأجاب بقوله: هو الزمن. وسُئل: ما أخفى الأشياء؟ فأجاب بقوله: هو المستقبل. وسُئل: ما الأكثر أمانة؟ فأجاب بقوله: هو الأرض. وسُئل: ما الأكثر خيانة؟ فقال: هو البحر.

وقال له فوقيوس: إني أريد أن استشير رجلًا صالحًا في شيء في ضميري. فقال له بيتاقوس: لا يمكن أن تجد أمينًا ولو بحثت مهما بحثت.

وقيل: إن تيري بن بيتاقوس كان ذات يوم في قومس بحانوت رجل حجام، مع جمع من الشبان الذين كانا يجتمعون هناك على العادة للتحدث والاستخبار، فبينما هو كذلك وإذا برجل صنائعي ألقى سكة من حديد من غير عمد، فوقعت على رأس تيري، فقسمتها نصفين، فهمَّ أهل مدينة قومس بقتل ذلك الرجل، وأمسكوه واحضروه عند بيتاقوس والد هذا الميت المقتول، فبحث عما حصل لولده وعن ذلك الفعل، فرأى أن الرجل ألقى قطعة الحديد على رأس ولده غير متعمد، بل هو معذور، فعفا عنه وأمر بإطلاقه، وقال: إن الذنب الذي لم يكن مقصودًا يستحق العفو عنه، وأما المقصود فيستحق التشديد على فاعله، ويقاص بما يليق.

وكان يتسلى في بعض الأحيان بنظم الأشعار، وألّف جميع قوانينه وبعضًا من كتبه منظومة على طريقة الأشعار، واشتغاله في العادة كان يتسلى بدوران البغل في الرحى لأجل طحن الحنطة والحب، وهو كان أستاذ افريقيدس، وهو ممن جعله بعضهم من حكماء اليونان، والذي كان موته من العجائب، قيل: إنه لما كانت الحروب متصبة بين الافسوسيين والمغنيسيين، وكان افريقيدس له ميل عظيم لأهالي أفسوس وهي مدينة أهل الكهف، فتلاقى مع رجل في طريقه، فسأله: من أي بلد هو؟ فقال له: من أفسوس. فقال له: امسكني من رجلي

واسحبني إلى مدينة مغنيسيا، ثم اذهب مسرعًا إلى الافسوسيين وأخبرهم بالكيفية التي أمرتك بها، وأوصهم أن يدفنوني بجانب المنصورين.

فجر ذلك الرجل افريقيدس كما أمره، وذهب للأفسوسيين، وأخبرهم بجميع ما قاله افريقيدس، فقاموا حالًا إلى الحرب، وحصلت مقتلة عظيمة وانتصروا على أعدائهم، وقصدوا الجهة التي كان أخبرهم بها، فوجدوه فيها ميتًا، فحملوه حتى أتوا به مدينتهم وعملوا له جنازة عظيمة.

وتُوفي بيتاقوس بجزيرة لسبوس وعاش سبعين سنة، وكانت وفاته في الأولمبياد الثاني والخمسين.

تاريخ بياس الفيلسوف

كان هذا الفيلسوف في عصر بيتاقوس، وظهر في زمن حكم هلياطس وزمن أكرسيوس، اللذين هما من ملوك لوديا، وأصله من مدينة ابريت وهي مدينة صغيرة من ممالك كاريا، وكانت له شهرة عظيمة في سائر بلاد اليونان في مدة حكم هلياطس واكرسيوس، واستمرت شهرته من مبدأ الأولمبياد الأربعين إلى وقت وفاته.

وكان من أعيان أهل المدينة المتعلقين بأوطانهم، وله معرفة جيدة بسائر الأمور، وصاحب تدبير وأدب وعاش مقترًا على نفسه مع أنه كان من أغنى أهل زمانه، وكان يصرف جميع أمواله لمساعدة المحتاجين، وكان من أعظم خطباء أهل زمانه، وكان كثيرا ما يحامي عن الفقراء والمساكين، ولا يقصد بذلك إلا تحصيل الشرف لوطنه، ولم يكن له مدخلية إلا في الأمور التي يجزم بأنها حق، وقد صار هذا مثلًا في جميع البلاد، فكانوا إذا جزموا بصدق شيء يقولون: هو مثل ما قال بياس. وإذا مدحوا خطيبًا قالوا: إنه مثل بياس.

وتعدَّى جماعة منَ قُطَّاع الطريق قريبًا من مدينة مسينه في موره على بعض السفن، وأخذوا منها بعضا من البنات، وأرادوا أنْ يبيعوهن، فاشتراهن بياس منهم بأغلى ثمن وأرسلهن إلى محله وبالغ في إكرامهن حتى كأنهن من أولاده، وبعد ذلك أعطى لكل واحدة منهن هدية عظيمة وأرسلها إلى أهلها، فصار له بسبب ذلك شهرة وصيت عظيم بسائر بلاد الروم. وأغلب الناس إنما كان يسميه أمير الحكماء.

ثم بعد مدة من الزمن اتفق أن جماعة من الصيادين الذين بمدينة مسينة

أخرجوا سمكة كبيرة، فرأوا في بطنها أناء من الذهب مكتوبًا عليه يعطى لأعظم الحكماء، فاجتمع قضاة أهل هذه المدينة، وتشاوروا في مَنْ يعطى له هذا الإناء، فاجتمع البنات اللاتي صنع معهن بياس المعروف المتقدم ذكره، وقلن لأهاليهن وآبائهن: إن هذا الإناء لا يعطى إلا لبياس؛ لأنه أعظم الحكماء. فاتفق رأي القضاة على ذلك فأرسلوه إلى بياس. فلما وصل إليه ونظره وقرأ ما هو مكتوب عليه امتنع من قبوله، وقال: لست له أهلًا، وإنما الذي يستحقه أوبولون -يعني صنم الشمس-؛ لأنه أعظم الحكماء. وزعم بعض الناس أن هذا الإناء هو الكرسي ذو الثلاث قوائم، الذي تقدم في ترجمة طاليس الفيلسوف، وهذه الحكاية مخترعة على منوال الحكاية المتقدمة، وقال آخرون: إن الكرسي أُرسل إلى بياس أولًا.

وكان الملك هلياطس سلطان مدينة لوديا خرب جملة من مدائن اليونان التي في بلاد أسيا وبعدها حاصر مدينة بريانة، وكان بياس في ذلك الوقت رئيس قضاة المدينة، فقاوم مدة طويلة، ولكن لما كان هلياطس مصممًا على بلوغ مقصوده حتى يبذل غاية جهده، وحصل للمدينة كثرة التعب بسبب ما فيها من القحط الناشئ عن الحصار، فعلف بغلتين له حتى سمنتا، وطردهما على الجهة التي فيها عساكر الأعداء ليريه أنهما هاربتان منه، فلما رأى هاتين البغلتين مع غاية السمن حصل له غاية العجب وتخوف أنه لا يمكنه أخذ هذه المدينة لكثرة خصبها وعدم قحط أهلها، فدبر حيلة وأرسل رجلا يتأمل له سرًا في أحوال أهلها، وينظر كيفية معيشتهم، ولكن بياس فهم الذي يقع من هلياطس، فصنع حفرا عظيمة وملأها رملًا، ووضع في فم كل حفرة شيئًا من أنواع الحنطة والمطعومات، بحيث إن الجواسيس إذا حضروا لا يرون إلا كثرة الخصب، فلما حضروا ورأوا ذلك أخبروا هلياطس بذلك، ودخلت عليهم هذه الحيلة، فرفع

عنهم الحصار، وقال: أهل هذه المدينة يكونون في الصلح. وتحالف معهم واشتاق أن يرى بياس، وأرسل إليه أن يحضر عنده لينظر إلى عسكره، فقال بياس للرسول: قل للملك إني ساكن في هذه المدينة، وأوصيك أن تأكل البصل وتعيش فقيرًا وتحزن فيما بقي من أيام عمرك.

وكان دائمًا يحب نظم الأشعار، فنظم ألفي بيت شعر، وجعلها حكمًا تفيد جميع العالم، أن كل إنسان يمكنه أن يحسن معيشته، ويحسن تدبير الجمهورية في وقت الحرب والصلح. وطالما كان يقول: اجتهد في كونك تعجب جميع الناس؛ لأنك إذا بلغت ذلك ترى لذات كثيرة لا منفعة لها مدة حياتك. وكان يقول: إن إظهار التفاخر والازدراء بغيرك لا يفيد خيرًا أبدًا، وقال: عليك بحب أصحابك مع الاقتصاد، وكن منهم على حذر فربما صاروا لك أعداء، واقتصد في بعض أعدائك أيضًا؛ لأنه ربما صاروا في العواقب لك أحبابًا.

وقال: اختر لنفسك مَنْ تصاحبه، وميز كل شخص على قدر درجته، واقتد بمن يشرفك الاقتداء به، واعلم أن صلاح الأصحاب يكون معينًا على حسن شهرتك، ولا تستعجل في الكلام، فإن هذا علامة الطيش والجنون، واجتهد في اكتساب المعارف في زمن صباك؛ لأن هذا يكون عونًا لك في زمن عجزك، ولا يمكنك أن تصنع شيئًا أحسن من الذي يكون لك به الفخر في الأواخر، والغضب والاستعجال شيئان يضادان الحزم.

وكان يقول: أهل الصلاح قليلون جدًّا، وأشرار العالم ومجانينهم كثيرون. وقال: لا تقصر أبدًا في وفاء ما وعدت به كما وعدت، وأشكر مولاك على ما أولاك وأحمده، فالحمد واجب على كل إنسان. وقال: لا تثقل على أصحابك، والأحسن لك أن تجبر على أن تأخذ، وذلك خير لك من أن تجبرهم على أن

يعطوك، ولا تتصدى لما لا تستطيعه، وإذا عزمت على شيء فنجزه بغاية الهمة، ولا تشكر إنسانًا لأجل غناه، بل لصفاته الحميدة.

وقال: ينبغي لك أن تتيقن كل وقت أنه لا بد لك من الموت، ولا سبيل للبقاء على وجه الأرض والعافية هدية من الخالق والغنى أمر اتفاقي، والحكمة هي التي تجعل الإنسان قادرًا على إصلاح نفسه، وأهل وطنه. وقال: طلب المستحيل مرض من أمراض العقل.

وسُئل يومًا: عمّا يتسلى به الإنسان؟ فقال: الأماني. وسُئل: ما يسر الإنسان؟ فقال: الاكتساب. وسُئل: أي شيء يعسر على النفس حمله؟ فقال: هو الفقر بعد الغنى. وكان يقول: إنه لا فقر ممن يصاب بمصيبة لا يصبر عليها.

وكان ذات يوم في سفينة مع جماعة من أهل الإشراك، فهبت عليهم ريح عاصفة حتى أشرفت السفينة على الغرق، فحصل للمشركين غاية الخوف من الموت، وابتهلوا لآلهتهم بالدعاء بالنجاة، فقال لهم بياس: عليكم بالصمت؛ لأن آلهتكم إذا عرفوا أنكم في السفينة أغرقوها، وهلكنا جميعا.

وسأله رجل من أهل الشرك فقال: ما يجب على كل إنسان من العبادة للإله؟ فلم يجبه بياس بشيء أصلًا، فاستعجل المشرك بالكلام، وقال له: ما سبب سكوتك؟ فقال له بياس: أنت تسألني عن شيء لا يعنيك، فلا جواب لك عندي. وكان يقول: أنا أحب أن أفصل الخصومة بين أعدائي ولا أفصل خصومة بين أصدقائي؛ لأني إذا فصلت خصومة الأعداء، وقضيت على واحد من الخصمين، فقد أرضيت الآخر، فاكتسب محبة من قضيت له، وإذا قضيت على واحد من أصدقائي للآخر، فلربما صار المقضي عليه عدوا بعد أن كان

صديقًا، وكان ذات يوم مضطرًا لأن يحكم بالقتل على صديق من أعز أصدقائه لاقتضاء الشرع ذلك، فقبل أن ينطق بصيغة الحكم شرع في البكاء في وسط المحكمة، فقيل له: ما يبكيك مع أنه لا يمكن أن يحكم أحد بالقتل أو البراءة غيرك؟ فقال: إنما بكيت؛ لأن الجبلة أوجبت فيَّ الشفقة على من أصيب بنكبات الدهر، وأن الشريعة فرضت عليَّ أني لا أعتبر هذه الطبيعة.

وكان لا ينظم الأشياء التي تتعلق بالغنى في سلك الخير، وأن المال حظ للنفس، يمكن أن يستغني عنه الإنسان، وهو زائل لا محالة، وكان دائمًا يهدي الناس إلى ما ينفعهم من غير فرق بين العظيم والوضيع، ولما أخذت مدينة بريانة كان هو فيها، فكان كل واحد من أهلها وقت السلب والهجوم يأخذ ما يمكنه أن ينجو به، ويهرب إلى المحل الذي يأمن فيه على نفسهن فلم يبق في المدينة إلا بياس وحده مطمئنًا لم يتحرك من محله، وكأنه لم يشعر بشيء مع شدة الفتنة واختلال الأمر، ومع وقع هذه النكبة فسأله بعضهم: لأي شيء لم تخرج متاعك كغيرك؟ فقال: إنه لا يمكنني أخذ شيء عند وفاتين فلا يكون لي بذلك حاجة.

وما وقع له في آخر عمره أشهر مما وقع له قبل ذلك في أول حياته، واتفق أنه في بعض الأيام.أمرهم أن يحملوه إلى المحكمة لأجل قضاء حاجة لبعض أصحابه مع غاية الاجتهاد، وكان في ذلك الوقت هرمًا، فحصل له غاية المشقة حتى أسند رأسه على أحد أسباطه الذي كان معه في ذلك الوقت، فلما فرغ الخطيب المحامي عن خصم صاحبه من محاماته حكم القضاة لصاحب بياس بالبراءة فقضى على بياس حالاً ومات، مستندًا على ذراع سبطه.

فاجتمع أهل المدينة وعملوا له جنازة عظيمة، وعزاءً عظيمًا، وحصل لهم الغم الكلي على موته، وبنوا له قبرا عظيمًا مكتوبًا عليه هذه الكلمات (كانت

بريانة وطن بياس الحكيم، الذي كان سابقًا زينة جميع بلاد اليونان، وكان أعظم الحكماء الفلاسفة رأيًا) انتهت وكان عند أهل مدينة ابريانة معظمًا جدًّا، حتى أنهم شيدوا له هيكلًا، وصاروا يزورونه ويعظمونه.

تاريخ بريانذرس الفيلسوف

كان هذا الفيلسوف ملك مدينة كوريته، وهو من الفلاسفة المتقدمين في الأعصر الأول، ولم تُعرف السنة التي وُلِدَ فيها على وجه التحقيق، ولا السنة التي توفي فيها أيضًا، وكان فيه نوع من الجنون ومن العجائب، كون اليونان جعلوه حكيمًا مع ذلك، وسبب ذلك أنه كانت له حكم ظريفة ساطعة، وله أفعال قبيحة رديئة جدًّا، فاغتروا بسواطع حكمه، ولم يتأملوا في أفعاله القبيحة مدة عمره، وكان تارة يتكلم كلام الحكماء وأخرى بكلام الحمقى، ولا يستحي ولا يخشى من فضيحة؛ حتى أنه أتى أمه مع أن الطبع السليم يأبى ذلك، واتفق أنه نذر على نفسه إنه إذا كان ينتصر في الملاعب الأولمبيقية، يعمل صورة إنسان من الذهب، ويهديها لهيكل جويتير -يعني الشمس-.

فانتصر في أول الملاعب ولم يجد عنده من المال ما يوفي به هذا النذر، لكونه كان فقيرًا، فقطع ما كان على النساء المجتمعات للتفرج في ذلك الوقت من جميع الحلي، فبهذه الطريقة وفى بنذره.

وهو كان ابن سبسيلس من بدنة فيرقليدس، وتولى سلطنة مدينة كوريته، التي كان بها ميلاده في مدة حكم هلياطس ملك مملكة لوديا، وكان تزوج لوسيس بنت أمير أبيدور، وكان يحبها محبة زائدة، فغيَّر اسمها وسماها ميليس، وله منها ولدان: أولها سبسيلس وكان بليدًا سخيف العقل، والثاني أليكفرعون كان عاقلًا ذكيًا، يصلح أن يكون رئيس مملكة.

وكانت زوجته ميليس ضخمة غليظة الجثة، فاتفق أن بعض نساء زمانه أظهروا له صورتها مع ما هي عليه من الغلظة على جهة الهزء، فحصل له غيظ

عظيم من ذلك وأخذته الحمية، فقابل زوجته في ساعته وهي صاعدة على سلم المنزل، فضربها برجله في بطنها، فسقطت من فوق إلى أسفل فماتت هي وجنينها الذي في بطنها، ثم بعد موتها ندم على ما فعله بها وحمله غمه على أن أحضر النساء المذكورات وأمر بإحراقهن.

فلما وصل خبر موت زوجته إلى أبيها ابريقلي، وما جرى عليها من الأمور الشنيعة، أرسل فأحضر ولديها الاثنين؛ ليسليها على فقد أمهما، وكان يحبهما حبًّا شديدًا، فلما حضرا عنده أمهلهما لحظة لطيفة، وقال لهما: أما تعرفان الذي قتل أمكما؟ فأما الأكبر فلم يفهم ما قيل له لسخافة عقله، وأما الأصغر، فحصل له تأسف شديد، وتغير من ذلك، وأضمر في نفسه أنه بعد رجوعه إلى مدينة كوريتته لا يخاطب والده أبدًا، ولا يمتثل له أمرًا.

فلما رجعا تحيل برياندر على ولده الأكبر بجملة من الأسئلة؛ كي يستفيد منه ما قاله لهما جدهما أبريقلي، فلم يفده ولده شيئًا من ذلك لعدم فهمه ما قاله له جده، إلا أنه أخبره أن موت أمهما بلغ والدها، فلم يقنع منه برياندر بذلك، وطلب منه زيادة الأخبار بسرعة، فتذكر كل ما كان قاله لهما جدهما عند خروجهما من عنده للسفر، وأخبر به أباه، ففهم أبوهما الكلام الذي قاله لهما جدهما، فأرادا برياندر أن يجعل ولده الأصغر واسطة بينه وبين جده في تلك الواقعة، وأمر أهل البلد أنه إذا دخل ولده المذكور في بيت واحد منهم لا يبقيه فيه زمانًا، ففهم أن أباه طرده أو يريد نفيه، فأراد الدخول في بعض بيوت أهل البلد فلم يمكنه أحد من ذلك خوفًا من مغاضبة والده، ثم بعد ذلك اجتمع على بعض أصحابه الذين يحبونه، فأدخلوه منازلهم، وعزموا على مخالفة أمر والده والخروج عن طاعته.

وبعد ذلك جمع برياندر أهل المدينة وقال: كل مَنْ يُدخل هذا الولد عنده يكون عقابه الموت. فمن خوف أهل المدينة من هذا العقاب الشديد لم يتجاسر أحد منهم على مصاحبتهن ولا الجلوس معه، ولا على إدخاله منزله، فمكث اليكفرعون مدة من الأيام والليالي، وهو في أزقة المدينة لا يأويه أحد، ولا يدخله منزله كأنه من الحيوانات الوحشية، فمر عليه والده برياندر بعد أربعة أيام، فرآه في حالة الأموات من شدة الجوع والمشقة التي حصلت له، فرقَّ عليه لما رآه في هذه الحالة، قال له: يا اليكفرعون، ما ألجأك إلى هذه الحالة التي أنت عليها والمعيشة الضيقة؟ أتريد أن تصرف في جميع ممالكي كيف تشاء، وفي جميع خزائني التي أملكها، فأنت ولدي وأنت أمير مدينة كوريتته العامرة؟ وإن كان قد حصل لك غيظ على موت والدتك، فعندي من الغيظ عليها ما هو أشد ما عندك، خصوصًا وأنا الذي باشرت ذلك، وأما حالك هذا فأنت الذي جلبته لنفسك بمخالفة والدك الذي يجب عليك بره، ولكن حيثما عرفتَ أن من عاند أباه حصل له مثل ذلك وأكثر، فأنا آذن لك في الدخول إلى بيتي.

فلما سمع كلام والده أجابه من غير اكتراث به، وكان قلبه أقسى من الحجر، وقال له: أنت الذي تستحق العقاب الذي تتوعد به الناس. فلما رأى برياندر من ولده الجفاء وعدم اللين؛ أخذ أسباب بُعده عن عينه، ونفاه في مملكة قورقيره التي كانت تحت حكمه، ثم إن برياندر ازداد غيظًا على ابريقلي، بسبب الشقاق الذي حصل بينه وبين ابنه، فعزم على قتاله وجهز له جيشًا عظيمًا وسار إليه بنفسه، وكان هو رئيس ذلك الجيش، فتيسرت له جميع الأسباب في تلك الواقعة بسهولة، فأخذ مدينة أبيدور وقبض على ابريقلي ولم يقتله، ولكنه خلده في السجن.

ثم بعد مدة من الزمن صار برياندر هرمًا، فأرسل إلى مدينة قورقيره وطلب أليكفرعون لأجل أن يوليه السلطنة، ويجعل ذلك جبرًا لما صنعه معه من المضرة، فلم يرض أليكفرعون بذلك ولم يجب الرسول.

وكان برياندر يحب ابنه محبة زائدة، فأمر بنته أن تذهب إلى مدينة قورقيره؛ لظنه أن أخاها يقبل كلامها، وأنها تحضره بحيلتها ومكرها، فلما وصلت هذه الأميرة إلى تلك المدينة أقسمت على أخيها بأعز ما عنده لتستعطفه، وقالت له: أتحب أن تصير تلك المملكة لغيرك، فإن الشوكة كالمرأة الجميلة الغير العفيفة، التي لا تمكث مع عاشق واحد، أما تعلم أيها الأخ العزيز أن أبانا صار الآن هرمًا، وقد قربت وفاته، فإن لم تحضر سريعًا يضمحل ملكنا وعزنا، فينبغي لك أن تصمم على الحضور ولا تضيع ذلك العز والجاه الذي يكون لك، فحلف لها أليكفرعون أنه لا يعود أبدًا إلى مدينة كورينته ما دام والده مقيمًا بها.

فلما رجعت هذه الأمير إلى المدينة أخبرت أباها بما صمم عليه أخوها، فأرسل برياندر مرة ثالثة إلى مدينة قورقيره إلى ابنه يعلمه بأنه متى أراد أن يستولي على مدينة كورينته فليحضر بها، وأنه يريد أن يقضي باقي أيامه بمدينة قورقيره، فلما سمع اليكفرعون بذلك رضي به، وكل واحد منهما تهيأ للانتقال من المدينة التي هو فيها. فلما علم أهل مدينة قورقيره بذلك قتلوا أليكفرعون خوفًا من أن برياندر يقيم عندهم فحصل له اليأس من ولده. فأمسك برياندر ثلاثمائة غلام من أولاد عظماء أهل المدينة، وأرسلهم إلى هلياطس لأجل أن يجبهم ليصيروا خصيانًا، فلزم الأمر أن السفينة التي كانوا فيها رست بهم على جزيرة شامس، فلما عرف أهل هذه الجزيرة السبب في مجيء هؤلاء الفقراء، حصل لهم شفقة عليهم، وأشاروا عليهم سرًا بأنهم يدخلون في هيكل ديانه

وهي صنمة، فإذا دخلوا امتنع أهل مدينة كوريتته من الدخول إليهم، ولا يقدرون على إخراجهم من الهيكل لكونهم في حماية الصنمة، فاستدلوا بهذه الحيلة على طريق نجاتهم، ولم يظهر من أهل المدينة عداوة لبرياندر، وفي كل ليلة صار أولاد أهل تلك المدينة ذكورًا وأناثًا يجتمعون ويرقصون حول الهيكل ويلعبون معهم، وفي وقت رقصهم يرمونهم بالفطير المصنوع بالعسل من داخل الهيكل، فتمنى هؤلاء الجماعة أن يدوم هذا الرقص، فطال الأمر على أهل مدينة كوريتته ولم يتمكنوا من الأولاد، فرجعا إلى مدينتهم ثانيًا.

فلما رجعوا حصل لبرياندر غيظ شديد لما لم يتمكن من أخذ ثأر ولده على الوجه الذي أراد، وفي هذا الوقت كان رأى نفسه قد أشرف على الهلاك ودنا أجله، وكان مراده أن لا يطلع أحد على محل جسمه بعد وفاته، فصنع هذه الحيلة يقصد بها إخفاء جسمه، وأحضر له شابين، ودلهما على طريق منقطعة، وأمرهما بأن يدورا الليلة الآتية في تلك الطريق، ويقتلا أول من يلاقيهما ويدفنا جسمه حالًا في ذلك المحل، فتوجه هذان الشابان وأحضرا أربعة آخرين، وأمرهم بأن يدوروا في هذا المحل، ويقتلوا الاثنين اللذين يقابلونهما ويدفنونهما، وبعد أن أرسلهم أحضر جملة من الناس، وأمرهم أن يقتلوا هؤلاء الأربعة الذين يقابلونهم ويدفنونهم في المحل الذي يجدونهم فيه، فامتثلوا أمره وبادر هو إلى الحضور في تلك الطريق المنقطعة، فقتله الشابان اللذان قابلاه كما أمرهما وتم جميع ما أمر به، فلما علم به أهل مدينة كوريتته عملوا له قبرًا عظيمًا منقوشًا، وهو أول من غير اسم الحاكم بالظالم أو الطاغية، وكان يصاحب الفقراء، وكان لا يأذن لجميع الناس في أن يقيموا بالمدن على السواء، وكان يتبع آراء ثرازيبولس، وكان سرازينول قد كتب له هذا الجواب: أنا ما أخفيت شيئًا للإنسان الذي أرسلته إليَّ، ولكن أحضرته في غيط قمح، ودققت بحضرته جميع

السنابل الزائدة على غيرها، فاتبع مثلي أن كان قصدك حفظ ملكك وأهلك كبار المدينة، سواء كانوا أعداءك أم أحبائك؛ لأن الغاصب لا ينبغي أن يأمن أحدًا ولو كان أعز أصحابه.

وكان يقول: متى كان الإنسان متعلقا بشيء وصرف إليه جهده وصل إليه كيف لا مع أن الإنسان إذا احتال على برزخ بين بحرين هدمه.

وقال: لا ينبغي للإنسان أبدًا أن يأخذ في نظير عمله ذهبًا ولا فضة، فإن ذلك قليل عليه.

وقال: إن الملوك لا يمكن أن يوجد عندهم فخر أعظم من محبة الرعايا لهم، وقال: لا يوجد شيء أحسن من الراحة. وقال: لا ينبغي أن يقتصر على معاقبة فاعل الشر، بل يعاقب مثله من أضمر على فعله. وقال: الحظوظ تمر مر السحاب والفخار لا يعتريه ذهاب. وقال: ينبغي للإنسان أن يكون لين الجانب عند الشدة، حازم الرأي عند المصيبة. وقال: لا تبح بالسر الذي تؤتمن عليه. وقال: ينبغي للإنسان أن يكون مع أصحابه على حالة واحدة، سواء كانوا في سعة أم ضيق أم شدة أم رخاء.

وكان يحب الحكماء فلذلك كتب لحكماء اليونان أن يحضروا بمدينة كورينته ويقيموا مدة من الزمن كما كانوا بمدينة ساردس، فلما حضروا قابلهم بالبشاشة وبذل غاية جهده في إكرامهم.

وكانت مدة حكمه أربعين سنة، وتوفي قرب الأولمبياد الثاني والأربعين، وزعم بعض الناس أنه وجد اثنان مسميان بهذا الاسم، وأن حكم الاثنين وجميع ما قالاه وما فعلاه منسوب إلى واحد.

تاريخ شيلون الفيلسوف

كان هذا الفيلسوف موجودًا في الأولمبياد الثاني والخمسين، وكان حينئذٍ هرمًا جدًّا، وكانت مدة حياته قدر مدة بيتاقوس تقريبًا، وكان ظهوره بمدينة لقدمونا نحو الأولمبياد الثاني والخمسين، وكان ثابتًا جيد العقل جدًّا، وكان دائمًا على حالة واحدة في الشدة والرخاء، وإذا جلس كانت عليه السكينة والوقار، ومكث مدة عمره معتكفًا في محله من غير طمع في شيء.

وكان يقول: أصعب الأوقات ما قطعه الإنسان في الأسفار وعاش ملازمًا للصدق. وكان يتعجب جميع الناس من حسن تدبيره، وكثرة صمته، وقلة كلامه؛ حتى يتميز جميع ما يقوله، ورتب أمور معيشته على التأني على طبق الحكمة التي قالها. وهي قوله: يلزم التأني في جميع الأشياء.

وفي نحو الأولمبياد الخامس والخمسين تولى في المحكمة العالية بمدينة لقدمونا، وهذه المحكمة تمنع الملك من التعدي على الرعايا، وحصلت لأخيه منه غيرة بسبب ذلك وغيظ شديد، فأجابه شيلون بجواب حسن فقال له: هم اختاروني لكونهم رأوني أليق منك في الصبر على الأمور الصعبة، التي تمر بي، وعلى ترك الراحة التي كنت بها واقتحامي للأخطار التي تصيرني أسيرًا.

وقال: لا ينبغي للإنسان أن يرفض الكهانة بالكلية، فإن الإنسان بقوة عقله يمكنه إدراك جملة من الأشياء المستقبلة.

واتفق في بضع الأيام أن بقراط قرَّب قربانًا في الملاعب الأولمبيقية، فلما وضع لحم القربان في قدر ممتلئ بماء بارد؛ صار الماء حارًّا في الحال، وغلا وفار من غير نار توقد تحته، وانتشرت الحرارة وفار الماء على فم القدر، وكاد اللحم

أن ينضج من غير نار كما تقدم، وكان هناك شيلون في ذلك الوقت، فتأمل غاية التأمل في هذا الأمر العجيب وتعجب منه، وأشار على بقراط بعدم التزوج أبدًا، وقال له: لو ساء حظك وتزوجت، فلا بد لك من أحد شيئين: أما أن تطلق أو تقتل جميع الأولاد الذين يحصلون لك من زوجتك، فأخذ بقراط في الضحك من قوله، ولن يمنعه ذلك من الزواج فتزوج امرأة فولدت له بيزستراتث، الملك الذي غصب سلطنة مدينة أثينا التي كانت وطنًا له وظلم أهلها.

ولما نظر شيلون أرض جزيرة قيثير، وتأمل أحوالها؛ صاح بحضرة عموم الناس وقال: يا ليت هذه الجزيرة لم توجد ولم ينكشف عنها البحر أبدًا؛ لأني أرى أن هذه الجزيرة تكون سببًا في هلاك أهل لقدمونا، وكان الأمر كما قال فقد أخذ الأثينيون هذه الجزيرة بعد مدة من الزمن، وكانت سببًا لتدمير الممالك.

وكان يقول: أصعب الأشياء ثلاثة: كتم السر، وتحمل المسبة، وحسن صرف الزمن.

وكان قصير القامة وجيز الكلام لعيٍّ كان به، وكان كلامه من جوامع الكلم، وكان يقول: لا ينبغي للإنسان أن يهدد أحدًا؛ لأن هذا جبن من ذميم خصال النساء. وقال: أكثر الحكمة صون اللسان، لا سيما في الولائم. وقال: ينبغي أن لا يغتاب الإنسان أحدًا؛ لأن ذلك يورث العداوة، وربما أسمعك ما تكره.

وقال: ينبغي أن يزور الإنسان أحبابه في وقت الشدة أكثر من زيارتهم في الرخاء. وقال: الخسارة خير للإنسان من كسب الحرام والظلم. وقال: لا تمدح إنسانًا متصفًا بسوء الحال والأخلاق. وقال: ينبغي للرجل الشجاع أن يكون

لين الجانب، وأن يعمل ما يصيره محترمًا عند الناس، لا ما يجعله مخوفًا. وقال أعظم السياسة في دولة الحاكم هو تعليم السياسة المنزلية.

وقال ينبغي أن لا يتزوج الإنسان المرأة الحمقاء. وقال: ينبغي أن لا يسرف في عمل الأفراح. وقال: إن الذهب والفضة يمتحنان بالحك على الحجر، وامتحان قلب الإنسان بالذهب والفضة. وقال: ينبغي للإنسان الاقتصاد في سائر الأمور؛ لأن التبذير ربما جر إلى الضياع وقال: إن الحب والبغض لا يدومان، فإذا أحببت صديقًا فأبق للعداوة موضعًا، وإذا أبغضت إنسانًا فأبق للمحبة موضعًا.

وكان قد كتب بالذهب في هيكل صنم الشمس: لا ينبغي لك أن تتمنى ما هو أعلى من مقامك. وقال: الذي يضمن لا بد له من الخسارة، ثم إن برياندر أراد أن يجلبه إلى مدينة كوريته، وبذل غاية جهده في ذلك؛ لأجل أن يستشيره على حفظ السلطنة التي كان أخذها هذا الملك بالتغلب.

فأجابه شيلون بهذا الجواب: أنت مرادك أن تدخلني في مكاره الحرب، وتبعدني عن وطني؛ لاعتقادك أن ذلك يصيرك تعيش في أمان، مع أنه لا شيء أقل ثباتًا من أبهة الملوك، فأسعد الملوك هو الذي يموت منهم على فراشه.

ولما أحس أن أجله قد دنا وقرب موته، جمع جميع أصحابه وقال لهم: يا أصحابي، أتعلمون أني عملت شيئًا ندمت عليه، وما ندمت على مشاورتي لكم في الأمور، إلا في واقعة واحدة، وأريد أن أخبركم بها لأجل أن أعلم هل أصبتُ فيها أو لا؟ وهو أني كنت في بعض الأيام وأنا ثالث جماعة في حكومة واحد من أحبائي، كان محكومًا عليه بالموت عملًا بالقوانين، فتحيرت جدًّا ودار الأمر بين

مخالفة الشرائع، والحكم على الحبيب بالقتل، فمن بعدما تفكرت في ذلك عملت طريقة، وهي أني أظهرت جميع ما يؤيد المدعى عليه المصود قتله مع اجتماع جملة من الناس، ولم يكن لأحد من أرباب القضاء أن يناقضني حتى ظهرت لهم براءته، ثم حكمت عليه بالقتل من غير أن أخبرهم بشيء، فبهذا وفيت بحق كوني قاضيًا، وبحق كوني حبيبًا، ومع ذلك أرى نفسي غير مطمئنة، وذمتي غير خالصة من الخطأ.

وطال عمره حتى أتعبته الشيخوخة والهرم، وتوفي بمملكة بيزه، وسبب موته أن ابنه غالب في السباق في الملاعب الأوليمبية، فتوجوه، فلما عاينه فرح بذلك غاية الفرح وعانقه وطفح عليه السرور فقتله، وأهل المدينة عملوا له صورة من الذهب بعد وفاته.

تاريخ اكليوبول الفيلسوف

كان هذا الفيلسوف في العصر والعمر قريبًا من سولون؛ يعني أنه ظهر بين الأولمبياد الخامس والثلاثين والخامس والخمسين، وكان أقل الحكماء اعتبارًا، ولكنه كان غنيًا وهو ابن أوجراس، وينسب لهرقول بأنه من ذريته، ووُلِدَ بمدينة لندة، وهي مدينة بحرية من جزيرة رودسن وظهر في مدة حكم أكرسيوس ملك مدينة لديا، وكان يعد من أعظم العقلاء من مدة صغره، وكان له صورة عظيمة وقامة معتدلة، ذا قوة شديدة، وسافر إلى بر مصر في زمن صباه؛ لأجل أن يتعلم الفلسفة على حسب عوائد ذلك الوقت.

ولما رجع تزوج بامرأة عظيمة جدًّا، نشأت بين أهلها في غاية العز، فوُلِدَ لهما بنت تسمى أقلوبين، صارت حكيمة جدًّا مما اكتسبته من أبيها، حتى أفحمت عظماء الفلاسفة في ذلك الوقت، خصوصًا في الألغاز، وكانت أديبة محسنة جدًّا، ومن حسن أخلاقها كان كل من حضر عند والدها في الدعاوى تغسل رجليه قريبًا كان أم بعيدًا على حسب عوائدهم.

وكان قد اختير حاكمًا في مملكة صغيرة من ممالك اللنديين، فوفى بأداء الحكومة حتى كأن المملكة من أجله، إنما هي عيلة واحدة، وكان يتباعد جدًّا عن الأمور التي تجلب الحرب، وكان يحب الاتفاق مع أهل البلاد ومع الغرباء، وأعظم معرفته في المكاتيب التي كان يكتبها ويلقيها على الناس؛ لأنه كان إما أن يفسر فيها مسائل معضلة بغاية الدقة، وإما أن يكتب فيها ألغازًا ويلقيها على الناس.

فهذا هو الذي صَيَّرَ له صيتًا وشهرة عظيمة، وهو الذي أظهر في بلاد

اليونان الألغاز التي تعلمها من المصريين، وهو صاحب هذا اللغز الآتي: أنا أب لي اثنا عشر ولدًا، كل ولد له ثلاثون بنتًا مختلفات الجمال، منهن من وجهها كامل في البياض، ومنهن من وجهها كامل في السواد، وكلهن غير فانيات، ويمتن كل يوم. وجواب هذا اللغز السنة.

وهو الذي عمل الرسوم المكتوبة على قبر ميداس، ومدح هذا الملك بالمدح الكلي، وزعم بعض الناس أن هذه الكتابة هي من عمل أوميروس، مع أن أوميروس كان قبل ميداس بزمن طويل.

وكان هذا الحكيم يقول: إن أصل الفضائل الفرار من الظلم والأمور الذميمة. وقال: ينبغي مراعاة الترتيب والزمن والمقايسة والتأمل في جميع الأشياء، ولأجل إبعاد الحمق العظيم من جميع الممالك، يلزم كل واحد من أهالي البلدان يعيش على قدر مرتبته، وأنه لم يوجد شيء في الدنيا أكثر من الجهال والمتشدقين.

وكان يقول: اجتهد دائمًا في أن تكون عظيم الرأي لا جاهلًا ولا خائنًا، واصنع الجميل مع أصحابك وأعدائك، فبهذا تبقى مع أحبابك على المحبة، ويمكن أن تكتسب محبة أعدائك وقبل خروجك من منزلك تفكر في الذي تريد أن تعمله، وبعد دخولك في منزلك أعد فكرك في الذي تقدم.

وكان يقول: تكلم قليلًا وتَفكَّر كثيرًا، ولا تتكلم في أحد بسوء أبدًا، واستشر دائمًا الذي تظنه أعقل منك، ولا تنهمك على الحظ، واصطلح مع أعدائك إن كان لك أعداء، ولا تأخذ شيئًا بطريق القهر والغلبة واجتهد في تربية ذريتك وفي تعليمهم. ولا تسخر من الفقراء وإذا تنسم لك الوقت فلا

تكن متكبرًا، وإذا جار عليك الوقت فلا تضجر أبدًا ولا تتزوج دائمًا إلا بالكفؤ؛ لأنك إذا تزوجت بامرأة تكون أعلى منك حسبًا كان جميع أقاربها كأنهم ساداتك ولهم عليك الكلمة.

وكان يقول: إن الأب يلزم أن يكون عنده تمييز خصوصي لذرية البنات، ولم يلتزم أبدًا أن يزوجهن بمجرد بلوغ السن بل بعد كمال عقل النساء وحسن الرشد، وأن الرجل لا ينبغي له مدح زوجته عند الأجانب ولا يليق به ذلك ولا تنبغي المشاجرة معها عند الأجانب أيضًا، فإن مدحها عد ذلك ضعفًا، وإن نازعها بحضرة الناس كان ذلك من الجنون، ولما علم أكليوبول أن سولون ترك بلده بالكلية عمل غاية جهده لأجل أن يجذبه ويجلبه عنده، وكتب له هذا الجواب ونصه: إن لك كثيرًا من الأصحاب الذين جميع بيوتهم كبيتك، فأظن أنك لم تكن تستريح في ملكك أحسن من مدينة لندة فهذه المدينة هي بحرية وحرة بالكلية، ولا تخف أبدًا من بيزستراتث وجميع أصحابك يحضرون ينظرونك ولا يخشون من شيء انتهى.

وأكليوبول مضى أيام عمره متوسط الحال ومعيشته سالمة خالية من هموم الدنيا وكان حسن العشرة مع زوجته وأولاده وأهالي بلده، وكان فلسفيًا عظيمًا، وتُوفي بعد أن عاش سبعين سنة، وكان طول عمره محترمًا مبجلًا، وأهل مدينة لندة حزنوا عليه الحزن الشديد وعملوا له قبرًا عظيمًا منقوشًا لأجل تشريفه.

تاريخ ابيمينيدس الفيلسوف

جاء بمدينة أثينا في الأولمبياد الخامس والأربعين، ويُقال: إنه نام سبعًا وخمسين سنة في مغارة، وقد عاش في هذه المغارة مائة وأربعًا وخمسين سنة، وقيل: مائة وسبعًا وخمسين سنة، وقيل: مائتين وثماني وتسعين سنة، وكان ابيمينيدس من مدينة اغنوس، واشتهر في جزيرة كريد؛ حين أن كان سولون مشهورًا شهرة عظيمة في مدينة أثينا، وكان ابيمينيدس منهمكًا في العبادة، وأفنى عمره في الزهد والديانة، وكان اليونان يزعمون أنه ابن منف بلط، وهو عندهم جنية أو من الحور العين، وكانوا يعتقدون أنه يوحى إليه؛ لأنه كان دائمًا ذا كهانة وأخبار بالمغيبات، وكان لا يشتغل دائمًا إلا بنظم الأشعار وبالأشياء المتعلقة بالديانة، فكان أول من قرب القربان للهياكل وطهر الأرض والمدائن والمنازل، وكان لا يعتبر أهل بلده ولا يحترمهم.

فإن ماري بولس ذكر بعضًا من أشعاره التي قالها في حق أهل جزيرة كريد، ووصفهم فيها بكونهم أرباب كذب عظيم وأرباب كسل، وأنهم من شر الحيوانات، وكان ابيمينيدس أرسله أبوه ذات يوم في الخلاء ليرعى نعجة له في الكلأ، فعند رجوعه إلى المنزل رجع من طريق طويلة، وكان إذ ذاك وقت الظهيرة، فاشتد به الحر، فدخل في مغارة لأجل الراحة إلى أن تذهب شدة الحر، فنام فيها سبعًا وخمسين سنة، فلما استيقظ من نومه ظن أنه نام على العادة مدة قليلة، فنظر إلى النعجة فلم يجدها فخرج من المغارة فرأى سطح الأرض قد تغير بالكلية، فتعجب جدًّا من ذلك وذهب يعدو وهو متعجب إلى المحل الذي بعثه أبوه منه بالنعجة، فرأى المساكن قد تغير أهلها وصار يخاطبهم فلم يفهموا ما يقول، فذهب في مدينة اغنوس حائرًا خائفًا، فصار يرى وجوهًا غير التي

كان يعهدها، فزاد تعجبه جدًا من ذلك، ودخل بيت أبيه فسأله أهل المنزل من أين أنت، وما تريد؟ فصار يذكر لهم حال نفسه وصفتها، وهم لا يفهمون ذلك، ولم يعرفه أحد منهم إلا أخاه الصغير الذي كان ولد في زمن خروجه بالنعجة.

وصار الآن شيخًا هرمًا فعرفه بعد أن حصل له التعب الشديد في إفهامهم، فصار له في جميع البلاد صيت وشهرة بهذا الأمر العجيب المستغرب، وصاروا يرون ذلك من المعجزات إلا جماعة لم يصدقوا أنه مكث في نومه تلك المدة بل اعتقدوا أنه كان في هذه المدة مسافرًا في بلاد غريبة غير معروفة ثم عند حضوره أخبر بذلك الأمر أو أنه أراد بذلك خطاب الحمقى، ولما فعل مغقليس أمورًا فظيعة في فتنة قولون فقتل جميع من كان في هذه الفتنة، حتى أنه لم يحترم من احتمى في محاريب الأصنام بل قتله أيضًا، فحصل عند الأثينيين خوف من ذلك، ثم ازداد خوفهم من الطاعون الذي أفناهم وخرب بلادهم، وزعموا أن مدينتهم امتلأت من الجن فذهبوا إلى معبودهم الذي يقربون له القربان، وأخبروه بما وقع في المدينة من امتلائها بالجن، وأن ليس هذا إلا سحرًا فيها، وكتابة يبغضها وكراهتها، فلذلك وقع فيها هذه الأمور الشنيعة، وأرسلوا حالًا رجلًا يسمى نقياس إلى جزيرة كريد، وأعطوه سفينة لإحضار ايمينيدس الذي اشتهر أمره في جميع بلاد اليونان، فلما حضر في مدينتهم أخذ جملة من الغنم البيض والسود، وذهب بها إلى محكمتهم المسماة اريوباج، وتركها تمشي على حالها كما تريد وأمر جماعة أن يتبعوها، وأمرهم أيضًا بأن يذبحوها، وكلما ذبحوا واحدة يجعلونها قربانًا لإله من الآلهة، ويكون الذبح المذكور في المكان الذي تقف فيه النعجة عن المشي لنحو الاستراحة، فلذلك كان في زمن لويرس يرى حول مدينة أثينا جملة من المحاريب والقربان مهداة لآلهة غير معينة، وقد ترتب

على هذا الفعل مقصودهم فذهب الطاعون من عندهم.

وعند حضور ايمينيدس إلى مدينتهم حصل بينه وبين سولون الصحبة وغاية المودة، وحصل لايمينيدس السرور من أحكامه، وصار ينهاهم عن الأمور الغير اللائقة التي كانت تفعلها النساء على القبور، وصار يعودهم شيئًا فشيئًا، على أن يحضروا الصلاة في وقتها وأن يقربوا القربان لمعبوداتهم، وقال لهم: لا يلزم الإنسان أن يجري على هذا النهج وأن لا يرتكب إلا ما يليق بحاله ولا يعصي الحكام والقضاة.

وذهب ذات يوم ليتفرج على ميناء مدينتهم المسماة مونيخيا، فلما رآها قال لمن حوله: إن الناس في غفلة عظيمة؛ لأنهم لم ينظروا في العواقب، ولو علم أهل مدينة أثينا ما ينشأ عن هذه الميناء من المصائب الكثيرة لبادروا بسدها واهتموا بإبطالها.

ثم إنه بعد أن مكث مدة من الزمن في مدينة أثينا أراد السفر من عندهم، وعزم على عدم العود إليها أبدًا، فجهز له الأثينيون سفينة عظيمة وعرضوا عليه مقدارًا من الدراهم في نظير تعبه، فامتنع من أخذها وقال: يكفيني سرورًا وفرحًا محبتكم، والذي أرجوه منكم أن تعقدوا المعاهدة بينكم وبيننا، وكان قبل خروجه بنى فيها هيكلًا عظيمًا وجعله منذورًا على الفورية وهي من السفليات.

وأمر ايمينيدس الباقوسيين أنهم يلاحظونه ويتذكرونه في جميع أمورهم وكان لا يراه أحد يأكل أبدًا فكانوا يزعمون أن الوحي هو الذي يطعمه، وأنه جاعل له ما يأكله في ظلف بقرة وهو المنّ، ولا يأكل سوى ذلك من غير أن تخرج منه فضلات أصلًا. وكان يخبر أهل مدينة لقدمونا بما سيحصل لهم من

الارقاديين من الشدة والصعوبة والأسر.

وكان يبني هيكلًا وهبه للوحي أو للجان، فبينها هو يبني إذ سمع صوتا من السماء يصيح به: يا ابيمينيدس لا تقل إن هذا الهيكل للوحي، وإنما هو للإله الأعلى.

وبلغه أن سولون خرج من مدينة أثينا فكتب له جوابًا لتسليته وجبر خاطره، وأمره فيه بأنه يجتهد في الذهاب إلى جزيرة كريد، وقال له: يا صاحبي عليك بالصبر وليكن عندك اهتمام في النظر في حال بيزستراتث، فإن كان قد أعاد الناس المعتادين على عدم الحرية والاستقلال من حكمه أو الذين لا يمكنهم الاستمرار تحت القوانين العظيمة لما كانوا عليه من الذل والاسترقاق؛ فإنه يمكن أن يدوم حكمه ويمكن زمنًا طويلًا، ولكن حيث كان هؤلاء الناس أهلًا للحرية، ومستعدين للذب عن أنفسهم، فإنك إذا طلبتهم لذلك وجدتهم معك، وذلك لما هو حاصل لهم مما يوجب الفضيحة من وضع الأغلال في أعناقهم المدة الطويلة في حكم هذا الرجل، ولو فرض أن بيزستراتث يبقى حاكما طول عمره بهذه المثابة، فإنه لا يمكن لذريته التولية بعده على المملكة، وذلك لأن الناس الذين تعودوا على الحرية والاستقلال والقوانين الحسنة لا يمكنهم أن يمكثوا ويستمروا على هذه الحالة من الذل والأسر، وأخبرك بأنك لا تسكن أبدًا بلاد الغير، كأنك غريب تذهب من محل إلى محل آخر، بل بادر بالحضور عند مدينة كريد التي ليس فيها ظلم ولا طغيان أصلا، فإني أخشى عليك أن يقابلك بعض أصحاب بيزستراتث في الطريق -كما هو الظاهر- فلا تضر إلا بنفسك.

وأفنى ابيمينيدس عمره في تعليم الأشياء المتعلقة بالديانة، وكان يحب نظم

الأشعار فقد ألّف جملة من الكتب مراعيًا فيها قانون علم الشعر، ونظم كتبًا أيضًا وتكلم فيها على غزوات عدة أمم، وصنف مصنفات أخرى في تقديم القربان، وفي جمهورية جزيرة كريد، وألف أيضًا تأليفات تتعلق بما وقع بين مينوس ورادمنتي.

ومات ابيمينيدس وسنه مائة وسبع وخمسون سنة، وقيل: إن عمره مائتان وثمان وتسعون سنة، وكانت مدة حياته محتوية على حكم وأسرار، وقد تعجب بعض الناس غاية العجب في المدة السابقة التي مكثها في المغارة وهو نائم ثم استيقظ بعدها، وكان أهل جزيرة كريد يقربون له بعد موته القربان كأنه إله، وكان مسمى عندهم قوريت يعني سيدًا، وقد اعتنى به أهل مدينة لقدمونا وحفظوا جسمه عندهم غاية الحفظ بسبب إخبار بعض الكهنة القدماء بذلك.

تاريخ انخرسيس الفيلسوف

جاء هذا الفيلسوف في مدينة أثينا في الأولمبياد السابع والأربعين، وقُتِل بعد أن رجع لبلده بمدة قليلة من الزمن، ويُقال: إنه ظهر في عصر جماعة كثيرين من أعظم الفلاسفة المتقدمين.

وكان انخرسيس تتاري الأصل، وكان محترمًا بين الحكماء غاية الاحترام، وكان أخوه يسمى قدويداس ملك بلاد التتار وكان أبوه يسمى اغنوروس، وكانت أمه يونانية، فلذلك كان جامعًا بين اللغتين، وكان فصيحًا ذا نشاط في كل شيء يعانيه ويتعلق به، وكان يلبس في أغلب أوقاته ثيابًا عريضة طويلة مرتفعة الثمن جدًّا، وكان غذاؤه خصوص اللبن والجبن فقط، وكان سريعًا في خطبه مع اختصار دقيقًا في ألفاظه وعباراته، ولأجل كونه لا يسأم من مطلق شيء يزاوله ويعانيه، كان كلما تعلق بأمر من الأمور أتمه وأكمله، وكانت سليقته البلاغة والسرعة في الكلام، وكانت عبارته تستعمل كالأمثال، فكان إذا ماثله أحد في النطق بمثلها، يقال: إن فلانًا يتكلم بعبارة تتارية.

وقد رفض انخرسيس سكنى بلاد التتار وعزم على السكنى بمدينة أثينا، فحضر في تلك المدينة وذهب إلى بيت سولون وقرع الباب فجاءه شخص يفتح له الباب، فقال له: أخبر سولون بأن من بالباب أتى بقصد زيارته والسكنى عنده مدة من الزمن، فأرسل سولون يقول له: إن الإنسان لا يمكنه قبول الضيوف إلا ببلده أو بمحل يكون له فيه التصرف، فلما سمع انخرسيس ذلك دخل في البيت وقال: يا سولون أنت في بلدك وفي بيتك الخاص بك، فحينئذٍ عليك أن تقبل الضيوف فخذ في أسباب الصحبة معي، فتعجب من فصاحته وحصل له غاية السرور من ضيافته، وعقد معه الصحبة واستمرا على الصحبة

والمودة إلى آخر عمرهما.

وكان انخرسيس يحب نظم الأشعار، فلذلك نظم جميع قوانين بلاد التتار وضم لذلك منظومة في علم الحرب. وكان كثيرًا ما يقول: شجرة الكرم ينشأ عنها ثلاثة أشياء: السكر والحظ والندم. وكان يتعجب كثيرًا من مجالس أثينا العمومية، وذلك أن الحكماء هم الذين يفيدون الأحكام ولا يجريها إلا الحمقى، وكان يعجب أيضًا من الحكم بالعقاب على من حصل منه سب لأحد ولو أقل قليل، ولا يلتفتون لمن يحصل منه أعظم من ذلك؛ كأصحاب الألعاب من سبهم الأعيان وغيرهم في ألعابهم، بل يحترمونهم ويكرمونهم، وكان يتعجب أيضًا من اليونان في موائدهم؛ حيث يشربون في ابتداء الأكل بالكاسات المتوسطة بين الصغر والكبر، وفي آخر الأكل يشربون في الكاسات الكبيرة مع أحساسهم بمبادئ السكر، وكان لا يمكنه أن يتحمل المزح ونحوه مما شأنه أن يكثر صدوره في الولائم، وسألوه ذات يوم كيف العمل في منع الإنسان من شرب النبيذ؟ فقال لهم: لم يوجد في ذلك طريقة أحسن من أن يجعل أمام ذلك الإنسان شخص سكران فيذهب عنده ويختلي معه ويتأمل في أحواله.

وسألوه أيضًا ذات يوم: هل في بلادك آلات موسيقى؟ فرد عليهم تبكيتًا لهم، وقال: بل ولا العنب، وكان يسمي تدليك المصارعين بالزيت حين إرادتهم اللعب تجهيز الجنون العظيم.

وقد تأمل ذات يوم في ثخن ألواح سفينة فتأوه بأعلى صوته وقال: إن المسافرين في البحر ليسوا بعيدين عن الموت، إلا بمقدار أربعة أصابع. وسألوه أيضًا عن أثمن السفن؟ فأجاب بأنها: هي التي تأتي إلى البر سالمة.

وكان دائمًا يكرر ويقول: يجب على كل إنسان أن يمتلك لسانه وبطنه، وكان عند نومه يضع يده اليمنى على فيه، وهذا منه إشارة عظيمة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يهتم الاهتمام الكلي ويحرص على حفظ لسانه وصونه.

وجاءه رجل من أثينا وعيره بكونه من التتار فقال له: إن بلدي قد فضحتني وأنت قد فضحت بلدك، وسئل ذات يوم هل في الرجال قبيح وحسن؟ فأجاب بأن فيهم اللسان، وكان يقول: الصديق الواحد الموفي بحق الصحبة والصداقة أولى وأحسن من أصحاب متعددين لا يجتمعون على الإنسان إلا في حال الثروة والغنى.

وكان حين يسأل هل الأحياء أكثر أم الأموات؟ يقول في الجواب: من أي قبيل تعدون من فوق البحر!

وكان يقول: اتخذ الناس الأسواق لأجل غش بعضهم فيها. وكان ذات يوم مارًا من زقاق فسخر به رجل بعقله تخدير فرمقه بطرفه وقال بهدوءٍ هذا الشاب إنك الآن وأنت شاب لم تتحمل النبيذ فسيمر بك تحمل الماء وأنت شيخ هرم؟!

وطالما شبه القوانين بنسج العنكبوت، وكان يلوم سولون على دعواه أن كتابة القوانين تمنع شهوات الناس، ومن مخترعاته طريقة عمل أواني الفخار بالدولاب، وذهب انخرسيس ذات يوم إلى كاهنة صنم هيكل الشمس ليستخبرها هل يوجد حكيم أعظم منه؟ فقالت له: نعم وهو ميزون الشانيسي، فتعجب انخرسيس من كونه لم يكن سمع به قط، وذهب يبحث عنه في قرية كان هاجر إليها، فوجده يصلح محراثه فقال له: يا ميزون، لم يبق لحرث الأرض

وقت، فقال ميزون: قد عكست، بل وهناك وقت لإصلاح المحراث المكسور، وميزون هذا قد عده أفلاطون من جملة الحكماء، وكان منفردًا دائمًا عن الناس، ومضى عمره على ذلك لا يجتمع مع أحد؛ لأنه كان يكره الناس بالطبع، ورؤى ذات يوم أبعد في مكان العزلة وهو يكثر في الضحك جدًّا، فقرب منه إنسان وسأله: ما سبب هذا الضحك الكثير مع عدم وجود أحد عندك؟ فقال له: هذا هو سبب ضحكي.

وكان اكريسوس قد سمع بصيت انخرسيس كثيرًا فأرسل يعرض عليه هدية دراهم، وترجاه أن يحضر إليه بسارديس فأجابه انخرسيس بقوله: يا سلطان اللديين أتيت بلاد اليونان لأتعلم اللغة والأخلاق وعوائد البلاد، ولست محتاجًا لذهب ولا لفضة وسيدخل عليّ سرور كبير حين أرجع إلى بلاد التتار أمهر مما كنت عليه وقت خروجي منها، وسأحضر عندك لأجل زيارتك؛ لأني أتمنى أن أكون من أصحابك.

وبعد أن مكث مدة طويلة في بلاد اليونان عزم على الرجوع إلى بلاده، فلما مر في سيره بمدينة «قيريبيك» رأى أهلها في إشهار العيد العظيم لأم الآلهة، فنذر انخرسيس لهذه الآلهة على نفسه قربانًا وعيدًا مثل قربانهم وعيدهم، وأن يرتبهما لها ببلده في كل سنة إن وصل إلى بلاده سالمًا، فلما وصل إلى بلده أراد أن يغير عوائدهم القديمة وأن يجري فيها قوانين اليونان، فلم يعجبهم ذلك أصلًا.

ودخل ذات يوم في غابة سرًّا ببلدة «هولة» ليوفي ما عليه من النذر الذي التزمه خفية من غير أن يطلع عليه أحد، فأخذ يعمل المولد لها، وهو ماسك بيديه طبلة قدام القربان الذي نذره لآلهة اليونان كما يعملون، فأطلع عليه شخص من أهل بلاد التتار فذهب إلى الملك وأخبره بذلك فحضر الملك في هذه

الغابة، ورأى أخاه انخرسيس على تلك الحالة فضربه بسهم فغاص فيه، فلما قرب خروج روحه صرخ وقال بأعلى صوته: قد تركت في الراحة ببلاد اليونان التي كنت ذهبت إليها؛ لأتعلم اللغة والأخلاق وعوائد بلاد ميلادي، ثم إنهم جعلوا له جملة صور بعد وفاته لتبقى سيرته.

تاريخ فيثاغورس الفيلسوف

ظهر فيثاغورس قريبًا من الأولمبياد المتمم ستين، وجاء إلى إيطاليا في الأولمبياد الثاني والستين، وتُوفي في السنة الرابعة من الأولمبياد المتمم سبعين وعمره ثمانون سنة، وقيل: تسعون سنة، وكان يوجد فرقة مشهورة بالفلسفة في «يونيا» وإيطاليا، فطاليس من مدينة مليطا، كان شيخ اليونانية، وكان فيثاغورس شيخ الإيطالية، وقد روى ارستيب الغرنياني أن هذا الفيلسوف سمي فيثاغورس؛ لأنه كان من قوة كهانته يخبر بالأشياء فتقع كما أخبر، مثل أخبار كهنة الشمس، وهو أول من امتنع تواضعًا منه أن يلقب حكيمًا، ورضي بلقب الفلسفة.

والصحيح الذي اشتهر إن فيثاغورس من جزيرة ساموس، وأن أباه كان يسمى امنيزارك النقاش، وإن حقق بعضهم أنه من طوسكانه وأنه ولد بجزيرة صغيرة من جزائرها التي استولى عليها الأثينيون الممتدة على شاطئ البحر الترهيني.

وكان فيثاغورس يعرف صنعة أبيه، وصنع بنفسه ثلاثة كئوس من الفضة وأهداها لثلاثة من القسيسين المصريين، وكان أشد ميلًا لأول معلميه الحكيم فيرسيد، وكان هذا الحكيم يحبه جدًّا، حتى أنه ذات يوم كان على خطر الموت من المرض، فأتاه تلميذه ليعوده وينظر حاله، فمن خشية فيرسيد أن يكون مرضه معديًا، أسرع بغلق الباب دونه وأخرج أصابعه من بين ألواح الباب، وقال له: انظر وتأمل لأصابعي التي قد نحلت؛ تعلم حالتي، وبعد أن مات فيرسيد مكث فيثاغورس مدة من الزمن وهو يتلقى عن هرمودامنط بجزيرة ساموس، ثم بعد ذلك لرغبته الكلية في التعلم ومعرفة أخلاق الغرباء، ترك

وطنه وجميع أملاكه للسفر، فمكث بمصر مدة طويلة لمخالطة القسس وليتبحر في الأشياء الدقيقة الخفية في ديانتهم.

وكتب بوليقراط إلى امزيس -ملك مصر- يوصيه على فيثاغورس بإكرامه واحترامه، ثم بعد ذلك توجه فيثاغورس إلى بلاد الكلديانية؛ ليتعلم علم المجوس، وبعد أن سافر في عدة مواضع من بلاد المشرق أتى إلى مملكة اكريطه، واتحد مع الحكيم ايمينيدس اتحادًا كليًا، ثم خرج من هذه المملكة وذهب إلى جزيرة ساموس، فرأى أهل بلده قد حل بهم الظلم تحت حكم بوليقراط، فحصل له غيظ شديد من ذلك، وقدح فكرته في هذا الشأن فأدته إلى أنه ينفي نفسه بنفسه، فذهب إلى إيطاليا وسكن باقروطون في بيت ميلون وعلّم الناس الفلسفة واشهرها، فنشأ من ذلك أن المذهب الذي علمه سمي إيطاليا.

وقد انتشر صيت فيثاغورس وشاع في سائر بلاد إيطاليا وكثرت تلامذته، فكان الملازمون له أكثر من ثلاثمائة تلميذ، فتألف منهم جمهورية صغيرة مرتبة ترتيبًا حسنًا، وذكر جماعة في كتبهم أن «نوما» كان من جملة هذه العدة، وأنه سكن بمدينة اوقرطون عند فيثاغورس حين أتته سلطنة مدينة رومية، ولكن ادعى ثقات النسابين أنه لم يقل ما تقدم إلا بسبب أن فيثاغورس وافقت آراؤه آراء «نوما» الذي كان يعيش قبل وجود هذا الفيلسوف زمنًا طويلًا.

وكان فيثاغورس يقول: إن سائر أشياء المحبين شيوع بينهم وإن المحبة ترث المساواة بين الأحباب؛ فلذلك كان هؤلاء التلامذة متحدين، ولم يتميز أحد منهم بشيء يخصه، بل كان ما يملكونه لجميعهم ولم يكن لهم إلا كيس واحد، وكان التلميذ يمكث خمس سنواته الأول في استماع أصول معلمه من غير أن يتفوه في تلك المدة بكلمة واحدة، ثم بعد هذا الامتحان الطويل ومقاساة

تلك الشدة يؤذن له في الكلام، وأن يحضر عند فيثاغورس لزيارته والمحاورة معه.

وكان فيثاغورس مُهابًا مُحترمًا، وكان معتدل القامة حسن الصورة، وكان في جميع أوقاته يلبس ثوبًا لطيفًا من الصوف الأبيض مع غاية النظافة دائمًا، وكان لا يميل لهوى نفسه وحظوظها، وكان إذا أودع سرًّا لا يبوح به ويحافظ على كتمانه جدًّا.

ولم يره أحد يضحك ولم يسمع منه مزاح ولا هزل، وكان لا يقتص من أحد في حال غيظه، بل كان لا يضرب عبيده بيده، فلهذا كانت تلامذته يعتقدون ألوهيته، وكان جميع الناس يأتونه أفواجًا أفواجًا من سائر الجهات ليحظوا بسماعه ويتأملوا منه وهو بين تلامذته، فكان يأتي في مدينة اقرطون في كل سنة أكثر من ستمائة من الناس من جميع البلاد فكان السعيد عندهم صاحب الشأن العظيم هو الذي يدنو من فيثاغورس ويتداخل معه قليلًا، وكان فيثاغورس قد رتب لجملة من الأمم قوانين لطلبهم ذلك منه وترجيهم له، وقد كان من كثرة ما أعجب جميع الناس ما كانوا يفرقون بين أقواله وأقوال كاهن دلفيس، وكان يحرم الحلف بالآلهة والاستشهاد بها في جميع الأشياء تحريمًا كبيرًا وكان يقول: يلزم لكل إنسان أن يغلظ على نفسه حتى يصير متصفًا بالكمال؛ لأجل أن لا يعسر على أحد تصديقه بمجرد الأخبار.

وكان يزعم أن العالم له روح وإدراك، وأن روح هذا الدولاب العظيم هو الأثير، فمنه جميع الأرواح الجزئية للآدميين وسائر الحيوانات، وكان يقول: إن الأرواح لا تفنى غير أنها تسوح في الهوى من جهة إلى أخرى إلى أن تصادف جسمًا أيًا كان، فتدخل فيه مثلًا إذا خرجت الروح من جسد الإنسان فيتفق أن

تدخل في جسم فرس، أو ذئب، أو حمار، أو فأر، أو طائر، أو سمكة، أو غير ذلك من باقي أنواع الحيوانات، كما يتفق أنها تدخل في جسد الإنسان أيضًا من غير فرق، كما أنها إذا خرجت من جسم أي حيوان تدخل في جسم إنسان أو في جسم حيوان، فلذلك كان فيثاغورس يشدد في منع أكل الحيوانات، وكان يزعم أيضًا أن ذنب من يقتل الذبابة أو الزنبور أو غيرهما من الهوام مثل ذنب الذي يقتل إنسانًا؛ حيث إن سائر الأرواح واحدة متنقلة في جميع الحيوانات.

وأراد فيثاغورس أن يثبت لجماعته مذهبه في تناسخ الأرواح، فأخبرهم أنه كان سابقًا في جسد اسمه ايثاليديس، وادعى أنه كان ابن عطارد من آلهة اليونان، وكان عطارد يقول له: إذ ذاك سَلْ مني ما تحب تعطه، ما عدا البقاء والدوام حتى يتم غرضك ومقصودك، فطلب منه أن يعطيه قوة تذكر جميع الأشياء التي تحصل له في الدنيا في حياته وبعد مماته، ومن ذلك الوقت صار عالمًا بجميع ما يقع في الدنيا، وأخبرهم أيضًا بأنه لما خرج من جسم ايثاليديس انتقل إلى جسم اوفوربه، وكان حاضرًا في حصار مدينة طرواده وجرحه شخص يسمى مينلاس جرحًا شديدًا، وبعد ذلك خرج إلى جسم هرموتيوس، وفي هذا الزمن أراد أن يُثبت للناس ما وهبه له عطارد، فذهب إلى بلد ابرانخيدس ودخل هيكل اوبولون، وأراهم فيه درقته البالية التي كان سلبها مينيلاس حين جرحه ونذرها لذلك الهيكل دليلًا على نصرته، ثم انتقل إلى جسم صياد يسمى بوروس، ثم إلى ذلك الجسم الذي هو فيثاغورس، وأنه لم يعد انتقاله إلى جسم ديك كذا أو طاوس كذا أو غير ذلك.

وقال: إنه حين سفره في أودية جهنم رأى روح الشاعر هزيودس مسلسلة في الأغلال ومصلوبة في عمود وتقاسي الشدائد جدًا، ورأى أيضًا روح

هوميرس معلقة في شجرة واحتاطت بها الأفاعي من كل جانب، وذلك عقاب له على أكاذيبه التي كان ينسبها للآلهة، ورأى أرواح الرجال الذين كانوا لا يحسنون العِشرة مع نسائهم ويسبئونهن في غاية العقاب في تلك الأودية.

واتفق أن فيثاغورس بني له تحت الأرض حجرة صغيرة، وعندما أراد النزول فيها عاهد أمه أن تكتب مع التحقيق سائر ما يحصل في مدة غيبته، وسجن نفسه فيها سنة كاملة، ثم خرج منها نحيفًا أشعث أغبر في صورة مهولة وجمع الناس وأخبرهم أنه كان في جهنم، ولأجل أن يحملهم على تصديقه في ذلك شرع يذكر لهم ما حصل في مدة غيبته فظنوا أنه فوق سائر البشر ورثوا لحاله وبكوا وتضرع الرجال إليه إن يعلم نساءهم، فمن ذلك صارت نساء اوقروطون ينسبن إليه فيقال لهن: الفيثاغوريسيات.

وكان فيثاغورس ذات يوم في محفل لعب عمومي من الناس فصفر صفيرًا مخصوصًا وإذا بنسر نزل له من الجو فتعجب منه الناس حين رأوه غاية العجب، مع أنه كان قد عَلَّم النسر على ذلك سابقًا من غير شعور أحد بذلك.

ولأجل أن يؤكد عندهم صحة التخيلات أراهم أيضًا فوق ساقه فخذًا من ذهب وما كانت قرباناته إلا العيش والفطير وما أشبه ذلك؛ لأنه كان يقول: إن الآلهة تكره القربان من ذوي الأرواح، وأنها تغضب على من يزعم تشريفها بقربان مثل ذلك، وقد يظهر من أصول هذا الفيلسوف أنه أراد أن يحول الناس عن الامتلاء إلى التقليل؛ لأنه الأولى لهم والأحسن لما يترتب عليه من الصحة وعدم شغل البال والفكر، فبتفرغ العقل لوظائفه.

وأحب أن يضرب المثل بنفسه فكان لا يكاد أن يشرب إلا الماء القراح،

وكان لا يتجاوز في غذائه العيش والعسل والفاكهة والخضروات ما عدا الفول فإنه كان يتباعد عنه ولا يعلم لذلك سبب.

وكان يقول: إنما الناس في الحياة الدنيا كأرباب الموسم الحفل بعض يأتيه للفرجة، ومنهم من يذهب للتجارة، ومنهم من يذهب للمسابقة؛ ليمرن نفسه على القتال، فكذلك حالهم في الدنيا؛ بعض خلق أسير الفخر، وبعض للحرص، وبعض لا يبحث إلا عن مجرد الوقوف على الحقائق، وكان يحب أن الإنسان لا يطلب شيئًا لنفسه؛ لأنه يجهل ما يصلح له.

وقَسَّم عُمر الإنسان أربعة أقسام متساوية، فقال: هو من صغره إلى عشرين سنة صبي، ومنها إلى الأربعين شاب، ومنها إلى الستين رجل، ومنها إلى الثمانين شيخ، ومتى زاد على ذلك لا يعد من الأحياء.

وكان يحب علم الهندسة كثيرًا، وكذلك علم الهيئة، وهو الذي نَبَّه على أن النجمة التي تظهر أحيانًا وقت الصباح هي بعينها التي تبدو أحيانًا في المساء، وهو الذي برهن على أن مربع الوتر في كل مثلث قائم الزاوية مساوٍ لمجموع مربعي الضلعين الآخرين.

وقيل: إن فيثاغورس حين اخترع هذه المسألة النظرية حصل له غاية السرور حتى ظن أنها إلهام إلهي، فأراد في ذلك الوقت أن يهدي قربانًا بمائة من البقر إظهارًا لشكر الإله، هكذا ذكر في كثير من الكتب، لكن هذا يخالف مذهبه من تحريم ذبح الحيوانات إلا أن تكون تماثيل البقر اتخذت من الدقيق والعسل، كما يصنع ذلك في القربان كل من انتسب إليه، وذكر بعضهم أنه مات من شدة فرحه بتلك المسألة، لكن نص الحكيم لويرقه على أنه لا أصل لذلك.

وكان فيثاغورس يحب تأليف تلامذته ببعضهم، وكان ربما علمهم وكلمهم بالإشارة، كقوله لهم: لا يبغي لكم أن لا تقسطوا في الميزان، يعني بذلك: لا تخرجوا عن حد القوانين ولا تحيدوا عنها أبدًا، وكان يقول: لا تجعلوا الزاد الحاضر وطأكم يكنى عن عدم الاكتفاء براهن الحالات، وأنه ينبغي الاهتمام بالمستقبلات.

وكان دائمًا ينبههم على أن كلًّا منهم يختلي بنفسه برهة من الزمن آخر يومه ويخاطبها بهذه الكلمات لمحاسبتها: يا نفسي كيف صرفت يومك هذا، وأين كنت فيه، وماذا صنعت فيه من اللائق وغيره؟

وكان يأمرهم أيضًا بالاقتصاد في ظواهر أحوالهم وجعلها موافقة لحال من هم بينهم، وعدم إظهار آثار السرور أو الحزن وببر الوالدين وأن يتمرنوا على الرياضات حتى لا تغلظ أجسامهم واحترام شيوخهم، وأن لا يفتوا أعمارهم في السفر.

وكان يحثهم على التمسك بطاعة الإله وعبادته كما ينبغي، وكان لفيثاغورس عبد يقال له: زامولكيز من التتار قد اكتسب العلوم من سيده، وفهم قواعد معارفه، ولما رجع إلى لبلده قربوا له قربانًا، ونظموه في سلك من يعبد عندهم، وكان فيثاغورس يزعم أن الأصل الأول لجميع الأشياء هو الواحد ومنه تخرج الأعداد ومنها تخرج النقط، ومن النقط تخرج الخطوط، ومن الخطوط السطوح، ومن السطوح الأجسام، ومن الأجسام العناصر الأربعة، وهي: النار والهواء والماء والتراب؛ التي تركَّب منها العالم، وأنها دائمًا تستحيل وتتغير ويرجع أحدها للآخر ولا ينعدم من جواهر العالم شيء، بل جميع ما يعتريه محض تغيير، وكان يقول: إن الأرض مستديرة وأنها موضوعة في وسط

الكون وأنها معمورة من سائر جهاتها، فبناء على ذلك يوجد أناس مقاطرون لنا بمعنى أنه لو رسم خط من قدم أي إنسان إلى أسفل الكرة لوقع على قدم إنسان يقابله، ويكون ذلك الخط قطرًا للكرة، وأن الهواء المحيط بالأرض غير شديد الحركة، بل يكاد أن يكون قارًّا، وهذا هو علة قابلية حيوانات الأرض للموت والفساد، بخلاف الهواء الذي في السماء؛ فإنه رقيق جدًّا شديد التحرك والاضطراب دائمًا؛ فلذلك كان سائر ما في السماء من ذوي الأرواح لا يزول ولا يفنى، بل هي آلهة أبدية باقية، فإذن الشمس والقمر وسائر الكواكب آلهة؛ لأنها في وسط هذا الهواء الرقيق والحرارة الفعالة التي كانت أصلًا للحياة.

وقد اضطربت الأقوال في موت هذا الفيلسوف، وكثر فيه الخلاف فذهب بعض المؤرخين إلى أن السبب فيه أنه طرد بعضًا من تلامذته من عنده ولم يقبله، فحصل له غيظ شديد حمله على أن أوقد النار ببيت ميلون؛ الذي كان فيثاغورس مقيمًا به، وذهب آخرون إلى أن فاعل ذلك إنما هو الاقروطينياطه خوفًا من أن يستولي على بلادهم وترجع مملكتهم إليه، فلما رأى فيثاغورس اشتعال النار وتأججها في سائر جهات هذا الموضع، بادر بالهروب ومعه أربعون من تلامذته، وقال بعضهم: إنه هرب بأشجار موزس بمدينة ميتاغنته، ومات جوعًا في ذلك المحل، وقال آخرون: إنه اضطر في هروبه إلى دخول زراعة فول، فقال: إن الأولى لي أن أموت هنا خارج الزرع المسكين ولا أتلفه بالمشي وانتظر مع السكون الاقروطينياطه حتى قتلوه هو وأغلب تلامذته، وآخر الأقوال أن الذي قتله إنما هم جماعة من السيراقوسيين، وذلك لأنه وقعت بينهم وبين الاغريجنتيين محاربة، فذهب فيثاغورس لمساعدة الاغريجنتيين لانتمائهم إليه وصحبتهم له فهزموا، فوجد فيثاغورس نفسه عند غيط فول، فما أراد المرور فيه واستحسن مد عنقه للذين نقبوا جسده بالضربات وقتلوا من معه من التلامذة

ولم ينج منهم إلا القليل، منهم: ارشيتاس الطرنطيني الذي كان أعظم المهندسين في ذاك الوقت.

تاريخ هيرقليس الفيلسوف

ظهر أمره في الأولمبياد التاسع والستين. وهو من مدينة افسوس، وكان أبوه يسمى ابلوزون، وظهر قريبًا من الأولمبياد التاسع والستين كما سبق قريبًا، وكان يسمى في اصطلاحهم الفيلسوف المعمي؛ لأنه كان لا يتكلم إلا بالألغاز، ووصفه لويرقه بأنه كان يحتقر الناس ولا يعتبر إلا نفسه.

وكان يقول: إنه يلزم طرد كتب اوميروس وارخيلوقوس من سائر المواضع. وكان له صاحب صديق يقال له: هرمودروس نفاه أهل مدينة أفسوس، فمن ثم كان قلبه حزينًا، وكان ينادي بأعلى صوته ويقول: إن جميع رجال هذه المدينة يستحقون الموت وأولادهم النفي لتمحى ذنوبهم التي فعلوها من نفيهم أعيان أهل بلادهم، وأعظم شجعانهم من أهل جمهوريتهم وكانت معارفه العظيمة وفصاحته وبراعته ناشئة من عقله وقوة فطنته، لا بالتلقي والحضور على معلم وكان يزدري أفعال الناس ويتأسف على عمى قلوبهم وغفلتهم؛ فلذلك كان دائمًا يبكي من غيظه، وقال المؤلف جوفنال: إن هذا الفيلسوف في دوام بكائه يباين دومقريطس في استمرار ضحكه على الناس في أفعالهم.

وقال أيضًا: إن إدامة دومقريطس الضحك على الناس رثاء لحالهم في قدرة كل إنسان تدبر أحوال أهل العصر تصوره، وإنما العجب كل العجب من تصور وجود عين ماء دائمة السيلان تمد دموع هيرقليطس الدائم البكاء.

ولم يكن هيرقليطس من المبدأ على منوال واحد؛ لأنه كان في صغره يقول: إني لا أعرف شيئًا، ثم لما طعن في السن أظهر أنه يعرف جميع الأشياء، وأنه لا

يتعسر عليه شيء من المعارف، وأنه لا يعجبه أحد من الناس ولا يحصل له حظ منهم، وكان متباعدًا عن صحبتهم، وكان يذهب للعب في الملاعب اللائقة عندهم قدام هيكل يسمى «ديانه» مع صغر تلك المدينة.

وكان أهل المدينة يجتمعون به ويتعجبون من لعبه مع صغارهم ويسألونه عن ذلك فيقول لهم: يا هؤلاء المساكين، لأي شيء تتعجبوا من لعبي معهم؟ أليس هذا أولى وأحسن من اجتماعي معكم واختلاطي بكم مع ما أنتم عليه من قبيح الأفعال بسبب عدم إصلاح تدبيرات الجمهورية؟

وطلب منه أهل المدينة ذات يوم أن يرتب لهم قوانين فأبى؛ لما رأى من أن أخلاقهم وطباعهم فشا فسادها، ولم يتيسر له كيفية تمنعهم عن ذميم الأخلاق.

وكان يقول: إنه يجب على الرعايا أن يجتهدوا الغاية ويبذلوا جهدهم في العمل بالقوانين وفي حماية البلاد، ويلزم أيضًا أنهم يبادرون بإزالة الحقد والغل من بينهم أكثر من مبادرتهم بإطفاء نار الحريقة؛ لأن ضرر الأول كثير عن الثاني جدًّا، وذلك لأن النار إنما يتلف بسببها بعض البيوت، وأما الحقد والغل فإنه إن لم يتدارك ويبادر بإزالته قد ينشأ عنه الحرب الشديد وتخريب المواضع، بل والتلف للرعايا أيضًا.

واتفق أنه حصلت فتنة عظيمة في مدينة افسوس، فجاء بعض الناس إلى هيرقليطس وترجاه أن يعمل طريقة لإطفاء هذه الفتنة أمام العالم وينهاهم عنها، فصعد هيرقليطس على منبر عال وطلب كأسًا وملأه ماء، وجعل فيه بعضًا من الحشائش البرية، وشرب ذلك الماء بما مازجه من تلك الحشائش، ثم نزل وذهب من غير أن يتكلم بشيء، وذلك إشارة منه إلى أنه يلزم لتدارك الفتن اجتناب

زخارف الدنيا وتبعيد اللذات عن الجمهورية، وتعويد الأهالي على الاكتفاء بأقل الأشياء.

وقد ألّف هيرقليطس كتابًا في علم الطبيعة وجعله بهيكل «ديانه»، وسلك في كتابته طريقًا صعبة، بحيث لم يفهمه إلا أكابر علمائهم خوفًا من أن يطلع عليه عموم الناس فيرخص عندهم وتقل الرغبة فيه، واشتهر شهرة عظيمة؛ حيث لم يفهم مراد مؤلفه في عباراته، فلما سمع دريوس ملك العجم بهذا الكتاب بعث مكاتبة للمؤلف يترجاه في أن يحضر عنده في بلاد العجم ويتوطن بها، وأن يفهمه معنى هذا الكتاب، وأنه يكافئه على ذلك بهدية عظيمة، ويجعل له مسكنًا في سرايته، فلم يرض هيرقليطس بذلك.

وهذا الفيلسوف كان من دأبه الصمت فكان لا يتكلم أبدًا، فإذا سأله إنسان عن سبب سكوته أجابه بغيظ: إن سكوتي؛ لأجل أن تتكلم، وكان يحتقر الأثينيين؛ لكونهم يحترمونه غاية الاحترام ولكونهم قد أعدوا له مسكنًا عندهم بمدينة افسوس التي هي وسائر ما فيها أحقر الأشياء عنده.

وكان دائمًا لا يرى أحدًا إلا ويبكي على ضعف البشر، وكون أفعال الناس غير ملائمة، واشتد به ذلك حتى أداه إلى اعتزال الناس بالكلية، وأقام بجبال قفرة لا يرى بها أحدًا وأفنى عمره في البكاء والنوح، وكان غذاؤه خصوص الحشائش والخضروات.

وكان هيرقليطس يزعم أن النار هي الأصل الأول لجميع الأشياء، وكان يقول: إن عنصر النار يتغير بالتكاثف حتى يصير هواء، وهذا الهواء أيضًا يتغير بالتكاثف ويصير ماء، وكذلك عنصر الماء يصير بالتكاثف ترابًا ثم ينعكس،

فإذا تفرق التراب تغير وصار ماء، ثم الماء بالتفرق هواء، والهواء نارًا به، فحينئذٍ الأصل الأول لجميع الأشياء هو النار.

وكان يقول: إنه لا يوجد في الكون عالم غير هذا، وقد تم الايجاد فلا أبدع منه، وإن هذا العالم قد نشأ وتركب من النار، وإنه سيذهب آخرًا ويفنى بها.

وكان يزعم أن الكون ممتلئ من الجن والعقول، وأن الإله لما قضى أزلًا بوجود الأشياء تركها لتدبير خلقه، وإن جرم الشمس لا يزيد عن المشاهد لنا وإنه يوجد فوق الهواء أشياء تشبه الزوارق، ويقابلنا منها الجهة المقعرة وإليها يصعد البخار من الأرض، وإن جميع ما يسمى أنجمًا ليس إلا زوارق مملوءة ببخار ملتهب، وأن ما نشاهده من الضوء ناشئ من ذلك التلهب.

وأن كسوف الشمس والقمر ينشأ من دوران هذه الزوارق حين تدور بمقعرها إلى القطعة المقابلة للأرض منها، وقال: إن سبب اختلاف منازل القمر هو أن زورقه ليس كثير الدوران، بل يدور شيئًا فشيئًا، أما كلامه في الروح، فكان يقول: إني أفنيت عمري في البحث عنها بلا طائل؛ حيث لم أظفر بحقيقتها لشدة خفائها.

ونشأ له مما قاساه في معيشته مرض عظيم وهو الاستسقاء فرجع إلى مدينة افسوس ليعالج نفسه فذهب إلى بعض الحكماء وكان لا يفصح في كلامه عن مقصوده حيث كان لا يتكلم إلا بالألغاز، فقال للطبيب مشيرًا إلى مرضه: هل لك في آن واحد أن تجعل المطر في الصحو واليبس؟ فلم يفهم الحكيم مقصوده، فتركه هيرقليطس وذهب إلى مربض بقر ودخل فيه فوجد فيه الزبل والروث فأراد أن يصنع كيفية لأجل أخراج الماء الذي كان سببًا في ورمه، فأدخل نفسه

في ذلك الروث وتوغل فيه ثم أراد الخروج منه فلم يمكنه، واستمر حتى أكلته الكلاب، وقال آخرون: إنه مات حيث لم يمكنه الطلوع من هذا الوحل، وكان عمره إذ ذاك خمسًا وستين سنة.

تاريخ انكسغوراس الفيلسوف

وُلِدَ في الأولمبياد السبعين، وتُوفي في الأولمبياد الثامن والثمانين وعمره اثنان وسبعون سنة. وانكسغوراس هذا ابن اجيزيبول قد تَعلَّم علم الطبيعة بطريق واضحة جدًّا وتلقاه عمن قبله من الفلاسفة، وكان من مدينة اكلازومين إحدى مدن يونيا، وكان من عشيرة مشهورة في النسب والغنى، اشتهر قريبًا من الأولمبياد السادس والسبعين.

وكان تلميذًا لأستاذ يُسمى انكسمينيس الذي كان تلميذ انكسيمندر أحد تلامذة طاليس، الذي عده جميع اليونان في أول عظماء حكمائهم، وتولع انكسغوراس بالفلسفة وتعلق بها جدًّا، فترك ما عداها من سائر الأماني وتفرغ لها بالكلية وترك أمواله والتكسب وكل شيء عمومي أو خصوصي خوفًا أن يشغله ذلك عن قراءتها، فاخبره أهله بأن ذلك ليس من الصواب؛ لأنه يترتب عليه ضياع الأموال وتلفها، فلم يقبل ذلك منهم وخرج من بلده بالكلية قاصدًا ما عزم عليه من أمور الحقيقة والصدق وأسباب الخير، وحين خروجه قابله بعض الناس فتجارى عليه، وقال له: أنت لا تحب وطنك. فقال له: إني على خلاف ما ذكرت، وإني أحب وطني هذا حبًّا كثيرًا وأشار بأصبعه إلى السماء، ثم ذهب إلى مدينة أثينا وأقام بها ونقل إليها مكتبه المسمى اليونيقي، بعد أن كان مؤسسًا في مدينة مليطه في عهد طاليس مبتدع هذا المذهب وأخذ في تعليم الفلسفة من هذه المدرسة وعمره عشرون سنة.

مكث في التعليم ثلاثين سنة، واتفق في بعض الأيام أنه جيء بشاة في مكتب بيرقليس وكان لتلك الشاة قرن في وسط جبهتها، فقال المنجم لمبون: إن هذا يدل على أن تفرق الأثينين إلى عصبتين متباينتين سينقضي وتلتئم الفرقتان

حتى تصيرا فرقة واحدة، فقال انكسغوراس: إن هذا الذي بالشاة أمر خلقي لا يدل على شيء، وإنما سببه أن المخ لم يملأ جمجمة الرأس التي على شكل بيضة تنتهي بطرف مسنن في الموضع الذي ينبت منه القرن في الرأس، وشَرَّح لهم رأس هذه الشاة على رءوس الأشهاد، فوجدوا الأمر كما قال، فعند ذلك حصلت له شهرة عظيمة وصار محترمًا عندهم، ومع ذلك فلم يقدح كلام انكسغوراس في الذي تغاله ذلك المنجم، فإنه بعد ذلك ببرهة انهزمت فتنة توقوديدس ودخلت جميع مصالح المملكة تحت حكم بيرقليس.

ويقال: إن انكسغوراس هو أول من أشهر علم الفلسفة بطريق جلية في جميع اليونان دون سائر المعلمين من الحكماء، وكان يقول بعدم التناهي وأنه هو الأصل الأول لكل موجود، ويقول أيضًا بالعقل الذي يفيض على كل مادة ما يليق بها من الصورة بأن يركب موادها بالالتئام ويفيض عليها الشكل اللائق بها، ولهذا سماه حكماء عصره بالعقل؛ لقوله به، فليس قصده أن العقل أبرز الموجودات من عدم إنما كانت في حيز الوجود مفرقة فرتبها، ويدل لذلك قوله: بأن سائر الأشياء كانت جواهرها مختلطة ببعضها ومكثت بهذا الوصف حتى ميزها العقل عن بعضها أجناسًا ورتب كل جنس في مرتبته، وقد بين الشاعر اوريديس هذا المذهب في مبدأ قصائده المسماة قصائد التناسخ.

وبالجملة فانكسغوراس لا يقول بألوهية غير العقل المتقدم، وشنع على جميع آلهة الجاهلية حتى قال بعضهم: إن إله الصواعق أنزل على هذا الفيلسوف صاعقة من السماء فأهلكته جزاءً على إنكاره له.

وكان يقول: لا فراغ في الجو، بل سائره مملوء وأن سائر الأجسام تقبل القسمة إلى ما لا نهاية له، ولو كان الجسم صغيرًا جدًّا؛ بحيث أنه لو وجد قاسم

ماهر وآلة تقسيم يمكن أن يستخرج من رجل البعوضة أجزاء لو وضعت على ألف ألف سماء لسترتها من غير تناهيها في نفسها، بل لا تزال قابلة للقسمة لأن الفرض أن لا تناهي لشيء من الأشياء.

وكان يزعم -أيضًا- أن كل جسم مركب من أجزاء صغيرة متجانسة، فالدم مثلًا مركب من أجزاء صغيرة من دم، والماء من أجزاء صغيرة من الماء، وهكذا سائر الأشياء، ومن ثم سميت الأقسام جنسية، وقد أسس لويرقه مذهبه على تلك القاعدة.

ومما اعترض به على هذا الفيلسوف في هذا الزعم أنه بالضرورة كان يلزم أن تكون الأجسام مركبة من أجزاء غير متجانسة لأن عظم الحيوان يتزايد في الجرم، مع أنه لا يتغذى بعظم وكذلك عروقه تطول وتغلظ من غير أن يتعاطى العروق في غذائه ويزيد دمه ويكثر من غير أن يشرب دمًا، فأجابه بأنا نسلم أنه عند التدقيق لا يوجد في الحقيقة جسم تام التجانس في الأجزاء، بل لا بد وأن يختلط به أجزاء من غير جنسه، فالحشيش مثلًا: فيه لحم ودم وعظم وعروق؛ لأنا نرى الحيوانات تغتذي به فكل جزء من أجزاء الحيوان أن يجذب إليه ما في الحشيش من جنسه، وحينئذ فتسمية الجسم باسم حشيش أو خشب مثلًا يكفي في صحتها كون معظم أجزائه من نوع الحشيش أو الخشب لا شيء آخر، ويكون ذلك المعظم هو الساتر لسطح الجسم الأعلى المرئي.

وكان يزعم أن الشمس ليست إلا قطعة من حديد حامية وأن جرمها أكبر من جميع بلاد موره وأن القمر ليست إلا جسمًا مظلمًا في نفسه ويمكن أنه مسكون وبه جبال وأودية كما في الأرض، وكان يزعم أيضًا أن النجوم ذوات الذنب هي عدة من النجوم السيارة المتحيرة تتلاقى ببعضها من غير تعيين زمن

لذلك التلاقي، ثم بعد مضي جملة من الزمن تتفرق تلك النجوم وأن الرياح تتخلق وقت أن يجعل حر الشمس الهواء قليلًا، وأن الرعد ينشأ من تلاطم السحاب وتصادم بعضه ببعض حين الملاقاة، وأن البرق ينشأ من مماسة السحاب بعضه لبعض فقط، وأن زلزلة الأرض سببه تحرك الهواء المخزون بمغارات تحت الأرض، وأن سبب زيادة النيل ثلج في بعض بلاد الحبشة يسيح في أزمنة معينة فيخرج منه ماء كثير كانهطال السيل ويجتمع في منابع هذا النهر، وكان انكسغوراس يزعم أن تحرك الكواكب ناشئ من الهواء، فعارضوه بأن الكواكب تتحرك وتدور بين مداري الحمل والسرطان، فدفع معارضتهم بأن ذلك لا يحصل إلا من مدافعة الهواء للكواكب بقوة كالدولاب إلى أن تقف إلى نقطة أيًا كانت.

وكان يقول أيضًا: إن الأرض ممهدة مبسوطة وأنها أثقل من جميع العناصر ومن ثم ملكت القسم الأسفل من جميع العالم، وأن المياه الجارية على سطحها قليلة بسبب أن حر الشمس يصيرها بخارًا ثم يصعدها في الجو إلى طبقة الهواء المتوسطة ثم تعود مطرًا ينزل بالأرض، وقال: إنه يرى في الليل إذا كان صحوًا أن في السماء بياضات متعددة تشبه القسي وتسمى طريق التَّبَّانة، وزعم بعض القدماء أن تلك الطريق جعلت لسلوك بعض الآلهة الصغار إلى الإله الأكبر الذي هو المشتري للاستشارة، وذهب آخرون إلى أنها محل لأرواح فحول الرجال حين تخرج من أجسامهم وتستمر طائرة فيها.

واتفق أن انكسغوراس غلط كغيره من سائر قدماء الفلاسفة فزعم أن تلك البياضات إنما هي انعكاسات ضوء الشمس الظاهر لنا وعلل ذلك؛ بأنه لم يوجد بين هذه البياضات والأرض كوكب يكسف هذا الضوء المنعكس.

وكان يزعم أن أول الحيوانات ناشئ من الحر والغمام ثم بعد ذلك تناسلت وتكاثرت، وقد اتفق ذات يوم أن حجرًا سقط من جهة السماء فظن انكسغوراس أن السماء مصنوعة من حجارة، وأن سرعة دوران قبة الفلك أوجبت بقاء تلك الصنعة بلا خلل؛ بحيث لو اختل الدوران لحظة لفسد نظام السماء والأرض.

واتفق أنه أنذرهم يومًا بأنه سيسقط حجر من الشمس في يوم من الأيام فكان الأمر كما ذكر، ووقع ذلك الحجر قريبًا من نهر اوغوس. وكان يقول: إن ما كان من الأرض قارًا يصير بعد ذلك بحرًا، وما كان منها في وقتنا هذا بحرًا يعود في زمن آخر قارًا، فتجاسر عليه بعض الناس وسأله: هل يصعد البحر عل جبال «لمبساك»؟ فقال: نعم ما دامت الدنيا.

وكان يعظ الملك ويحمله على معاناة أسرار الطبيعة وما خفي منها حتى يصل إلى معاينتها ومشاهدتها، ولذلك كان حين يسأل لأي شيء خلقت في الدنيا؟ يقول: لأجل مشاهدة السماء والشمس والقمر وغيرها من سائر الأنواع الحادثة، وسُئل ذات يوم عن أسعد جميع الناس؟ فقال: هو لا يكون من الذين تظنونهم سعداء، وإنما يكون من الذين تظنونهم فقراء.

وسمع ذات يوم رجلًا يشكو أن يموت غريبًا، فقال له انكسغوراس: لا مكان في الدنيا إلا وبه طريق للنزول إلى بطن الأرض، وأخبروه ذات يوم بموت ابنه فلم يهتم لذلك، وقال: إني أعلم يقينًا أنه ما خرج من صُلبي إلا قابلًا للفناء، وذهب إليه فلحَّدَه بنفسه.

والاحترام والتوقير الذي كان لهذا الفيلسوف بمدينة أثينا لم يستمر إلى

موته، بل حصلت له نكبة، وذلك أنه اتُّهم واشتهرت عليه دعوى على رءوس الأشهاد بين يدي القضاة فثبت عليه أنه مذنب، واختلف في ذنبه على قولين أشهرهما أن ذنبه الكفر بقوله: إن الشمسَ التي كانوا يعبدونها ليست إلا قطعة حديد حامية، وقيل: إنه أذنب زيادة على ذلك بخيانة، فلما بلغه أن الأثينيين حكموا عليه بالموت لم يَكْتَرِث، وقال: أنا أعلم أن الحكمة الإلهية حكمت بذلك من زمن طويل، وانتصر له بيرقليس أحد تلامذته فَخفَّف عقابه، وآل الأمر إلى غرامة بعض الأموال، ثم النفي فتجلد لذلك انكسغوراس واشتغل في مدة نفيه من بلاده بالسفر إلى مصر وغيرها من الجهات، بقصد مُخالطة العلماء، ولتعرف أحوال البلاد، ثم لما شفي غليله من ذلك رجع إلى مدينة كلازومينا التي وُلد بها، فرأى أراضيه غير مزروعة، بل متروكة بالكلية، فقال متسليًا: لو لم تتلف لتلفت.

وكان انكسغوراس مجتهدًا في تعليم بيرقليس اجتهادًا عظيمًا، ونفعه نفعًا كبيرًا في تدبير مصالح المملكة، ومع ذلك فلم يقم له بوفاء حقوق اجتهاد له، حتى يُقال: إنه فرط فيه في آخر عمره، فلما كبر انكسغوراس سنًّا، وافتقر وابتذل التف ببرنسه وأراد ترك نفسه حتى يموت جوعًا، فبلغ ذلك بيرقليس؛ فحزن لذلك حزنًا شديدًا، وذهب ليراه مسرعًا وترجاه أن يرجع عمَّا عزم عليه من إتلاف نفسه لما رأى أن هلاكه خسارة كبيرة على المملكة وعلى نفس بيرقليس من كونه كان يستشيره عند المهمات لصداقته وحُسن رأيه، فكشف انكسغوراس وجهه فإذا هو يُشْبه صورة الموتى، وقال: يا برقليس من احتاج إلى القنديل فليحافظ على مباشرته بالزيت، وذكر لويبرس أن انكسغوراس مات بمدينة لمبساك، وقال: إنه حين قربت وفاته حضر عنده أكابر المدينة، وسألوه: هل لك في شيء تأمرنا به؟ فأوصاهم أنهم يجعلون للتلامذة في كل سنة مقدارًا

من الزمن يتفسحون فيه، ويأذنون لهم باللعب كل عام في مثل اليوم الذي مات فيه؛ فامتثلوا ما أمرهم به، واستمروا على ذلك مدة طويلة، وكان عمره حين وفاته ينوف عن اثنين وسبعين سنة، وكان ذلك في الأولمبياد الثامن الثمانين.

تاريخ ديموقريطس الفيلسوف

وُلِدَ هذا الفيلسوف في الأولمبياد السابع والسبعين، ومات في الأولمبياد المتمم مائة وخمس، وعاش مائة وتسع سنوات.

وشاع على ألسنة العامة أن ديموقريطس -الفيلسوف- كان بمدينة «ابديري» وحَقق بعض الناس أنه كان بمدينة ميليطه، وأنه إنما سُمِّي «ابديريتين»؛ لكونه هاجر إليها، وتلقى العلوم أولًا على الماجية والكلديانية، اللذين خلفهما الملك اجريكيس عند والد هذا الفيلسوف لما نزل عنده حين جاء هذا الملك لمحاربة اليونان، فتعلم منهما ديموقريطس علم المنطق وعلم الهيئة، ثم بعد ذلك تعلق بفيلسوف آخر يُقال له لوسيب فتلقى عنه علم الطبيعة، وكان مجتهدًا غاية الاجتهاد في التعلم، وكان من شدة رغبته في التعلم تمضي عليه أيام متكاملة، وهو مُختَل في حجرة صغيرة في وسط بستان.

وأتى إليه أبوه ذات يوم ببقرة ليذبحها فربطها له في ركن من أركان حجرته فلم يسمع ديموقريطس كلام أبيه من شدة اجتهاده في القراءة، ولم يشعر بما فعله أبوه من ربط البقرة بجانبه حتى عاد له أبوه مرة ثانية، وأراد أن يخرجه من ذلك المحل وأخبره أن بجانبه بقرة يلزم أن يجعلها قُربانًا.

ثم بعد أن مكث مدة طويلة وهو يتلقى عن «لوسيب»؛ عزم على السياحة في الدنيا لمخالطة العلماء؛ ولأجل أن يملأ عقله بالمعارف الحسنة، فَقَسَّم تركة أبيه بينه وبين إخوته، فأخذ نصيبه منها ما كان نقدًا، وإن كان أقل الأنصباء، وإنما فعل ذلك لراحته في مصروفه زمن تعلمه ومدة سفره، ثم تَوجَّه وتعلم فيها علم الهندسة، وذهب بعد ذلك قاصدًا بلاد الحبشة، وبعدها إلى بلاد العجم،

وبعدها سافر إلى بلاد «كلديه»، ثم أداه حبه للفرجة إلى أن سافر بلاد الهند؛ ليتعلم علم قدماء فلاسفتهم، وكان يحب التعرف بمهرة العلماء من غير أن يتعرف إليهم، ويقال: إنه سكن بمدينة أثينا مدة من الزمن، ورأى سقراط ولم يُعرِّفه بنفسه.

فهكذا كان ميله أن يعيش مختفيًا، بل كان يذهب في بعض الأحيان إلى المغارات والقبور ويسكن بها؛ لأجل ألَّا يحفر أحد المحل الذي هو به، ومع ذلك كان يظهر نفسه لدولة «داري»، واتفق في بعض الأيام أنه حصل لهذا الأمير حزن شديد لموت امرأة كان يحبها أكثر من جميع نسائه فلأجل تسكين حزنه وعده هذا الفيلسوف أن يحييها له على شرط: أن يأتيه بثلاثة أشخاص من ممالكه لم يصب أحد منهم بنكبته، لأجل أن تنقش أسماؤهم على قبر تلك الملكة المتوفاة، فبعد البحث في جميع آسيا لم يوجد شخص واحد بالصفة التي شرطها الفيلسوف ديموقريطس، وكان مقصد هذا الفيلسوف أن يفهم الملك دارا بعظم خطائه من إهمال نفسه للحزن؛ حيث إنه لم يوجد في الدنيا بأسرها إنسان خال من الغم.

وحين رجع ديموقريطس إلى مدينة ابديري مكث متباعدًا عن الناس مُختليًا عنهم، واعتراه الفقر؛ لأنه فَقَدَ جميع أمواله في تجاريه وأسفاره؛ فاضطر أخوه دمسكوس إلى عطيته له بعضًا من أمواله لأجل تعيشه، وكان عندهم في ذلك الوقت قانون يحكم على من أسرف في ماله بأنه لا يُدفن مع أبيه في قبره، فمن كون هذا الفيلسوف قد وقع منه ذلك الإسراف، وخشي حكم أعدائه عليه بذلك تلا على الناس كتابًا من تأليفاته يُسمى «دياقوسم» فمن كثرة ما وجدوه من عظم هذا الكتاب سُومح في الحال من تشديد هذا القانون، وأهدوا له

خمسمائة من النقود المسماة عندهم «طالان»، واتحفوه بصور في المحافل العمومية.

وكان ديموقريطس دائم الضحك، ومَنْشَأ كثرة ضحكه شدة تأمله في ضعف الإنسان، وافتخاره الذي يُخيل له في الدنيا أشياء كثيرة هزئية ظَنًّا منه أنه يدركها بتدبيره مع أن كل شيء في الدنيا حصوله اتفاقي ناشئ من تلاقي ذرات العالم ببعضها مصادفة كما هو مذهب هذا الفيلسوف.

وقال جوفنال الشاعر في بعض كتبه مشيرًا إلى فساد هواء مدينة ابديره، وإلى حمق وبَلَادَةِ أهلها، وحكمة وعقل هذا الفيلسوف تدلنا على أنه قد تَخَرَّج كبار الحكماء من الأماكن التي أهلها أرباب خشونة، وقال جوفنال أيضًا: إن ديموقريطس كما كان يضحك من الفرح يضحك من الترح، وكان يصف هذا الفيلسوف بأنه ثابت العقل لا يستميله عن الحق شيء تتم مراداته كأن العسد خادم له، ولما رآه أهل مدينة ابديره مستمرًّا على الضحك زعموا أن به جنونا فأرسلوا له أبقراط لمعالجته فذهب إليه أبقراط في مدينة ابديره ومعه الأدوية، وقَدَّم إليه أولًا اللبن، فلما نظر ديموقريطس قال: إن هذا اللبن من عنزة سوداء بِكْر، وكان الأمر كما قال، فتعجب أبقراط جدًّا من كونه عرف ذلك، وتفاوض معه في الحديث مدة من الزمن فعجب من حكمته الخارقة للعادة، وقال: إن أهل مدينة ابديره، هم المحتاجون للمعالجة والأدوية لا هذا الفيلسوف كما زعموا، ثم رجع أبقراط وهو في غاية العجب.

وزعم ديموقريطس كمعلمه «لوقسيس»: أن أصول الأشياء الذرات والفراغ، وأنه لا يتكون شيء من العدم، كما لا يئول موجود إلى العدم، وأن الذرات لا يعتريها فساد ولا تغير؛ لأن صلابتها التي تقاوم كل شيء حفظتها من سائر التغيرات.

وكان يزعم أن تلك الذرات تكوِّن منها ما لا يحصى من العوالم التي كل عالم منها يهلك في زمن معلوم، ويتكون من آثاره عالم آخر وهكذا.

وكان يقول: إن روح الإنسان التي هي نفس العقل على رأيه مُركَّبة من اجتماع ذرات، وكذلك الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب، وأن هذه الذرات لها حركة دَوَّارة يتولد منها جميع الموجودات، ومن حيث إن هذه الحركة الدوَّارة مستوية في جميعها، كان سببًا لقوله بوجود القضاء، وإن سائر الأشياء تتكون قهرًا وجبرًا و«ابيسقورس» سلك في مذهبه مذهب ديمقريطس، لكن لما لم يقل بالقسر والجبر -كما سيأتي توضحيه في ترجمته- لزمه أن يقول بالميل الاختياري.

وديمقريطس كان يزعم أن الروح منتشرة في أجزاء الجسم، والسبب في وجود الإحساس في سائر أجزاء الجسم أن كل ذرة منه قائم بها جزء يشاكلها من ذرات الروح، وأما ما يتعلق بالنجوم فكان يزعم أنها تتحرك في الفراغ مطلقة العنان، وأنها ليست مثبتة في أجرام كروية، وأنه ليس لها إلا حركة واحدة جهة المغرب، وأن سيرها بسبب جذب كرة الهواء الذي هو أشبه بزوبعة مُركَّبة من مادة سيالة، والأرض في مركز تلك المادة، والنجم يكون بطيء الحركة بقدر قُربِهِ من الأرض، فكلما زاد قربه منها، زاد بطء حركته؛ وذلك لأن عُنْفوان حركة المحيط تضعف؛ كلما قربنا نحو المركز، وأن النجوم التي تظهر حركتها جهة المشرق يظهر بطء سيرها جهة المغرب، وأن النجوم الثوابت هي أسرع في الحركة من غيرها؛ فلهذا قطعت أفلاكها في أربع وعشرين ساعة، وأما الشمس فإنها تتحرك بالبطء، فلهذا لم تقطع فلكها إلا في أربع وعشرين ساعة وبعض دقائق، وأما القمر فإن حركته أبطأ من جميع الكواكب فلا يقطع فلكه اليومي إلا

في أكثر من خمس وعشرين ساعة، فلا يتحرك بحركته الخاصة به حركة مستقلة جهة النجم الأقرب للشرق، بل النجوم الأشد قربًا إلى الغرب تدعه في سيرها ثم تجتمع به بعد ثلاثين يوما.

وقيل: إن تولع ديمقريطس بالدراسة تسبب عنه عماه، وأنه صار لا يمكنه أن يشتغل بشيء آخر، وسبب ذلك أنه وضع لوحًا من نحاس جهة الشمس، فكان يعكس على بصره أشعة الشمس فحر الأشعة أذهب بصره، ولما كبر سنه وصار هرمًا وقربت وفاته لمح أن أخته حصل لها غمٌّ؛ لخوفها أن يكون موته قبل عيد السنبلة فلا تحضره بسبب الحزن، فأمر ديمقريطس بأن يحضر له خبز ساخن يستنشقه لأجل أن يمد بحرارة الخبز حرارة بدنه الطبيعية، فبعد مضي ثلاثة أيام العيد أمر بإبعاد الخبز عنه فمات، وكان عمره في ذلك الوقت مائة سنة وتسعًا.

تاريخ امبيدقليس الفيلسوف

ظهر قريبًا من الأولمبياد الرابع والثمانين، وأشهر المنقول أنه من تلامذة فيثاغورس، وولد بمدينة اغريجانطه بجزيرة سيسيليا وهي صقلية، وكان من عشيرة معتبرة جدًا في تلك النواحي، وكان له معرفة كافية في علم الطب، وكان أيضًا خطيبًا عظيمًا، وكان يعرف في الأشعار والديانات، وكان يُحترم بمدينته غاية الاحترام حتى ظن أنه فوق سائر الناس والمؤلف «الوقريقه» بعد أن حكى ما يشاهد في العجائب بجزيرة سيسيليا قال: إن أهل تلك البلاد ذكروا في كتبهم: أنه لا شيء من الفخار يوازن خروج هذا الرجل الحكيم منهم، وأن أشعاره عندهم كالوحي، وهذا لا يخلو عن صحة، وذلك أنه وقع منه في حياته وقائع تعجب منها جميع الناس، حتى أنه اتهم بفن السحر.

وقال ساتيروس: إن «جورجياس لينطين» أحد تلاميذ هذا الفيلسوف أعانه مرارًا عديدة على عمليات هذا الفن، والظاهر أن هذا الفيلسوف قصد التنبيه على هذا الفن وتعلمه بالأشعار؛ حيث قال لتلميذه جورجياس: إني أريد أن أخصك دون غيرك بمعارف عظيمة وأسرار جسيمة عامة النفع لجميع أنواع المرض، وتعيد الشيخ شابًا، وتهب بها الرياح، وتسكن بها الرياح العواصف، وبها ينزل المطر، ويأتي الحر، وتحيي بها الموتى من قبورهم.

واتفق ذات يوم أن الرياح الصيفية اشتدت جدًا، حتى كادت فواكه الأرض أن تفسد وتتلف بلا شك، فجاء امبيدقليس وسلخ عدة من الحمير، وجعل جلودها قربًا ووضعها على أعالي رءوس الجبال وفوق التلال فسكنت الرياح حالًا -كما قيل- وعادت الأشياء كما كانت مع السهولة.

وكان امبيدقليس متعلقًا بمذهب معلمه فيثاغورس مولعًا به، وسبق أن أصحاب فيثاغورس كانوا يكرهون القربان من ذوات الدم، فذلك حين أراد امبيدقليس أن يقرب قربانًا للآلهة صنع بقرة من الدقيق والعسل وقربها لهم، وكانت مدينة اغريجانطه في زمنه مشهورة كبيرة جدًّا، وكان عدد أهلها يبلغ ثمانمائة ألف، وكانوا يسمونها المدينة العظمى، وكانت في أعلى الدرجات في الزخارف واللذات، وكان امبيدقليس حين يصف أهل تلك المدينة يقول: إنهم يستوفون اللذات فلا يبقوا منها لغد، كأنهم تحققوا موتهم في اليوم الآتي بعد ذلك، وأنهم يؤسسون قصورهم العظيمة، ويبالغون في إتقانها كأنهم جزموا بالخلود وعدم الموت، وكان يبعد نفسه عن التقلد بالمصالح العامة، بل اتفق أنهم طلبوه مرارًا عديدة للسلطنة على مملكة اغريجانطه فأبى ذلك، وكان دائمًا يؤثر أن يعيش كآحاد الناس على فخار الدنيا وجيرة الحكومات، إنما كان شديد الرغبة في الحرية، وأن تكون الأحكام برأي الجمهورية.

ودعاه بعض الناس إلى وليمة فأجابه، وذهب إليه فتأخروا بإتيان المائدة في وقتها، ولم يطلب أحد من الجالسين حضورها، فحصل له غيظ شديد من ذلك، وأراد حضور الطعام حالًا، فقال له رب المنزل: اصبر بُرهة من الزمن يسيرة، فإني منتظر الوزير الأعظم رئيس المشورة، فعند حضور هذا العظيم قام رب المنزل والجالسون تعظيمًا له، وأجلسوه في أرفع المواضع العظيمة، واختاره أهل ذلك المجلس أن يكون سلطان تلك الوليمة، وكان لا يمكن هذا الوزير أن يمنع نفسه عن أموره الصعبة الشديدة، فأمر سائر من في الوليمة بشرب النبيذ صِرفًا غير ممزوج بالماء، وأن من امتنع من الشرب يصب على أنفه كأس من النبيذ.

والتزم اميدقليس في هذه الساعة الصمت والسكوت، ثم في الغد جمع جميع الناس وشكا من صاحب الوليمة، ومن ذلك الوزير الذي كان تكبر في الوليمة، وعرفهم بأن ما سلك في تلك الوليمة مبدأ الظلم والجور، وأن مثل ذلك فيه مخالفة للقوانين ولحرية الجمهورية، فبعد إقامة الدعوى حَكَمَ عليهما بالقتل فقتلا حالًا، وكان نافذ القول؛ بحيث إنه فسخ مشورة عندهم تسمى مشورة الألوف، وأمر أن القضاة يلزم تغييرهم في كل ثلاث سنوات؛ لأجل أن يدور دور الحكم على الأهالي ويتقلدوا مناصب الدولة، وكان إذ ذاك حكيم يقال له: اوقرون فطلب من أهل المشورة أن يعطوا له مكانًا يشيد فيه مشهدًا مزارًا لأبيه، الذي كان فائقًا عن غيره في صنعته، وكان أعظم أطباء أهل زمانه، فقام اميدقليس في وسط المحفل العام ومنع الأهالي من أن يسلموا له فيما طلبه؛ لأن هذا -كما زعم هو- ضد العدل والمساواة التي أراد استعمالها في جمهوريتهم حتى لا يتمكن أحد من العلو والرفعة على الآخر، وهذا هو على رأيه أساس الحرية الجمهورية.

ثم إنه حصل طاعون عظيم مكث مدة من الزمن في مدينة سيليونتي، حتى خربها وحصل للناس انزعاج شديد، حتى إن النساء كن يضعن حملهن قبل مضي مدة الحمل، فعرف اميدقليس سبب هذا المرض، وهو أنه ناشئ من عفونة مياه النهر الذي يروي تلك المدينة ويعمها، فاجتهد ورد مجاري ذلك النهر التي كانت تصب في بحيرات تلك المدينة وصرف سائر ما احتيج له في ذلك من ماله، وإذا بالطاعون قد ذهب من عندهم، فأخذ أهل تلك المدينة في الألعاب والحظوظ، وصنعوا له ولائم عظيمة، واشتهر أمر اميدقليس في تلك المدينة وشاع ذكره، حتى أن جميع الناس اجتمعوا وقربوا له قُربانًا كالآلهة. وأثنوا عليه وبالغوا في مدحه لرأفته بهم وشفقته عليهم، ووقع ذلك من نفسه

موقعًا كبيرًا.

وكان امبيدقليس يزعم أن الأصل الأول لجميع الأشياء هو العناصر الأربعة التي هي: التراب، والماء، والهواء، والنار، وكان يقول: إن بين تلك العناصر وبعضها علاقة التآلف تارة، والتنافر أخرى، وأنها دائمًا تتقلب وتتغير، وأنها لا تفنى أبدًا، وأن ترتيبها بتلك الحالة قديم باق، وكان يزعم أن الشمس قطعة نار كبيرة، وأن القمر ممهد مبسوط وله جرم كبير بشكل دائر مسطوح، وأن السماء مصنوعة من مادة تشبه البلور، وكان مذهبه تناسخ الأرواح؛ فكان يزعم أنها تنتقل في الأجسام. وقال: إن في حفظي أني كنت بنتًا صغيرة، ثم سمكة، ثم طائرًا، بل أتذكر أني كنت نباتًا.

وقد اختلفوا في موت هذا الفيلسوف، والأشهر: أنه حيث كان متولعًا ومتشوقًا؛ لكونهم يوقرونه، وأن يرى كثيرًا من الناس يعبدونه، أراد أن يقوي تلك الحالة إلى آخر عمره، ولذلك حين أحس بالكبر ورأى نفسه قد حصل له الهرم، قصد أن يتمم عمره ببعض أشياء خارقة للعادة تلائم ما جنح إليه، فكان بمدينته امرأة تسمى ابلانطه أعيت جميع الحكماء والأطباء في مرضها حتى جزموا بموتها، وأشرفت على الموت فعالجها هذا الفيلسوف حتى شفيت، فقربت له قربانًا عظيمًا، وصنع وليمة ودعا إليها من الناس ما يزيد على ثمانين؛ لأجل أن يظهر لهم احتجابه عن الأبصار وغيبته، فلما فرغت الضيافة ذهب بعض الناس للاستراحة عند بعض الأشجار وغيرها، فعند ذلك صعد امبيدقليس سرًا على بركان جبل أثينا، وألقى نفسه في وسط النيران، كما نقل ذلك «هوراس» الشاعر في عاقبة هذا الفيلسوف.

وكان عنده غاية الجد، في كلامه وكان له ذؤابة طويلة، وله تاج من شجر

الغار على رأسه عظيم منقوش، وما كان يمر في طريق إلا ومعه جملة من الرجال، وكل من رآه كان يحترمه احترامًا كليًّا وكان كل منهم يسعى في أن يسعد بمقابلته في طريق من الطرق، وكان يلبس في رجليه نعال الحديد ولما ألقى بنفسه في النار فمن شدة حرِّها قذفت فردة من نعاله خارج النار فرآها الناس بعد مدة وظهر لهم ما كان دبَّره في نفسه من الغش؛ فحينئذٍ حيث لم يجزم رأيه أراد أن ينظم في سلك الآلهة فانتظم في سلك أهل البهتان، ولكن مع ذلك كان له بعض خصال ممدوحة كمحبة وطنه وعدم طمعه.

ولما مات والده ميطون الذي كان بمدينة اغريجانطه أراد جماعة التغلب على تلك المملكة فشرع امبيدقليس في جمع الناس سريعًا، ولكن تلك الفتنة ولأجل أن يظهر حب التساوي قسم جميع ما كان يملكه بينه وبين من كان أقل منه مالًا. وظهر هذا الفيلسوف قريبًا من الأولمبياد الرابع والثمانين ومات هرمًا جدًّا ولا يعرف مقدار عمره بالتحقيق، ولما مات شيَّد الاغريجانطيون له تمثالًا ليبقى دائم الذكر.

تاريخ سقراط الفيلسوف

وُلِدَ هذا الفيلسوف في السنة الرابعة من الأولمبياد السابع والسبعين، وتوفي في السنة الأولى من الأولمبياد الخامس والتسعين وعاش سبعين سنة. واتفق الأقدمون على عدّه من عظماء فلاسفة الجاهلية وأنه ذو فضائل وخصال حميدة، وكان من أهالي أثينا من قرية صغيرة تسمى «الوبيس» واسم أبيه سوفروزين كان نقاش أحجار، واسم أمه فراميت وكانت قابلة تعالج النفساء، تعلّم أولًا علم الفلسفة على انكسغوراس وبعده على ارخيلبوس الطبائعي، ولكن لما رأى أنَّ النظر في تلك الأشياء الطبيعية لا يجدي نفعًا ولا يجعل للفلسفي خصالًا حميدة تعلق بقراءة علوم الآداب والأخلاق حتى قيل: إنه واضع الحكمة العلمية الأدبية عند جميع اليونان، كما نبَّه عليه «قيقرون» في المقالة الثالثة من الأسئلة «الطوصقولانية» وقد تكلم عليه على وجه صريح مع غاية الإطناب في المقالة الأولى، ونص عبارته يظهر لي كما هو رأي جميع الناس أن سقراط هو أول إنسان استخرج الفلسفة من حيز الخفاء، وإن تشبث غيره بذلك لكنَّ هذا الفيلسوف وصل المقصد وأظهر منها ما ينبغي سلوكه للإنسان بحيث إنه اشتغل بالبحث عن الخصال الحميدة والذميمة وعن الخير والشر وأعرض عما عدا ذلك قائلًا: أن جميع ما يتعلق بالنجوم والكواكب بعيد عن إدراكنا ومعرفتنا ولو فرض أن إدراكنا قوي وتوصلنا إلى معرفة ذلك فلا جدوى لها في تحسين الأخلاق فاقتصر من الفلسفة على البحث المتعلق بالآداب واللائق لأطوار الإنسان وما يليق له مدة حياته.

هذا التفلسف الجديد الذي اخترعه هذا الحكيم صار مقبولًا جدًّا لما أن مخترعه عمل بما علم فاقتدى به وأحسن سلوكه على قدر طاقته فأدى حقوق

المعاملة البشرية من رعاية مصلحة الوطن صلحًا وحربًا. وهو من بين الفلاسفة المشهورين الذي لم يذهب لقتال ولا حرب كما نبه على ذلك «لوقيانوس» في كتابه المسمى «مخاطبة المتطفلين» إلا مرتين خاب أمل حزبه فيهما وخاطر هو فيهما بنفسه وأظهر الشجاعة جدًّا حتى أنه في إحداهما نجى من الهلاك «زنفون» حين سقط عن فرسه وهو مولي دبره.

فلولا أن سقراط حمله على ظهره وأبعده عن المصادمة وأتى له بحصانه الذي كان انفلت فركبه لهلك بأخذ الأعداء له، ذكر هذه الواقعة «استرابون» وحصل أنه في المرة الثانية حين انهزم الأثينيون وانزعجوا بالكلية وولوا الأدبار، كان هو آخر من ولى دبره وأظهر الجلادة حتى أن الأعداء لما تبعوا المنهزمين من جماعته وجدوه متهيئًا للإقدام عليهم فلم يتجاسروا على تبعية الأعداء.

ذكر هذه الواقعة المؤرخ «اثينه» وبعد هاتين الواقعتين لم يخرج سقراط من مدينة أثينا أصلا، وسلك طريقًا مغايرًا لما سلكه مَن مضى قبله من جميع الفلاسفة من إذهابهم أغلب أعمارهم في السفر لاكتساب العلوم والمعارف بمحاورتهم لعلماء البلدان، ولكن المبحث الفلسفي الذي تمسك به سقراط يرغب من أطلع عليه في أنه يشتغل بمعرفة أحوال نفسه أولى من أن يتعب نفسه وعقله بمعرفة ما لا يعني من أخلاق الغير وعوائده فاستصوب اجتناب مشقة الأسفار التي لا يمكنه أن يتعلم فيها أزيد مما يتعلمه في أثينا مما يتعلق بإصلاح بلاده وترتيبها الذي ينبغي تقديمه على النظر في عوائد الغرباء، ولما كانت الفلسفة الأدبية علمًا أغلبه عمليات لا عبارات رتَّب قانونًا كليًا، وهو أنه ينبغي للعاقل أن يسلك ما يأذن به العقل السليم والطبع المستقيم، ولذلك صار من أرباب مشورة المدينة وتعاهد مع الأهالي أن لا يبدي رأيه إلا بما تقضيه القوانين.

امتنع امتناعًا كليًا عن أن يقر على الحكم المخالف للقوانين، حتى أنه بموجب القوانين حكم على تسعة من رؤساء العساكر بالموت، فقتلوا جميعًا ولم يمنعه من ذلك كونه شق على الأهالي ولا تهديد الأعيان له عليه، لما أنه لاحظ أن صاحب الفضائل والشرف لا يليق له أن ينقض عهده ليعجب الناس.

ولم يعهد له وظيفة إلا هذه المرة غير أنه -ولو كان من الآحاد- كان معتبرًا في أثينا بسبب حسن سلوكه وفضائله، بحيث يزيد احترامه عن احترام أرباب المشورة، وأما أحوال نفسه وبيته فكان له بها غاية الاعتناء ويذم من يهمل ذلك، فكان نظيفًا في الملابس والبدن متهيئًا بهيئة الحياء والاحتشام، مع التوسط الذي لم يبلغ درجة المترفهين.

ولم ينزل إلى مرتبة المتقشفين، ومع كونه ليس من أرباب الثروة كان خليًا من الطمع، فكان لا يأخذ شيئًا من تلامذته، وكان يلوم غيره من الفلاسفة ممن يبيع التعليم بالدنيا ويُسَعِّر الدروس بالأثمان عظيمة أو حقيرة، على حسب شهرتهم وكان كثيرًا ما يقول كما نقله «زنفون»: عجبًا لمن صناعته تعليم الأخلاق، كيف يخطر له أن يتخذ ذلك مغنمًا؟ أفلا يكفيه على اعتنائه أن ينسب إليه أنه أصلح حال إنسان وأنه اغتنم من تلامذته محبًا له، أفلا يكون هذا من أعظم المنافع وأدوم الفوائد؟!

وكان انتيفون السوفسطائي من كراهته لبعض أخلاق سقراط أراد تحريمها، فقال لسقراط ذات يوم -في شأن عدم الحرص- الحق معك في عدم أخذك شيئًا من تلامذتك، وهذا دليل صحيح على أنك من خيار الناس، وذلك لأنك لو أردت بيع بيتك أو بعض ثيابك أو متاعك فإنك لا تبيعه إلا بكمال قيمته، فضلًا عن كونك تعطيه مجانًا بلا مقابل، ولما علمت في نفسك أنك لا تعرف شيئًا فلا

يمكنك تعليم غيرك عرفت أن الأولى لك أن لا تأخذ إلا على ما يمكنك تعليمه، ويكون أخذك حينئذ أكثر دلالة على فضيلتك من عدم الأخذ رأسًا.

ثم إن سقراط لم يعجز عن إفحام هذا السوفسطائي؛ حيث بين له أن هناك أشياء يمكن استعمالها على وجه لائق تارة، وغير لائق أخرى، وأن هناك فرق بين الإنسان الذي يهدي من ثمر أشجاره لأحبائه، وبين من يبيعه لهم، وبالجملة فلا يتوهم أن سقراط كان له محل معين للتعليم كغيره من الفلاسفة الذين كانوا يعطون الدروس في محالهم المعينة في أوقاتها المعلومة عندهم.

وكان من دأبه في التعليم أن يعلم بالمخاطبات والمحادثات في أي زمان، وأي مكان، وأي إنسان، وكان رجل يقال له: ماليطوس اتهم سقراط بعدة ذنوب كبائر؛ منها: أنه لم يعتبر الآلهة المعبودة عند أهالي أثينا، بل أحدث له معبودًا، والواقع أن هذه التهمة أكذب التهم، وذلك لأن سقراط كان يأمر كل من يسأله في شأن ذلك اتباع ما ينطق به كهانة هيكل الشمس ودلفيس اللذين هما معبودا الأثينين، وكان جواب الكهانة أنه ينبغي لكل إنسان أن يسلك في عبادته مسالك أهل بلده، ولذلك كانت طريقته في القربان كطريقتهم حيث يقرب الأشياء اليسيرة من ملكه قدر وسعه، ويزعم أن ذلك مقبول أكثر من القربانات الثمينة الجسيمة التي يقربها الأغنياء؛ لأن ذلك وسعه، ولم يمكنه أن يعتقد أن عبادة الأغنياء مقبولة والفقراء منبوذة، بل اعتقاده أن المرضي عند المعبود ما يصدر من أهل الصلاح.

وبالجملة فلا شيء أوفق للدين وأسهل من الصلوات والأدعية للمعبود، ولكن ينبغي للداعي أن لا يسأل مولاه شيئًا معينًا، بل يفوض له بأن يطلب منه ما يكون صلاحًا لنفسه، وذلك لأنه لو طلب منه مالًا أو جاهًا لكان كمن يطلب

منه أن يقيمه في حرابة أو ميدان لعب، مع أنه لا يدري عاقبة ذلك، وبدلًا من كونه يأمر المتدين بعبادة بتركها، كان يأمر من لا دين له بالتدين، فقد بين «زنفون» الطريقة التي سلكها سقراط مع ارستدوموس، الذي كان لا ديانة له ويسخر بالعبادة، فوصَّله سقراط إلى محبته الديانة والعبادة، فإذا قرأ القارئ في كتاب زنفون ونظر ما قاله سقراط في القضاء والقدر يتعجب من معرفة فيلسوف في الجاهلية عقائد توحيدية مستقيمة.

وكان سقراط فقيرًا ومع ذلك كان مسرورًا من فاقته؛ لزعمه أن فقره باختياره وأنه لو أراد الغنى لقبل الهدايا التي كانت تأتيه من أحبائه وتلامذته، فإنه كان لا يقبلها منهم ويردها رغمًا عن أنف زوجته التي كانت لا تذوق لذة فلسفته، وكان سالكًا في أمر معيشته مسلك الضيق والصعوبة، حتى اتفق ذات يوم أن السوفسطائي الذي تقدم ذكره تجارى على سقراط وغيره بأنه في غاية الفقر والذل والمسكنة، وأن حالتك هذه لا يقنع بها أحد ولو رقيقًا، وقال له أيضًا: إن قوتك أخشن الأقوات، وملبسك ملبس المساكين، بحيث إنه قميص واحد للشتاء والصيف، وأنك دائمًا حافي الرجلين لا نعل عندك، فقال له سقراط: إنك قد غلطت في هذا واخطأت؛ حيث ظننت أن السعادة إنما هي بالغنى واللذات، والواقع أني ولو ظهر لك فقري في هذه الحالة فإني أسعد منك؛ لأني أرى الغنى المطلق خاصًا بالمعبود، وكلما اكتفى الإنسان بما عنده ولم ينظر لما عند الناس قرب من أوصاف الألوهية.

ولم يتفق أن أحداً كان أصفى باطنًا من سقراط؛ لأن أحواله كان لا ينشأ عنها إلا التعجب لا سيما في مثل مدينة أثينا التي كان مثل هذا السلوك فيها أمرًا عجيبًا؛ لأن من لم يمكنه بهذه المدينة أن يتأسّى به كان يعترف له بحسن السير، وأنه على

حق، فحسن سلوك سقراط أسرع إليه اعتبر الناس له وانجذبت إليه التلامذة حتى كان جميعهم يؤثر استماعه على الاشتغالات بالحظوظ والشهوات، وقد عظُم جذب قلوب الناس له حيث كان أكثر تشديداته على نفسه قام مقامها السهولة واللين مع التلامذة. وكان أول ما يبدأ بتعليمه لهم الديانات وكان يحملهم على العفة والتباعد عن الملاذ، ويقول لهم: إن الانهماك على اللذات يضيع على الإنسان أشرف صفات نفسه وهو الحرية، وكانت طريقته في تعليمهم الآداب جاذبة لهم؛ لأنه كان لا يتحرى وقتًا ولا استحضارًا ولا مقامًا مخصوصًا، بل بحسب ما ينجلي لقريحته ويخطر بباله من المصادفات، وكان يفتتح التعليم بكيفية سائل، فإذا أجيب تكلم وباحث وناقض وبرهن حتى يكشف لهم الحقيقة.

وكان يمضي من يومه جزء كبير في تلك الأدبيات؛ ولذا لم يجتمع به أحد إلا وأخذ فائدة جليلة هكذا ذكر زنفون، ومع أن سقراط لم يعقب شيئًا من التأليف ليشهر فضله فيكفيه شاهدًا على الفضائل كتب أفلاطون وزنفون التي نقلا فيها الآداب والمعارف فإنهما توافقت نقولهما لا سيما فيما يتعلق بالمناظرات مما يدل على استيعابه مباحث المقامات بترتيب حسن والبرهنة على كل مقام بما يليق له، وإن لم تكن ألفاظ تلك الكتب عين ألفاظ سقراط، خصوصًا ما ينقله أفلاطون كما شهد به سقراط نفسه، لما قرئت عليه مخاطباته التي جمعها أفلاطون المسماة «لوسيس المحبة» أما زنفون فكان في نقل العبارات أشد تحريًا من أفلاطون، فكان ينقل الأدبيات التي تقع بين سقراط وغيره كما يسمعها.

ومن العجائب أن سقراط -الذي دائمًا يحث الناس على العبادة ويعظ الشبان ويأمرهم بالتباعد عن اللذات والشهوات- يحكم عليه بالموت بدعوى أنه كافر

بآلهة أثينا مفسد لأهاليه لكن لا عجب حيث كان الوقت وقت اختلال في الدولة وكثرة الظلمة الحاكمين بها فكانوا ثلاثين ظالمًا، ولنذكر لك سبب ذلك فنقول.

كان أعظم هؤلاء الظلمة تلميذ سقراط المسمى «اقرسياس» كما كان «القيباده» من تلامذته فزهدا في الفلسفة لما بها من المواعظ غير المناسبة لطمعهما وانهماكهما على اللذات فتركاه، فأما اقرسياس فصار أكبر أعدائه بسبب تشديده عليه في اللوم على سوء السير والظلم، فلما صار من جملة الثلاثين لم يتمن إلا إعدام سقراط، خصوصًا وسقراط كان إذا بلغه ظلمهم وعتوهم تكلم فيهم وشنع عليهم مع السب ولا يخاف سطوتهم، ولما رآهم أكثروا القتل في الأهالي والأعيان لم يمنع نفسه من أن قال في شأنهم في محفل الناس: إذا كان راعي البقر تنقص عدية بقره كل يوم ويغادرها نحيفة هزيلة، فمن العجيب عدم اعترافه بأنه لا يصلح لرعايتها، ففهم اقرسياس وخارقليس -اللذان كانا رئيسي أرباب الظلم- أن سقراط يعنيهما بضرب هذا المثل فرتبوا قانونًا ينهى عن تعلم المحاورات بمدينة أثينا، ومع كون سقراط لم يتخذ التعليم حرفة فهم أن المنع من أجله وأن غرضهم منعه أن يتكلم مع من عادته الاجتماع به بمثل هذه الأمثال الأدبية. ..

فذهب بنفسه لاثنين ممن رتبوا هذا القانون ليسألهما عن بيان ذلك لكنه حيرهم بدقة أسئلته فلما بهتا وضاقا منه قالا له صراحة: إنك منهي عن مخاطبة الشبان أبدًا فقال لهما: فإلى أي زمن تمتد الشبوبية؟ فقالا له: إلى ثلاثين سنة، فقال لهما: إن سألني سائل عن مكانكما أجيبه أو لا؟ فقال خارقليس: نعم أجبه، وقال اقرسياس: إنما أنت منهي عن لمات الناس الذين كلت مسامعهم من كلامك،

فقال سقراط: إن سألني من تبعني ما هي الشفقة والإنصاف، فهل أجيبه؟ فأجابه خارقليس بقوله: نعم ورعي البقر أيضًا، معرضًا له بالمثل السابق، وقال: احذر أن تكون سببًا في نقص البقر، ففهم سقراط أنه لا ينبغي الاتساع معهم في الكلام بأزيد من ذلك، وأن مثل البقر أغضبهم منه غاية الغضب، ولما رأى هؤلاء الظلمة ما اشتهر به سقراط عند الناس من الفضائل أحبوا أن يمهدوا للانتقام منه بتبغيض الأهالي فيه أولًا؛ فأمروا رجلًا يقال له «ارطوفان» بذلك فاخترع لهم حكاية طويلة سماها بالسحاب، وهي كناية عن أمثال في تقبيح من يظهر خلاف باطنه، فلما اجتمعت الأهالي في لعب عمومي صار ينزل هذه الأمثال القبيحة على سقراط بسماع الأهالي، ومن يسمع يخل فانتدب عند ذلك ميليطوس وعرض نفسه وقال: إن ذنب سقراط كبير محتو على ذنوب؛ وذلك لأنه لا يعتقد آلهة أثينا، واخترع آلهة غرباء ولم يكفه ذلك بل صار يعلم الشبان على احتقار أهاليهم وحكامهم فيستحق القتل.

ومع تعصب هؤلاء الظلمة عليه خصوصًا اقرسياس وخارقليس اللذين كانا من تلامذته لو انقاد سقراط واحتج عن نفسه في ما اتهموه فيه لعفوا عنه، لكن منعه كبره ولم يرض بدفع الغرامة متعللًا بأن دفعها نوع اعتراف بالذنب، ولما طلبه القضاة ليقضي على نفسه قال بهيئة الكبر: إن حقي أن يكون مصرفي مدة حياتي من خزينة المدينة، فهذا كله أوجب الجميع أن يقضوا بموته.

كان فيلسوف يسمى لوسياس ألف أمثالًا ليستعملها، فقرأها بين أيدي القضاة، فلما قرأها سقراط قال: إنها عظيمة، وردها لصاحبها قائلًا: إنها لا تصلح لي، فقال لوسياس: كيف لا تصلح لك وقد أعجبتك؟ فقال له: يا صاحبي يوجد في الثياب والنعال ما هو عظيم لكنه لا يصلح لكل أحد، ومدح سقراط تلك

الأمثال كما في محله غير أن لوسياس لما كان سالكًا فيها مسلكًا لا يصلح لعدل وطهارة نفس سقراط قال ما تقدم.

ثم إنه لما حكم عليه بالموت وضع في السجن فبعد مدة أيام أعطوه نباتًا سميًّا فابتعله ومات منه، وهذه كانت طريقتهم في كل من حكموا بموته.

ذكر ديوجينس لايرقه أن سقراط تزوج في عمره بامرأتين لم يعرف منهما إلا حال «زنتيثه» التي أعقب منها ولده «طنبورقليس» وكانت مشهورة بسوء الخلق وكان يتحملها كثيرًا، حتى إنه لما سئل عن سبب تزوجها، قال: إني أردت ذلك لأجل أن أتحمل أخلاق الناس كلهم متى تجلدت لتحمل هذه المرأة، وكان يدعي أن معه قرينًا من الجن يهديه لبعض الأمور، حكى ذلك أفلاطون وغيره من قدماء المؤلفين، بل كثير منهم كتب في هذا الشأن بخصوصه، وتوفي في السنة الأولى من الأولمبياد الخامس والتسعين وعمره ثمانية وستون سنة.

تاريخ أفلاطون الفيلسوف

وُلِدَ هذا الفيلسوف في السنة الأولى من الأولمبياد الثامن والثمانين، وتوفي في أول الأولمبياد المتمم مائة وثمانية، وعمره إحدى وثمانون سنة.

كان لوفور عمله وشهرة مذهبه يلقب الإلهي، وكان من أشهر عشيرة في أثينا التي هي ميلاده، وكان ينسب من جهة أبيه المسمى اريسطون إلى قدروس ومن جهة أمه بيريقتيون إلى سولون، وكان يسمى أولًا ارسطوقليس، ولما كان ذا قامة طويلة ضخمًا عظيم الجبهة عريض الأكتاف سمي باسم أفلاطون واشتهر به لا غير.

حكي أنه في صغره يقطر النحل العسل على شفتيه فتفؤل له من ذلك بالفصاحة العجيبة، وكان كذلك حيث امتاز بها في اليونان، واجتهد في الشعر من صباه وعمل أبياتًا محزنة وقصيدتين في التوجع من صروف الدهر، ثم لما أخذ في تعلم الفلسفة أحرق ذلك بالنار، وسلمه أبوه لسقراط ليعلمه وعمره إذ ذاك عشرون سنة، وكان سقراط رأى في الليلة التي حضر إليه صبيحتها كأنه أمسك بطير صغير وضمه لصدره، ثم ظهر ريشه ونشر جناحيه بقوة وصعد الهواء بسرعة وغَنَّى بصوت حسن، واستمر على ذلك، فلما أتاه صبيحتها أفلاطون فسر تلك الرؤيا به وأنه ستكون له شهرة عظيمة، فاستمر أفلاطون متعلقًا بسقراط مع الصداقة، فلما مات اجتمع برجل يسمى أقراطولس، كان يتبع طرق هيرقليطس واجتمع بحكيم آخر يسمى هرموجينيس كان يتبع برمنيدس، فلما بلغ من العمر ثماني وعشرين سنة ذهب إلى مدينة ميغار للتلقي مع بقية تلامذة سقراط عن إقليدس، ثم ذهب منها لمدينة القيروان فتعلم فيها العلوم الهندسية على ثيودورس، ثم توجه إلى مملكة إيطاليا؛ لأجل أن يسمع

الفيثاغورسيين المشهورين الذين هم فيلوليوس وارخيتاس الطارنتي واوريتوس، فلم يقنع بما تعلمه من هؤلاء المعلمين العظام بل توجه لمصر للتلقي عن حكمائها وقسسها، وكان عازمًا على السفر إلى بلاد الهند للتعلم عن المجوس لولا المحاربة في بلاد آسيا.

ثم لما تمم أسفاره رجع إلى أثينا واستوطن بقرية تسمى اكلميه، وكان هواؤها غير معتدل، وإنما اختار استيطانها لأجل هضم سمنه وصحة طبيعته فنفعه ذلك، فمرض أولًا بحمى الربع التي مكثت معه سنة ونصفا، ثم لما سلك الحمية والقناعة ذهبت عنه، وعاد أكثر مما كان في الصحة، وحضر القتال ثلاث مرات؛ الأولى: بمملكة تناغرا، والثانية: بمدينة قورنته، والثالثة: بجزيرة ديلوس، وانتصر الحزب الذي كان هو معهم في المرة الأخيرة، وسافر أيضًا ثلاث مرات إلى مملكة سيسليا.

«المرة الأولى»: كانت للفرجة ومشاهدة نيران جبال اتنا، وكان سنه إذ ذاك أربعين سنة، فذهب إلى الملك دينيس الهرم الظالم الذي كان يتمنى كثيرًا رؤية أفلاطون، فأدته جراءته إلى التكلم مع هذا الظالم في أمور سلطته وخاطر بنفسه ولولا شفاعة «ديون»، و«ارسطومين» عند الملك لقتله، ولكنه أعطاه لبوليدس الذي كان بجانبه رسولًا من ملك لقدمونيا، وأمره أن يتصرف فيه كالرقيق، فذهب به إلى مدينة «جينا» وباعه فيها، وكان أهل تلك المدينة قد شددوا في أن من مر من الأثينيين بجزيرتهم يقتلونه، فأحب قرمندل إجراء هذا القانون عليه وقتله فأسعف هذا الحكيم بعض كبارهم، وقال؛ إن هذا لا يجري على خاصة الفلاسفة، فاكتفوا ببيعه فمن حسن حظه اشتراه انقرسيس القيرواني كان بتلك المدينة إذ ذاك فدفع فيه من المعاملة التي تسمى مينة عشرين، وبعثه لأصحابه

بأثينا، فأما بوليدس القدموني فهزمه قبرياس ولم يرجع عنه حتى هلك غريقًا؛ وسبب ذلك بيعه لأفلاطون الفيلسوف كما أخبر بذلك بعض الجان أفلاطون وبلغ دينيس الظالم أن أفلاطون رجع لأثينا فخاف أن ينتقم منه بحثّ الناس على مقاتلته، فكاتبه بطلب الصفح والعفو عن زلاته فأجابه أفلاطون بأنه لا يكن عندك شاغل من ذلك لحصول الصفح وأيضًا فاشتغالي بعلم الفلسفة حفظ فكرتي عن تخيل مثل ذلك ثم إن بعض الأعداء عير أفلاطون بأن دينيس الملك أهمله وطرحه من فكره، فقال أفلاطون: إن دينيس لم يترك أفلاطون بل أفلاطون هو الذي ترك الملك وأهمله.

«المرة الثانية»: ذهب إلى سيسيليا في مدة الملك دينيس الأصغر بقصد وعظه وأمره بإعطاء الحرية لأهل بلاده، أو أن يسير فيهم في الحكم على منهج حسن فأقام بها أربعة أشهر فلما وجد أن الملك لم تنفعه الموعظة بل نفى من مملكته «ديون» واستمر في سياسته على طريقة أبيه الظالمة؛ رجع إلى أثينا رغمًا عن هذا الملك مع احترامه له غاية الاحترام وبذله الجهد في إقامته عنده.

«المرة الثالثة»: ذهب لتلك المملكة يترجى الملك في إعادة «ديون» المنفي، وأن يتجرد عن ظلم السلطنة، فوعده الوفاء بذلك، ثم لم يوفه فلامه أفلاطون بخلف الوعد وأغاظه غيظًا شديدًا حتى أنه خاطر بنفسه للهلاك فلولا أن ارخيتاس الطارنتي بعث رسوله للملك بسفينة يحضر فيها أفلاطون وترجى الملك في الصفح لأهلكه ولما حضر هذا الرسول فمن شدة الاعتناء بشفاعة ارخيتاس؛ أطلق أفلاطون وأنزل له في السفينة أهبة السفر ورجع أفلاطون إلى أثينا عازمًا على عدم الخروج منها فقابله أهلها بالاحترام الكلي وسألوه أن يكون من أهل حكوماتهم فامتنع ورأى أن ذلك مع تغير أخلاقهم وعوائدهم لا ثمرة

فيه، ومع ذلك فكان مشهورًا محبوبًا في سائر اليونان حتى في المواسم الألمبيقية يرونه كأنه إله نزل من السماء. ومع ما كان لليونان على اختلاف أممهم من شدة الرغبة في هذه المواسم حتى اشتهروا بها في كل جهة كانوا متى حضر هذا الفيلسوف يتركون سائر ألعاب الموسم ويعمدون للتأنس بمخالطته ونظره.

وعاش أعزب مدة حياته ملازمًا للعفة والقناعة والتحفظ من الشهوات حتى من الصبي، وكان نادر الضحك وكان أميرًا على نفسه في هواها وكان لا يغضب أبدًا حتى أن شابًا من ملازميه ذهب إلى أهله ذات يوم فوجد أباه غضبًا فتعجب غاية العجب ولم يستطع منع نفسه من الضحك؛ لكونه لم ير ذلك مدة ملازمته لأفلاطون، ولم تشمئز نفس أفلاطون إلا مرة واحدة على عبده عندما أذنب ذنبًا جسيمًا، ومع ذلك يعاقبه بنفسه قائلًا: لا يليق لي مع يسير من الغضب استفياء العقوبة، بل أمر واحدًا من عبيده فعاقبه.

وأفلاطون كان سوداوي الطبع كثير الفكر والتأمل، ومع ذلك كما ذكره ارسطو كان لينًا رفيقًا بشوشًا، بل بما يمازح مزحًا لطيفًا، وكان يشير أحيانا على «ديون» و«زنقراطس» اللذين كانا في أخلاقهما صعوبة بالتخلق بالبشاشة كي يقبلا عند الناس وتكون لهما أخلاق حميدة.

كانت تلامذته كثيرة من مشاهيرهم اسبوسيبس ابن أخته ويوتونه زوجة اوريمندون، ومنهم أيضًا زنقراطس القلسدوني وأرسطو الشهير ويقال: إن منهم أيضًا ثيوقراطس، وكذلك ديموثينس كان ينتمي إليه، ويدل على أنه تلميذه أنه ذهب إلى محل ليحتمي من بطش «انطباطر» به فبعث له انطباطر رجلًا اسمه ارخياس؛ ليخرجه من ذلك المحل وأمره أن لا يقتله، فذهب ارخياس إليه وصار يتحيل عليه ويقول: له اخرج من هذا المحل ولا ضرر

عليك فلم يقبل منه، وقال: معاذ الله بعدما سمعت من زنقراطس وأفلاطون أن الأرواح باقية لا تفنى فهل مع ذلك يمكنني أن أؤثر حياة الذل على موت العز؟

وكان من جملة تلامذته «لاثينيا» و«اكسيوسه» اللتان كانتا تلبسان زيّ الرجال؛ للياقته بالتعلم الذي شرعنا فيه، وكان أفلاطون يعتني بعلم الهندسة اعتناء تامًّا ويقول: إنه لازم لتعلم الفلسفة حتى كتب على باب المدرسة لا يدخلها إلا الماهر في علم الهندسة.

جميع كتب أفلاطون ما عدا المراسلات تلاشت وذهبت بالكلية ولم يبق من المراسلات إلا اثنا عشر كانت على منهج المخاطبات ولا مانع من قسمتها ثلاثة أنواع: الأول: في رد شبه السوفسطائية، الثاني: في كيفية تعليم الشبان، الثالث: فيما يليق بمن بلغ سن الرجولية، ويمكن أن تقسم بملحظ آخر إلى أقسام أخر:

القسم الأول: المخاطبات التي حكاها عن نفسه كما في مقالاته القانونية وغيرها مما دوّنه على أنه مذهب له بما فيه من الاجتهادات.

القسم الثاني: ما حكاه على لسان غيره من الفلاسفة مثل سقراط و«ثينا» و«بوميديثيس» و«زنون» فإن حكايته له تشبه ترجيحه مع عدم الجزم به ومع كون ما قاله أفلاطون في مخاطباته عن لسان سقراط صحيحًا جاريًا على نسق سقراط في تأليفاته وجدله، فلا تظن أنه عين مذهب سقراط حيث إن سقراط نفسه لما قرأ عليه مخاطبة أفلاطون التي سماها «الوسيس المحبة» كذبها وقال: لقد قولني هذا ما لم أقل كانت طريقته في التأليف بليغة متوسطة لم تنحط إلى رتبة النثر والحكايات ولم ترتق إلى رتبة الأشعار في البلاغات، كما شهد له بذلك تلميذه أرسطو وقال «قيقرون» الأديب: عبارة أفلاطون شريفة منيفة بحيث لو

نزل شيء من الوحي على لسان البشر لما تميز عن كلامه، وكان بانسيوس يسمي أفلاطون اومسيروس الفلاسفة أي بليغهم ولذا كان بعضهم إذا مدح حكمه يقول: إنها اوميروسية وإلهية.

وقد دون مذهبه في ثلاثة من مذاهب الفلاسفة فتبع هيرقليطس في الطبيعيات والمحسوسات وتبع فيثاغورس فيما وراء الطبيعيات وفي العقليات وتبع سقراط في القوانين والآداب وفضله على الاثنين فاقتدى به وحده في ذلك، ذكر لوطرقس في المقالة الأولى من كتابه المسمى آراء الفلاسفة في الفصل الثالث أن أفلاطون قال بثلاثة أصول: الإله والمادة والإدراك، فالإله يشبه عقل العقول، والمادة تشبه السبب الأول للتولد والفساد، والإدراك كجوهر روحاني قائم بذات الإله، نعم عرف أن العالم خلقه إله ولكنه لم يعن أنه مخلوق من عدم محض، بل عني أن الإله إنما نظم من تلك المادة القديمة هذا العالم وشكله بالأشكال المتنوعة بمعنى أن الإله أخرج المادة من حيز العمى إلى حيز الظهور وميَّزها عن بعضها حتى صارت هذا العالم الشبه بمعمار يصور البيت بالآلات الحاضرة كالحجر وغيره.

كان الناس يقولون: إن أفلاطون يعرف الإله الحقيقي معرفة جيدة، وهذا إما من جودة ذهنه أو مما أطلع عليه من كتب العبرانيين، لكن ينبغي لنا أن نقول كما قال ماري بولس: إن أفلاطون كان من الجماعة الذين يعرفون الله حق المعرفة لكنهم تاهوا بسبب مذاهبهم ولم يعظموه كواجب الألوهية بل ضلوا فوقع من أفلاطون في كتابه المتعلق بالالهيات أنه نوع من الآلهة مراتب ثلاث: علويين ومتوسطين وسفليين، فالعلويون: على زعمه هم سكان السماء المرتفعون على جميع العالم وبسبب علو مسكنهم وطبيعتهم لا يتمكن الإنسان من مخالطتهم إلا

بواسطة المتوسطين الساكنين في الهواء ويسمون جنا وهؤلاء المتوسطون: كوزراء العلويين بالنسبة للعالم؛ لأنهم يوصلون إليهم الأوامر ويقبلون القربان والنذور للعلويين وكل واحد منهم يحكم إقليمًا من العالم وهم الرؤساء في الكهانة والأخبار بالمغيبات وهم المخترعون لخوارق العادات، والظاهر أن أفلاطون نسج ذلك على منوال ما وجده في الكتب السماوية من وظائف الملائكة.

النوع الثالث السفليون: جعل مسكنهم الأنهار وسماهم أنصاف آلهة وجعلهم رسل المنامات والعجائب كالآلهة المتوسطين، وزعم أن جميع عناصر العالم وسائر أجزائه ممتلئة بهذا النوع الثالث، وقال: إنهم قد يظهرون في بعض الأحيان لأبصارنا ويختفون أحيانا، والظاهر أن قدماء حكماء الأمم غير المتمدنة أسسوا مذاهبهم وألفوا كتبهم في الأمور السفليات ونحوها من هذه الأصول.

كان أفلاطون يتعلم تناسخ الأرواح بالطريقة التي تعلمها من فيثاغورس ثم اتخذ ذلك طريقة له وسلك فيها منوالا خاصا به غير منوال فيثاغورس كما يوجد في مخاطباته ومع ظرافة مخاطبته المتعلقة ببقاء الروح وقع فيها في غلط فاحش من جهة زعمه أنها مركبة من جزئين جسماني وروحاني، ومن جهة قوله إنها موجودة قبل الجسم وإنها أتت من السماء؛ لتدخل في الأجسام المختلفة؛ لتحيي بها وتعود إلى السماء بعد أن تطهر من المحال التي كانت فيها، ثم بعد مضي جملة سنين تروحن بالثاني عدة أجسام مختلفة فهي دائما متنقلة بين طهارتها من الأجسام تارة وتنجسها بها أخرى ومن السماء إلى الأرض ولما كانت عقيدته أن الأرواح لا تخلو بالكلية عما أدركته سابقا في تواردها على الأجسام المختلفة؛ زعم أن المعارف ليست تجديدًا بالكلية، بل منها ما هو تذكار لما سبق لها إدراكه،

وكاد ينمحي منها وبنى على ذلك سبق الأرواح في الوجود على الأجسام.

ولا حاجة إلى بسط آراء هذا الفيلسوف زيادة عن ذلك، بل يكفينا أن نسلك مسلك الاختصار، ونقول: إن مذهبه في محلات كثيرة مبتكر ذو شأن عال بنوه بكون صاحبه حريًا بما لقب به من أنه إلهي وباعتباره في أعلى رتب الفلاسفة. توفي هذا الفيلسوف في السنة الأولى من الأولمبياد المتمم مائة وثمانية وكان عمره إحدى وثمانين سنة ووافق يوم وفاته يوم ولادته.

تاريخ انتيثينوس الفيلسوف

كان تلميذًا لسقراط، وعصريًا لأفلاطون وغيره من بقية التلامذة. انقسمت تلامذة سقراط بعد وفاته ثلاث فرق مختلفة: فرقة تسمى الكلبية، وفرقة تسمى الإشراقية ويُقال لهم أفلاطونية، وفرقة تسمى القيروانية، وكان انتيثينوس شيخ الأولى وسميت بذلك ؛ لأنهم كانوا في معيشتهم مثل الكلاب، وقيل: لأن محل تعلمهم كان بعيدًا جدًّا عن باب من أبواب أثينا يسمى باسم يوناني قريب من معنى كلب.

كان والده من أثينا واسمه كاسمه وكانت أمه رقيقة، وحين كان يقال له: إن أمك من أرقاء افروجية، يقول: لا عيب في ذلك؛ لأن التي تزعمها اليونان أم الآلهة المسماة قبلة كانت أيضًا من تلك البلدة. أول تلمذته كانت لمعلمه الخطيب جرجياس، ثم اشتغل بتعليم طائفة مخصوصة، وكان بليغًا فصيحًا عذب الألفاظ؛ فلذا هرع الناس إليه من سائر المواضع؛ ليسمعوه ثم بلغه صيت سقراط وشهرته فاشتاق إليه وذهب لسماعه؛ ثم عاد مسرورًا منه جدًّا حتى أنه استصحب تلامذته وعاد بهم إليه، وطلب منهم أن يكونوا إخوانه بمكتب سقراط وأنه لا يأخذ لنفسه بعد ذلك تلامذة، وكان مسكنه بميتا بوره فكان يسير كل يوم أربعين غلوة؛ ليسر برؤية سقراط وسماعه ورواية العلوم الحكمية عنه.

كان أستاذًا لكن كان سالكًا في معيشته مسلك الضيق والصعوبة، وكان دائمًا يدعو الإله أن قضى عليه بالإنكباب على الشهوات أن يسلب عقله، فكان يجنح للصعوبة جدًّا حتى في حكمه على التلامذة، وكان إذا سُئل عن ذلك يقول: أفليس الطبيب يسلك مثل هذه الطريقة مع المرضى، وهو أول من لبس

العباءة العريضة المبطنة، واتخذ الخُرج والعصا؛ فلذا صارت هذه الثلاثة خاصة بالكلبية، وبغيتهم التي يظنون أنهم بسببها يتمتعون بسعادة أبدية.

كان لا يأخذ من لحيته شيئًا، بل كان لا يعتني بشأن ملبسه، كان لا يعلق آماله إلا بالعلوم الأدبية، ويقول: إن غيرها من العلوم لا فائدة فيه بالكلية، كان يعظ الملك ويحثه على اتباع المحامد وينهاه عن المفاخر.

كانت الكلبية تستعمل التشديد والصعوبة في معائشهم، وكانت أقواتهم خصوصًا الفواكه والقبول لا يشربون سوى الماء، ولا يجدون مشقة في النوم على الأرض، وكانوا يقولون: إن خصوصية الإله عدم احتياجه لشيء أصلًا فأشد الناس قربًا للألوهية أقلهم احتياجًا، وكانوا جميعًا يفتخرون باحتقار الأموال والحسب وجميع الصفات سواء كانت من الفضائل والفواضل، وغاية الأمر أنهم كانوا لا يخجلون من شيء أبدًا، ولا يخشون المعرة حتى من الأمور الفاضحة، ولا يعرفون الحياء فلا يحترمون أحدًا.

كان هذا الفيلسوف في غاية الفطنة وصفاء العقل، وكان أنيسًا جدًّا يتكلم في كل مجلس بما يعجب أهله، واشتهر بقوة العزم والشجاعة في واقعة «تناغرا»، وحصل له من يدِ الاعتبار والاحترام وسُرَّ من ذلك سقراط جدًّا، ثم بعد مدة من الزمن قيل لسقراط: إن أمه افروجية، فقال متعجبًا: أتظنون أن مثل الرجل العظيم ينشأ من رجل وامرأة أثينيين، ثم إن سقراط لم يتمالك نفسه بعد أن عيَّره بأنه متكبر.

نظره سقراط ذات يوم وهو يوجه خروق عباءته لجهة الناس فصاح به سقراط، وقال له: قد ظهر كبرك من خلال هذا الخرق، لما بلغ هذا الفيلسوف

أن الأثينيين يفتخرون بأنهم ولادة المدينة التي هي سكنهم؛ فسخر منهم، وقال مستهزئا بهم: وكذلك الهوام تشارككم في هذا الافتخار؛ حيث تقيم ذاتها بمحل ولادتها، كان داتيا يقول: نسيان الشر أنفع علم للإنسان، جاءه رجل بابنه ليكون تلميذًا له، وسأله ما الذي يحتاجه ابني حالًا؟ فأجابه يحتاج إلى كتاب جديد وقلم ولوح جديدين، قاصدًا بذلك إفهامه أن عقل ولده كشمعة لم ينتقش فيها شيء، سُئل مرة: ما الذي ينبغي طلبه في الدنيا؟ فأجابه موت الإنسان سعيدًا.

حصل له غيظ شديد من حُسَّاده الذين كانوا يرعاهم حسدهم ذاتها كرعي الصدأ للحديد، فكان يقول: لو خُيِّرت بين أن أكون غرابًا أو حاسدًا لاخترت أن أكون غرابًا؛ لأن الغربان لا تأكل إلا الميتة، وأما الحُسَّاد فإنهم يأكلون لحوم الأحياء.

اتفق أن شخصًا قال له: إن الحرب يأخذ أشقياء الناس، فقال له: يأتي بأشقياء أكثر مما أخذ، سألوه ذات يوم عن الألوهية فقال: لا شيء يُشبه الإله فمن الجنون تعرض الإنسان لمعرفته بحاسة.

كان يقول: يلزم إكرام الأعداء؛ لأنهم أول مبادر بكشف العيب وإفشائه، فبهذا هم أنفع من الأحباب لحملهم لنا على الاستقامة والرجوع عن المعايب، كان داتيا يقول: يلزم الإنسان محبة الصديق الصالح أكثر من محبة القريب؛ لأن لحمة الفضيلة أقوى وآكد بكثير من لحمة القرابة.

وقال انتظام الإنسان في سلك قليل من الحكماء المتعصبين على الجم الغفير من الحمقى أولى له من العكس، سمع ذات يوم كثيرًا من الأراذل يمدحه،

فقال: ما الذي صنعته من سيئ الأفعال حتى مدحني هؤلاء الأراذل؟!

كان يزعم أن الحكيم لا يلزمه أن يجري على نهج القوانين، بل يجب عليه العمل بمقتضى حميد الخصال، كان لا يستغرب شيئًا أبدًا، ولا يحصل له غم من مصيبة لما أنه متبصر في الأمر قبل وقوعه متهيئ لعاقبته مستعد لكل ما يحدث من النكبات.

كان يقول: الحكمة والشرف شيء واحد، والشرف إنما هو الحكيم، قال: الاحتراس كالسور المحكم لا يمكن هدمه ولا أخذه بغتة، وقال أيضًا: إن آمن الطرق لبقاء الذكر هو معيشة الإنسان صالحًا، ولا يكمل حظ امرئ إلا إن كان عنده عزم سقراط وقوته.

سأله رجل ذات يوم أي النساء أحسن في التزوج؟ فقال له: إذا تزوجت بقبيحة المنظر فإن نفسك تنفر منها عاجلًا، وإذا تزوجت بجميلة فربما زاحمك الرجال عليها، رأى يومًا رجلًا زانيًا بمتزوجة خاف زوجها فهرب فصاح به يا مسكين، كان يمكنك اتقاء هذا الخطر بفلس للمعدة بذلك.

كان يحرض تلامذته على الاستكثار من الزاد الذي لا يعتريه ضياع، كان يقول: ينبغي للعاقل أن يتمنى لأعدائه كل شيء ما عدا الحكمة، كان إذا ذُكرت عنده التنعمات يقول: يا رب، لا تجعلها إلا لأولاد أعدائنا، وكان إذا رأى امرأة ظاهرة في الحُلي والزينة يذهب حالًا إلى بيت زوجها ويطلب منه أن يُريه حصانه وسلاحه، فإذا ظهر له حسنها أذن لزوجته أن تفعل جميع ما تروم، حيث إن زوجها يحميها ويدفع عنها الغير، أما إذا لم يظهر له ذلك، فإنه يأمر المرأة بنزع سائر الحلي والزينة مخافة استيلاء جبار عنيد عليها فلا يمكن زوجها دفعه ورده

عن هتك حرمتها.

اتفق أنه أمر الأثينيين -ذات يوم- أن يحرثوا الأرض على الحمير والخيل على خلاف المعهود عندهم، فقالوا له: هذا غير مناسب، والحمير لا يمكنها ذلك، فقال لهم: لا ضرر أوَليس أنكم تختارون للحكومة قضاة لم تخبروهم هل يصلحون لذلك أو لا، بل تكتفون بمجرد اختياركم إياهم، وقيل له ذات يوم: إن أفلاطون يذمك، فقال: قد شاركت الملوك في ذلك، والنفس الخبيثة؛ هي التي تسيء من أحسن إليها.

كان يقول من العجب: إن الناس يتعبون في تنقية القمح من خليطه، وفي نفي العساكر غير النافعة مع عدم تطهيرهم الجمهورية من الحُسَّاد لها، كانوا يلومونه على معاشرة من قبحت سيرتهم، فكان يقول: ماذا يضرني في ذلك؛ لأن الأطباء يخالطون المرضى كل يوم من غير أن تمسهم حماهم.

كان جَلْدًا صبورًا، وكان يعظ تلامذته، ويحثهم على تحمل الشدائد، وألَّا يتأثروا من سَبٍّ وذمٍّ يقال فيهم، كان يلوم أفلاطون على محبته التفاخر والتعاظم؛ لأنه كان دائمًا يسخر من هذا الأمر، كان إذا قيل له: ما الذي اكتسبته من الفلسفة؟ يقول اكتسبت أنه يمكنني أن أتسامر مع نفسي، وأن أفعل بالطوع والاختيار ما لا يفعله غيري إلا بالقهر والغلبة. كان دائمًا يقر ويعترف لمعلمه سقراط بالمعارف، والظاهر أنه هو الذي أخذ ثأر سقراط بعد موته، وذلك أن جماعة أتوا من آخر بلاد البحر الأسود ليسمعوا سقراط فأخذهم انتيثينوس، وذهب بهم إلى انوطوس أحد من حكم بقتل سقراط، وقال لهم: هذا الرجل أحكم من سقراط، وهو الذي تَسبَّب في موته بشكواه فهيج ذكر سقراط الحاضرين حتى طردوا انوطوس خارج المدينة حالًا، وقبضوا على ميليطوس

المتهم الثاني لسقراط وقتلوه.

مرض انتيثينوس بداء السل، والظاهر أنه كان يؤثر الحياة بهذا الداء على الموت السريع؛ لأن تلميذه ديوجينس دخل عليه ذات يوم في غرفته، وتحت عباءته سكين، فقال له: هذا الفيلسوف ما الذي يخلصني مما أقاسيه؟ فأخرج تلميذه السكين من تحت عباءته، وقال له: هذه هي التي تخلصك، فقال له: إنما أعني الخلاص من الآلام لا الخلاص من الحياة، والظاهر -أيضًا- أن هذا الفيلسوف كان يفتخر بأن واضع مذهب الكلبيين -في الأصل- هو هرقول الذي يعتقدونه نصف إله، كما يدل لذلك ما قيل في الشعر المنظوم عن لسان حال هذا الفيلسوف.

تاريخ ارستيب الفيلسوف

كان هذا الفيلسوف في عصر أفلاطون مدة الألمبياد السادس والتسعين، وكان من مدينة القيروان التي هي من مدن «برقا» فحمله صيت سقراط وشهرته على هجر وطنه والتوطن عند سقراط بمدينة أثينا؛ ليتلقى عنه ويسر بسماعه وملازمته، فصار من أعيان تلامذته، ولكن سلك مسلكًا مخالفًا للأصول المقررة في هذا المكتب العظيم، فاخترع في الفلسفة المذهب المسمى القيرواني؛ بسبب أنه من تلك المدينة.

كان ذكي العقل جدًّا، سريع الجواب، بليغًا في كلامه، وكان دأبه التملق في تعظيم للملوك والمتظاهرين، وكان مستمدًّا لجميع ما يطلبونه منه، وكان يباسطهم ويضاحكهم فيسلب منهم جميع ما يريد، وكانوا إذا تقصوه بسبب أو غيره يتلقاه منهم بوجه الممازجة، حتى لا تقع بينهم منافسة، ولو أرادوا ذلك وكان بالتحيل والتداخل يبلغ أغراضه مهما كانت، لا يتكدر من شيء أبدًا، بل كانت الأشياء كلها مستوية عنده، وقال له: أفلاطون يا ارستيب، مَنْ مثلك تستوي عنده ثياب الصعاليك وخُلع الملوك؟ قال ((هوراقس)) في شأنه: إنه ظهر بجميع المظاهر، واكتفى باليسير في زمن تمكنه من حيازة الكثير.

هذه الأوصاف صيرته عند الملك دينيس الظالم في غاية القبول، فكان عنده بمنزلة جلسائه جميعًا، وكان يذهب دائمًا إلى سرياقوس مدينة هذا الملك لما عنده من المآكل اللذيذة، وإذا سئم منها تردد على أمراء الدولة، ومن حيث كونه أفنى عمره في دواوين الأمراء سَمَّاه ديوجينس الكلبي -الذي كان موجودًا في زمنه- الكلب الملوكي.

اتفق ذات يوم أن دينيس الملك بَصَقَ في وجهه فبعض من كان بالمجلس استصعب ذلك جدًّا، وأما ارستيب فلم يُظهر سوى الضحك، وضرب مثلًا بأن الصياد يتحمل مشقة الصيد، حتى يبتل بالبحر لصيد سمكة صغيرة، فكيف لا أتحمل ريق الملك لصيد الحوت الكبير.

اتفق أيضًا أن دينيس المذكور كان في نفسه منه شيء، فلما وضع الطعام وتهيئوا للأكل، أمر الملك دينيس أن يجلس في المحل الأخير، فلم يتأثر من ذلك، ولم يغضب، وقال للملك عن ذلك الظاهر: إنك أردت أن تشرف بي هذا الموضع.

كان ارستيب من تلامذة سقراط وهو أولهم طلبًا لأجرة التعليم، ولأجل أن يصير ذلك مأذونًا فيه من شيخه بعث له ذات يوم من نقود ذلك الوقت بعشرين قطعة فلم يقبلها سقراط وغضب مدة حياته من سلوك هذا التلميذ، والظاهر أن ارستيب لم يبال بذلك، ولم يتغير منه، وكان إذا قيل له: إن معلمك كان كريمًا شريف النفس لا يطلب من أحد شيئًا، يقول: شتان بين حالي وحاله، حيث إن سائر أمراء مدينة أثينا وأعيانها كانوا يفتخرون بإرسالهم لسقراط جميع ما يحتاج، حتى أنه كان كثيرًا ما يرد أكثر ما يهدى إليه ويستغني بالبعض، أما أنا فهيهات أن يأتيني مملوك دنيء يتذكرني بإعطاء ما اتقوت به ويطلب مني عليه أن أعلمه.

أرسل بعض الناس ولده إليه ليعلمه وطلب منه أن يعتني بتعليمه فطلب منه ارستيب خمسين من دراهم ذاك الوقت، فاستعظم ذلك أبو الغلام وقال: كيف أدفع خمسين مع أني يمكن أن أشتري بها مملوكًا؟ فقال له ارستيب: اذهب واشتر بها مملوكا ليكمل لك خادمان، وليس هذا من حرصه فإنه كان فيه كرم، وإنما قصد بأخذ الأجرة أن ينفقها وليبين أن ذلك مما ينبغي.

اتفق ذات يوم أنه ركب البحر في سفينة، فاخبره بعض الناس أن السفينة التي أنت فيها سفينة لصوص السفن، فعند ذلك أخرج جيع ما معه من الدراهم، وأظهر أنه يعدها وتركها تتساقط في البحر، ثم تنهد حتى كأنها سقطت منه بلا قصد وقال بصوت لا يسمعه إلا من دنا منه: كوني أخسر أموالي أولى لي من أن أخسر نفسي بسبب الأموال.

اتفق أنه كان ماشيًا وعبده خلفه فظهر له أن العبدَ لا يُسرع مثله في المشي؛ لثقل ما يحمله من الدراهم، فقال له: ألق منها ما لا تستطيع حمله، ولا تحمل منها إلا ما تطيق حمله، لما تكلم «هوراقس» على الذين يصرفون سائر همتهم في جمع الدراهم ذكر أن ارستيب على عكسهم.

كان ارستيب يحب الأكل الطيب اللذيذ، ومتى أمكنته الفرصة من الأكل انتهزها، واتفق -ذات يوم- أنه اشترى حجلة بخمسين درهمًا، فلامه على ذلك جماعة، وقال بعضهم لبعض: لو كان هذا الطير بفلس فهل تشتريه؟ فقال له الآخر: نعم اشتريه، فقال ارستيب: إن قيمة الخمسين عندي دون قيمة الفلس عندك.

اتفق -أيضًا- أنه اشترى بعض حلويات بثمن غالٍ فلامه على ذلك بعض الحاضرين، فقال ارستيب: هلا تشتري ذلك من جنس الفلس بثلاث؟ فقال: نعم، فأجابه ارستيب بقوله: ما عندي من الإسراف لا يعدل ما عندك من البخل، وكان حين يُلام على تبذيره وسرفه في المأكولات الفاخرة، يقول: إن كانت المآكل اللذيذة مذمومة، فَلِمَ كَثُرت الولائم في المواسم والأعياد الدينية؟!

مع ما كان عليه أفلاطون من التجمل والتفاخر عيَّر ارستيب بأنه في أرغد

عيش، وأطيب معيشة، فأجابه ارستيب بقوله: أترى الملك دينيس من خيار الناس أم لا؟ فقال أفلاطون: هو من خيارهم، فقال: إذا كان كذلك أَوَليس هو أكثر مني تنعمًا، وهل الترفه والتنعم يخرجان المرء عن حيز الصلاح؟

اتفق أن ديوجينس كان -ذات يوم- يغسل بعض حشائش على عادته، فبينما هو كذلك إذ مَرَّ به ارستيب، فقال له ديوجينس: لو أمكنك أن تقنع بمثل تلك الحشائش لما اضطررت للذهاب للملوك، وسمعت منهم ما لا يلذك، فقال ارستيب: وأنت لو عرفت صناعة مجالسة الملوك، لبغضت هذه الحشائش.

واتفق أيضًا أن الملك دينيس أحضر أمام ارستيب من النسوة المتبرجات ثلاثًا، وقال له: اختر منهنَّ من استحسنتها فأخذهن جميعًا، ثم قال للملك: إن الانتخاب منهن لا تؤمن عاقبته، أما تعلم ما حَلَّ بباريس ابن الملك من المصائب المتتابعة بسبب تفضيل بعض النساء على بعض، فإن أنا اخترت منهن واحدة لنفع نفسي ضرني الثنتانِ بأزيد مما انتفعت به، ثم سار بهن إلى مجاز داره وردهن حالاً.

واتفق أيضًا أن الملك المذكور سأله لأي شيء نرى الفلاسفة دائمًا يترددون عند الملوك ولا نجد أحدًا من الملوك يذهب إلى الفلاسفة؟ فقال له ارستيب: وجه ذلك أن الفلاسفة يفهمون ما يحتاجون إليه بخلاف الملوك، فإنهم لا يعرفون ما تحتاج إليه أنفسهم، سأله بعض الناس بهذا السؤال بعينه في وقت آخر، فقال له: إن من شأن الحكماء أن يذهبوا عند المرضى لمعالجتهم ولا أحد إلا ويؤثر كونه طبيبًا على كونه مريضًا.

كان يقول: إن من أظرف الأشياء الاقتصاد في متمنيات الأنفس لا قطع

عرق ذلك بالكلية فليس الذنب والخطأ في حظوة الإنسان بالملاذ، وإنما يلزم ألَّا يكون عبدها، ولذا كان إذا سخر بعض الناس مما وقع بينه وبين محبوبته التي هي من الفاجرات يقول: إني أنا المستولي عليها لا أنها هي المستولية عليَّ.

دخل ذات يوم عند معشوقته هذه ومعه أحد تلامذته، فخجل ذلك التلميذ واستحى، فلما أحسَّ ارستيب منه بذلك قال له: يا صاحبي، لا يسوغ الخجل عند دخول هذه المحلات، إنما يسوغ إذا لم يمكن الخروج منها، واتفق ذات يوم أن بولكسينس الفيلسوف أتى لزيارة ارستيب فوجد عنده وليمة كبيرة فيها نساء عليهن زينة عظيمة، فغضب من ذلك وأنكر على ارستيب تلك الزينة، فطلب منه ارستيب مع غاية اللطف أن يصاحبه على السفرة، فلما جلس بولكسينس معه، قال له ارستيب: حيث جلست فلأي شيء جعلت تكثر الكلام، وتنكر عليَّ حين دخلت، فالظاهر أن لومك ليس على اللذات والشهوات المذمومة؛ بل على خصوص الإنفاق الواسع الممدوح.

اتفق أنه وقع بينه وبين انخينس منازعة عظيمة أدت إلى إعراض كل منهما عن صاحبه، فذهب ارستيب إلى انخينس، وقال له: هل لنا في الصلح أتريد أن جميع الناس يسخرون منا حتى المتطفلين يضحكون علينا أصحاب الولائم؟ فقال له: انخينس الصلح بغيتي وعين مرامي، فقال ارستيب: لا تنس أني أنا الذي بحثت عن الصلح وطلبته منك مع أني أكبر منك سنًّا.

اتفق أيضًا أن دينيس الملك صنع وليمة عظيمة، ثم في آخرها أمر أن كل إنسان من حاضرين الوليمة يلبس ثيابًا طويلة نظيفة ويرقص وسط الديوان، فامتنع أفلاطون من ذلك ولم يرضَ به، وقال: إني رجل، ولا يليق بي أن ألبس ثياب النساء، فأما ارستيب فتقدم ولم يتوقف، وأخذ يرقص بتلك الثياب، وقال

جهارًا: إن الناس يرقصون في عيد «بقوس» صنم الشراب، ولا يدنسهم ذلك إلا إذا كانوا مدنسين بشيء آخر.

اتفق أيضًا أنه ترجى الملك دينيس لبعض أصدقائه فرده الملك ولم يقبله، فخر ارستيب على قدمي الملك وقَبَّلَهُمَا، فاستصعب ذلك بعض من كان في المجلس ونسبوه إلى الرذالة، فقال ارستيب: لا لوم في ذلك عليَّ، إنما اللوم على الملك، حيث وضع أذنيه في قدميه.

يُحكى أن ارستيب كان بمدينة سراقوسه أخذه سيموس الفروجيني - خازن دار الملك دينيس - ليريه قصره العظيم ويفرجه على حسن تبليطه، وطرافة نقشه فأخذ ارستيب السعال حتى بصق فألقى بصاقه في وجه سيموس، فامتزج سيموس غضبًا، فقال له: ارستيب يا صاحبي، إني لم أر هنا موضعًا أقذر من صورتك، وقد نسب بعض المؤرخين هذه الحكاية أو نظيرتها إلى ديوجينس، وفي الواقع أن كلًّا منهما جدير بذلك.

اتفق ذات يوم أن بعض الناس أخذ يَسُبُّه ويذمه بحضرته، فتركه ارستيب وذهب فذهب خلفه وقال له: لمَ تذهب يا قبيح؟ فقال له ارستيب: أنت رجل قادر على السب، وأنا لست مأذونًا بسماعه، اتفق أيضًا أنه سافر في البحر إلى مدينة قورنثه، فخرجت ريح عاصفة فحصل له خوف شديد، وأشفق من الهلاك، فسخر منه جميع من كان بالسفينة ولاموه، وقالوا له: نحن مع جهلنا لم نتزعج أصلًا، وأنت من عظماء الفلاسفة فما هذا الوجل والخوف؟ فقال: نفسي وأنفسكم ليسوا على حد سواء، بل شتان بين ما أخسره وبين ما تخسرونه.

لما سُئل: عن الفرق بين العالم والجاهل، قال: جردوهما من الثياب

وأرسلوهما إلى من لا يعرفهما فإنه يميز كلًّا منهما بمجرد رؤيته، كان يقول: اتصاف الإنسان بشدة الفقر أولى وأحسن من اتصافه بالجهل؛ لأن الفقير لم يفقد إلا الدراهم بخلاف الجاهل فإنه فَقَدَ الإنسانية، والفرق بين ذي المعارف وصاحب الجهل كما بين الفرس الجموح والمتريضة.

كان إذا ليم عليه في شأن ابنه من جهة إهماله له ونبذه من غير تعهد واعتناء، حتى كأنه أجنبي لم يخرج من صلبه، يقول: لا ضرر في ذلك ألا ترون أن القمل والبلغم لا ينكر أحد تولدهما من الإنسان، مع أنه يبادر بطرحهما ويباعدهما عنه بالكلية، ويقال: إن دينيس الملك -ذات يوم- أعطى أفلاطون كتابًا، وأعطى ارستيب دراهم، فذم جماعة ارستيب على عطيته ولاموه على كيفيته، فقال: أنا محتاج للدراهم وأفلاطون محتاج للكتب.

يُحكى أيضًا أنه طلب من الملك دينارًا، فقال له الملك: سبق لك أنك أخبرتني أن الحكماء لا يحتاجون للدراهم، فقال له ارستيب: أعطني أولًا الدراهم، وبعد ذلك نتكلم في هذا الأمر، فأعطاه الملك إياها، فقال له ارستيب: أَمَا ترى -الآن- أني غير محتاج للدراهم، لما أكثر الذهاب إلى مدينة سراقوسه، واعتاده أضمر دينيس الملك في نفسه أن يسأله عن ذلك فسأله: ماذا تصنع في هذه المدينة؟ فقال له ارستيب: آتي لأعطيك ما عندي واستعوض عنه ما عندك.

كان إذا قيل له: لِمَ تركت الذهاب إلى سقراط بذهابك إلى الملك؟ يقول: لما كنت محتاجًا إلى الحكمة كنت أذهب إلى سقراط، والآن حاجتي إلى الدراهم فاذهب إلى دينيس، واتفق أنه رأى ذات يوم شابًا مسرورًا معجبًا بكونه عرف السباحة في البحر، فقال له ارستيب: ألا تستحيي من الافتخار بشيء يسير، فإن الدلفين تفوقك في هذا الأمر، وكان إذا سُئل: ماذا اكتسبت من الفلسفة؟ يقول:

اكتسبت أني أتكلم مع جميع العالم كما أريد يعني: لست أسيرًا لأحد أخشى منه في الكلام، وقال له بعض الناس: ما الذي تفوقون به أيها الفلاسفة غيركم؟ فقال ارستيب: هو أنه لو ذهبت القوانين بالكلية؛ لأمكننا أن نستمر على مستقيمة وطريق واحدة.

كان أهل مدينة القيروان لا يعلقون آمالهم إلا بالعلوم الأدبية، وشيء قليل من علم المنطق، ولم يتعرضوا لعلم الطبيعة، بل كانوا يرون أن معرفتها مستحيلة، وكانوا يزعمون أنه ينبغي أن يكون غرض الإنسان من أعماله حصول اللذات لا مجرد طرد الآلام، بل لا بُدَّ من لذة حقيقية تنتعش منها النفس، وذلك أنهم يقولون: إن للروح حركتين إحداهما لطيفة تلذ الإنسان، والأخرى عنيفة تؤلمه، فحيث العالم جميعهم مجبولون على الرغبة في الأولى والرهبة من الثانية فهذه حجة واضحة على أن غرض كل إنسان إنما هو اللذة، وأما الإنسان الخلي من الحالتين معًا؛ فهو كالنائم لا يعد من أرباب التنعم والتلذذ، ولا من أرباب التأسف والتألم، ويقولون مزية الفضائل ليست إلا توصيلها للذات، كما أنه لا مزية للحكيم إلا حيث نفع الصحة، ويزعمون أيضًا أن الغرض من الفضائل خلاف السعادة الأبدية لما أن الغرض من العمل، إنما هو نعيم مخصوص، وأما السعادة الأبدية، فهي عبارة عن اجتماع سائر أنواع اللذات والشهوات، وإن لذات الجسم أقوى من لذات الروح؛ ولهذا كان هؤلاء الحكماء القيروانيون يعتنون بتلذيذ أجسامهم أكثر من عقولهم.

ومن أمثالهم لا تعتن بأحبائك إلا على حسب مراتب احتياجك إليهم، كما تفاوتت أعضاؤك في اعتنائك منها بالأنفع فالأنفع، وكانوا يقولون: إن الأشياء لذاتها لا توصف بحسن ولا قبح ولا صلاح ولا فساد؛ وإنما يأتيها الاتصاف

بذلك من عوائد البلاد وقوانينها، وإن الحكيم لا ينبغي له ارتكاب ما لا يليق لعارض طرأ عليه، وأنه يلتزم قوانين البلاد التي هو فيها، ويتحاشى أن يشتهر بشهرة قبيحة.

وكانوا يزعمون أن سائر الأشياء في حد ذاتها لا توصف بكونها مألوفة أو منفرة، وإنما تتصف بذلك بواسطة اعتيادها أو هجرها، أو بواسطة طروء ما يغري عليها أو ينفر منها، وأنه لا يمكن لإنسان إدراك سائر أنواع السعادة في الدنيا لما أنه عرضة للأمراض الظاهرة والباطنة المانعة من التمتع بالمسرات، أو التي تكدره في أثناء الشهوات، ويقولون: إن الحرية والاسترقاق والغنى والفقر والشرف والخسة كل هذه لا تمنع من الحظوظ والمبسطات؛ وذلك لأن السعد لا ينافيه وصف من هذه الصفات.

ويقولون: إنه لا ينبغي للحكيم أن يبغض أحدًا؛ بل الأولى له تعليم عموم الناس ما ينتفعون به، وألَّا يفعل شيئًا إلا لمصلحة تعود عليه؛ أصالة لأنه أولى بحيازة جميع أنواع المنافع من غيره من حيث حكمته لما أنه أفضل من سائر من عداه من أبناء الدنيا، هكذا كانت طريقة ارستيب والقيروانيين وقواعدهم.

كان لارستيب بنت تُسمى اريطه قد أحسن تربيتها على قواعد مذهبه، وبرعت في ذلك المذهب، وعَلَّمت بنفسها ولدها المسمى باسم جده ارستيب، وكان يُلقب ميتروديدقتيس، وهو الذي عَلَّم تيودورس المشرك، فصار تيودورس يعلم الناس عمومًا أصول مذهب القيروانيين، وزاد الإعلان بنفي الألوهية، وكان يقول: إن المحبة ليست إلا خيالات باطلة؛ لأنها تنعقد بين الحمقى، والحكيم مكتف بنفسه غني عن غيره ولا حاجة له إلى صاحب، وأن الحكيم لا ينبغي له أن يلقي بيده إلى التهلكة، لأجل حفظ وطنه، فإن الدنيا كلها

وطنه فليس من الإنصاف أن يخاطر بنفسه في المهالك لأجل حماية المجانين، وإن الإنسان يسوغ له الزنى، والسرقة، والشرك، متى أمن على نفسه أن هذه الأشياء ليست كبائر إلا في أذهان الجهلة والعامة، وأما في الحقيقة فلا ضرر فيها، وكان هذا المشرك يقول أيضًا: لا مانع للإنسان من التجاهل في المحافل بجميع القبائح الذي يستحيي منها وتعدها العامة عارًا وفضيحة وعيبًا.

ولما فهم هذا المشرك أنه يراد جلبه إلى محكمة المملكة ليجازى على قبائحه خَلَّصه من ذلك ديمتريوس، الذي هو من مدينة «فاليره»، فمكث مدة من الزمن بمدينة القيروان محترمًا فيها غاية الاحترام عند أمير يُقال له: ماريوس، ثم إن أهل تلك المدينة طردوه منها، فقال لهم عند خروجه: أما أنكم لم تعرفوا مقدار طردكم لي من ممالككم، وذهابي إلى بلاد اليونان، ثم ذهب عند شخص يُقال له بطليموس لاجوس فأرسله سفيرًا إلى الملك المسمى لوسيماقوس فتكلم هذا السفير معه بغاية الوقاحة، فقال له وكيل هذا الملك الذي كان حاضرًا إذ ذاك: أظنك يا تيودورس كما تزعم أنه لا وجود للآلهة؛ تزعم أنه لا وجود للملوك، ذكر بعضهم أن هذا الفيلسوف حُكِمَ عليه بالموت، وأنه قهر على شُرب السم على عادتهم.

تاريخ أرسطاطاليس المسمى أيضًا أرسطو الفيلسوف

وُلِدَ هذا الفيلسوف في السنة الأولى من الأولمبياد التاسع والتسعين، وتُوفي في السنة الثالثة من الأولمبياد الرابع عشر بعد المائة، وعمره ثلاث وستون سنة، وكان أرسطو من أشهر قدماء الفلاسفة، ولم يزل اسمه إلى الآن مشهورًا في جميع المكاتب، وكان والده المسمى نيقوماقوس حكيمًا صاحبًا لملك مقدونيا المسمى أمنتاس، وكان أرسطو من ذرية ماكسون، وهو حفيد اسقولاب، وُلد بمدينة استاجير، وهي من مدن مقدونيا في السنة الأولى من الأولمبياد التاسع والتسعين، وفَقَدَ أباه وأمه في زمن صغره جدًّا، فصار غير معتنى به عند الذين تكفلوا بتربيته فضيع مدة من صباه في الفسق وارتكاب ما لا يليق إلى أن ذهبت سائر أمواله، فشرع عند ذلك أولًا في تعليم الحرابة، ولكن لما لم تكن هذه الصنعة موافقة لطبعه بالكلية؛ بل كان يمجها ذهب إلى كاهن دلفيس ليسترشده في صنعة تليق به فأمره بالذهاب إلى مدينة أثينا، وأن يجتهد في تعلم الفلسفة بها، وكان عمره إذ ذاك ثماني عشرة سنة، فذهب ومكث بها عشرين سنة، وهو مجتهد في التعلم بمكتب أفلاطون، ومن حيث إن أمواله ضاعت بالكلية كما سبق واضطر إلى التعيش أخذ يتكسب بالتجارة في بعض أدوية يصطنعها بنفسه ويبيعها بمدينة أثينا.

كان أكله ونومه قليلين، وكان مجتهدًا مُولعًا بالقراءة والمطالعة، حتى إنه لخوفه من غلبة ووخامة النوم الثقيل؛ اتخذ بجانب سريره طستًا من نحاس، فكان إذا تمدد على سريره أخرج يده خارج السرير ماسكًا بها كرة حديد، فكان إذا غلبه النوم سقطت من يده في الطست فيستيقظ لوقته من صوتها، وحكى «لايرقه» أنه كان ضعيف الصوت، ضيق العينين، نحيف الساقين، وكان يلبس

أفخر الملابس.

كان أرسطو دقيق الفهم، فكان يسرع فهمه إلى المسائل الصعبة جدًّا، حتى إنه ما مضت عليه مدة قليلة بمكتب أفلاطون، إلا وقد صار ماهرًا، ففاق سائر من بالمكتب من الأفلاطونيين، وكانوا لا يقطعون حكمًا في شيء إلا بعد مراجعته، وإن كان رأيه قد يُخالف رأي أفلاطون، وكان اعتقاد التلامذة في قريحته، أنها خارقة للعادة، بل كان بعضهم يقدم اتباع رأيه على رأس معلمه، ولما خرج أرسطو من المكتب حصل لأفلاطون عليه تأثر عظيم، فصار يصفه بالعصيان، ويشكوه بأنه رفض معلمه، وتكبَّر عليه، وأنه كالصغير العاق لأمه، ثم إن الأثينيين اختاروه سفيرًا إلى الملك فيليبس والد الملك إسكندر الأكبر في مدينة مقدونيا فذهب لقضاء أشغاله، وأقاما بها مدة من الزمن، ثم لما رجع رآهم اختاروا اكسينوقراط معلمًا بمكتب أفلاطون، ورأى المكتب مكتفيًا عنه، فرأى من العار مُكثه ساكتًا مع اشتغال اكسينوقراط بالتعليم، فجدد له مذهبًا خلاف مذهب أفلاطون.

اشتهر أرسطو شُهرةً عظيمة في جميع العلوم، سيما علم الفلسفة والسياسة، فهذا ما شوق فيليبس -ملك مقدونيا- إلى أن يطلبه مؤدبًا لولده إسكندر، وكان عمر إسكندر حينئذٍ أربع عشرة سنة، فرضي أرسطو بذلك، وأقام مع إسكندر ثماني سنين، وهو يعلمه، وذكر بلوتارك أن أرسطو كان يعلم إسكندر هذا كثيرًا من المعارف الخفية التي لم يطلع عليها أحدًا، ومع مطالعته الكثيرة في علم الفلسفة،لم تنفر نفسه من العالم؛ بل كان لجودة فهمه يسوس ويرتب المصالح الميرية بديوان مدينة مقدونيا، ثم إن الملك فيليبس لشدة اعتنائه بهذا الفيلسوف جَدَّد مدينة اسْتاجير التي هي وطن ذلك الفيلسوف بعد تهدمها

وتخريبها مدة الحرب الذي أُسر فيه أغلب أهلها، وهرب باقيهم ورد إليها الأسرى والهاربين.

ولما فارق أرسطو إسكندر، ورجع إلى مدينة أثينا، قابله أهلها بغاية الاحترام والتعظيم؛ بسبب أن الملك فيليبس أكرمهم لأجله فانتخب أرسطو مكانًا بمحل يسمى «ليسى» قد اكتنفته صفوف الأشجار، وبنى له فيه مكتبًا؛ لأنه كان من عادته تعليم تلامذته وهو ماش معهم، فلذلك سُميت أتباعه المشائين، وعمّا قريب صار هذا المكتب شهيرًا؛ بسبب الجمعيات العظيمة التي تأتيه من المحال المختلفة لسماع أرسطو لما أن شهرته وصيته عَمَّت سائر بلاد اليونان، كان إسكندر أمر أرسطو أن يعمل تجربة في سائر الطبيعيات، حتى إنه أعطاه جماعة من صيادي السمك وصيادي الطير؛ ليجلبوا سائر ما يلزم له في التجربة، وأعطاه ثمانمائة دينار لأجل مصروفه.

أظهر أرسطو في ذلك الوقت لعموم الناس سائر كتبه في الطبيعيات، وما وراءها والرياضيات، وكان إسكندر إذ ذاك في آسيا، فلما بلغه ذلك حصل له غم شديد؛ لأنه كان طماعًا حريصًا على أن يكون هو السابق في كل شيء، فكتب لأرسطو مكتوبًا أظهر فيه تأثره ونصه في أعلاه من إسكندر لأرسطو ليس من الصواب ما صنعته من إشهار كتب العلوم ليتداولها عموم الناس؛ لأنه إذا فشا بين عموم الناس على اختلاف أنواعهم ما نعرفه فبأي شيء نفضلهم، ومما لا يخفاك أني أوثر أن أكون فوق غيري في المعارف الشريفة على أن أفوقه في الشوكة والبأس. انتهى.

فكتب له أرسطو تسكينًا لغضبه: إني أظهرتها ولم أظهرها على معنى أنه أغمض عبارات مذهبه؛ بحيث لا يهتدي لما فيه من المعارف.

ولم تدم المودة بين أرسطو وإسكندر، بل وقع في نفس أرسطو منه شيء؛ بسبب انتصار أرسطو للحكيم قاليثينوس -ابن عمته- الذي كان رباه، واعتنى بتأديبه، ولما رجع أرسطو من عند إسكندر أعطاه قريبه هذا على أن يتبعه في الحرب وأوصاه عليه كثيرًا فكان قاليثينوس لا يبالي بالملك، بل يستطيل في كلامه عليه، وهذا هو الذي صدَّ أهل مقدونيا عن عبادة إسكندر التي كانت طريقة العجم في رعاياهم من عبادتهم للملك كالإله.

ثم إن إسكندر لما بغض قاليثينوس من تلك الطبيعة التي لا يلين فيها وجد فرصة للانتقام منه، فبدأ بإهماله، ثم اتهمه بلا برهان في الفتنة التي حصلت من هرموليوس تلميذه بعد ذلك بقليل، ولم يمكنه من تبرئة نفسه؛ بل قابله بالقتل، فمن قائل: إنه أغرى عليه السباع، ومن قائل: إنه خنقه وعلَّقه مخنوقًا، ومن قائل: إنه صار يعذبه حتى خرجت روحه.

عن ذلك اشتد غضب أرسطو وكمن حقده على إسكندر، وأما إسكندر فلم يدع شيئًا يغيظ أرسطو إلا بحث عنه، حتى إنه رفع رتبة اكسينوقراط الحكيم واتحفه بهدايا عظيمة، فحصل لأرسطو من ذلك غيْرة شديدة، حتى إنه على ما زعمه بعضهم كانت له يد في فتنة انطيباطر، وأنه اخترع لانطيباطر السُّم الذي سقاه الإسكندر.

مع ثبات وحزم رأي أرسطو حصل منه ما يوجب ضعفه، ويخل بمروءته؛ وذلك أنه لاذ بالملك هرمنياس الظالم المستولي على بلاد «أترنا» ولا يعلم السبب الذي جذبه إليه، وذكر بعضهم أن سببَ هذا السفر قضاء شهوات فاسدة شيطانية، فقد تزوج هذا الفلسفي بأخت هذا الملك، وقال آخرون: بسرية من سراريه فأحبها كثيرًا، حتى صار يقرب لها القربان كما يفعله الأثينيون للسنبلة.

ونظم قصيدة في مدح هرمياس والثناء عليه بإنعامه عليه بهذا الزواج.

قَسَّم أرسطو الفلسفة قسمين: علمية، ونظرية

فالعلمية: هي التي تعلمنا قواعد بها تستقيم الترتيبات العقلية؛ كالمنطق، أو تفيدنا حكمًا، وأمثالًا لترتيب معاشنا ومعادنا، فهذا هو الحكمة العلمية والسياسية. والنظرية: هي التي تُظهر لنا الحقائق العقلية الخالصة؛ مثل: علم الإلهيات، والطبيعيات.

وقد قال أرسطو: إن أصول الأشياء الطبيعية ثلاثة: العدم، والمادة، والصورة، وبرهن على نظم العدم في سلك الأصول بأن مادة الشيء لا بد من سبق خلوها من صورة الشيء، مثلًا: مادة السرير التي يتركب منها يلزم أن تخلو من صورة السرير، يعني: أنه يجب قبل عمل السرير أن المادة التي يصنع منها السرير لا تكون هي نفس ذلك السرير على تلك الصورة، وليس قصده أن العدم أصل لتركيب الأجسام؛ بل إنه أصل خارجي لإحداثها ما دام هذا الإيجاد تغيرًا به تنتقل المادة من الحالة التي ليست موصوفة بهذا الإيجاد إلى حالة هذا الإيجاد، كالألواح التي تنتقل من الخلو عن كونها سريرًا إلى كونها سريرًا.

وعَرَّف أرسطو المادة بتعريفين مختلفين سلبًا وإيجابًا، فقال في التعريف الأول المادة: هي ما ليست جوهر ذلك الشيء، ولا امتداده، ولا عرضه، ولا نوعًا آخر من الأمور الوجودية العارضة له، فعلى هذا التعريف مادة الخشب مثلًا ليست امتداد هذا الخشب ولا صورته، ولا لونه، ولا جسمه، ولا زنته، ولا صلابته، ولا يبسه، ولا رطوبته، ولا رائحته، ولا غير ذلك من الأعراض التي في هذا الخشب.

الحد الثاني الإيجابي: وهو كالأول ليس بمقنع، وحاصله أن المادة هي مبدأ تركيب الأشياء، ومنتهى تغيراتها، لكن يرد عليه أنه لم يستفد من تعريفه أي شيء هو المادة، والأصل الأول الذي الأشياء التي على أصل الخلقة مركبة منه، أفادنا هذا الفيلسوف أنه لأجل حدوث الجسم الطبيعي يلزم خلاف المادة الأولية أصل ثان سَمّاه بالصورة، فأوّل بعضهم هذا بأن معناه ترتيب أجزائه الأصلية، وقال بعضهم: إن قصده بذلك هيولى جوهرية ممتازة امتيازًا تامًّا عن المادة، كما إذا سحقنا الحب، فإنه يطرأ عليه صورة جديدة جوهرية بها يستحيل الحب دقيقًا، وإذا مزجنا بالماء بالدقيق وعُجن به، فإنه يكتسب صورة أخرى جوهرية بها استحال الدقيق إلى صورة جوهرية صيرت الدقيق الممزوج بالماء عجينًا، فإذا خبزنا هذا العجين اكتسب صورة أخرى جوهرية صيرت العجين المنضج بالنار خبزًا.

وقال المفسرون لكلامه بهذه الهيولات الجوهرية في جميع الأجسام الطبيعية، مثلًا: غير ما في الفرس من العظم واللحم والعروق والمخ فيها الدم الذي بجريانه في سائر العروق والشرايين يغذي جميع أجزائه، وغير ما في الفرس أيضًا من العقول الحيوية التي هي أصل الحركات، يقولون بصورة جوهرية ادعائية، وهي روح الفرس، وهذه الصورة الادعائية ليست مستخرجة من المادة، وإنما هي ناشئة من قوتها، فيريدون أنها هيولى غير المادة ليست جزءًا منها ولا قيدًا فيها.

وكان يقول: إن الأجرام الأرضية مركبة من أربعة عناصر، وهي: التراب، والماء، والهواء، والنار، وأن الماء والتراب ثقيلان؛ لأنهما يحاولان داتما السقوط بالمركز بخلاف الهواء والنار فإنهما يبعدان عنه على قدر الإمكان لخفتهما.

وزاد على هذه الأربعة عنصرًا خامسًا، فقال: إنه يتركب منه الأجرام السماوية، وإن حركته مستديرة دائمًا، وكان يزعم أنه يوجد فوق الهواء في أعلى الجزء المقعر في القمر كرة من النار تذهب إليها جميع الالتهابات النارية، وتلك الالتهابات مثل: الخلجان، والأنهر تصب في البحر، وكان يزعم أن المادة تقبل القسمة إلى غير نهاية وأن الكون ممتلئ، وأنه لا فراغ، وأن العالم باقٍ لا يزول، وأن الشمس تستمر في دورانها على الحالة التي نشاهدها كما هي كذلك قديمًا، وأن التناسل في الأجيال لا أول له، وكان يستدل على ذلك بقوله: إنه لو ثبت أن له أول إنسان، لكان من غير أب وأم وهو محال، واستدل بمثل ذلك في شأن الطيور، فقال: إنه لا يمكن أن يكون هناك بيضة أولية هي أصل لجميع الطيور، ولا طائر أولي، هو أصل لجميع البيض، واستدل على ذلك بقوله: إن الطير من بيضة، والبيضة من طير، وهكذا، وكان يقول مثل ذلك في سائر الأجناس والأنواع التي في الكون.

وكان يزعم أن الأفلاك لا تقبل الفساد ولا تتخرب، وإنما يعرض لها ذلك مما في الجو من الأشياء، وكذلك أجزاؤها لا تفسد أبدًا، وإنما تنتقل من محالها، وأن الآثار التي تبقى يتكون منها شيء آخر، ولا تزال الدنيا بهذه الكيفية تامة، لا تزيد ولا تنقص، وكان يزعم أيضًا أن الأرض في وسط العالم، وأن الموجود الأول جعل حركات الأفلاك حول الأرض بعقول دائمًا تشتغل بهذه الحركات.

وذكر أن جميع الأشياء المستترة الآن بمياه البحر، كانت سابقًا أرضًا يابسة، وأن الأراضي اليابسة -الآن- تصير فيما يأتي مياهًا؛ بسبب أن الأنهار والسيول دائمًا تجذب معها رمالًا وأتربة، ولا تزال الشواطئ تتقدم داخل البحر، ولا يزال البحر ينحسر ويتأخر شيئًا فشيئًا؛ بحيث إنه بتداول الأيام والقرون تصير

الأرض بحرًا، والبحر أرضًا، وإن كان يلزم لذلك أزمنة طويلة، وذكر أيضًا أن عدة مواضع من الأراضي المرتفعة كانت بحرًا بدليل أن من بحث فيها يجد صدف البحر، وقطع المراسي، والهلوب، وأجزاء السفن، وقد نقل مثل هذا عن فيثاغورس.

وذكر أن تقلبات البحر وصيرورته أرضًا وعكسه الذي يحصل مع التدريج بعد مضي مدة طويلة من الزمن؛ هو السبب في نسيان الأشياء الماضية، وذكر أيضًا أن هنالك عوارض أخر أيضًا ينشأ عنها ضياع سائر العلوم والمعارف، كالطاعون، والخراب، والقحط، والزلزلة، والخسف، والحريق، والفساد العظيم، فهذه أيضًا ربما نشأ عنها هلاك أمة كاملة إلا أن ينجو قليلهم بفراره إلى البراري فيعيش هناك معيشة المتوحشين، ويتناسل منه أمم أخر على تداول الأزمان يجتنون ثمار الأرض، ويخترعون العلوم والفنون أو يجدونها مخترعة فيستعملونها، ولهذا تجد الآراء تارة تتوافق، وتارة تتخالف بآراء أخر متجددة وكذا الأديان، وبهذا يستدل أرسطو على أن الأفلاك لا يعتريها فساد.

اجتهد أرسطو بشأن الأسباب التي تصير الإنسان سعيدًا في هذه الدنيا، فنقض أولًا رأي أرباب الشهوات الزاعمين أن السعادة في اللذات البدنية، قائلًا: إنه مع ما في اللذات من عدم الدوام، يتسبب عنها سآمة منها وزهد فيها، بل ربما أضعفت البدن وشوشت العقل، وزيّف أيضًا رأي أرباب الطمع والحرص الزاعمين أن السعادة في العزّ والشرف المستعملين سائر وسائل الظلم التي توصلهم لذلك قائلًا: إن الشرف ارتكاب ما يشرف، وقال أيضًا: أرباب الطمع يتمنون أن يكونوا مشرفين، بسبب التظاهر ببعض خصال حميدة يريدون أن تظنها الناس فيهم ففي الحقيقة السعادة إنما هي في الفضيلة بنفسها لا في

مسبباتها لما أن المسببات ليست ذاتية للإنسان.

وزيّف أيضًا رأي البخلاء الزاعمين أن السعادة في الأموال قائلًا: إن الأموال ليست مرغوبة لنفسها، وإنها سبب شقاء لمن كنزها وخاف إنفاقها، فمن أراد أن أمواله تكون نافعة فلينفقها ويتوسع بها، فليس في ذات الأموال سعادة أصلًا.

ورأى أن السعادة هي إعمال العقل الحسن، وسلوك طريق الفضائل، وقال: إن أشرف أعمال العقل تأمله في الكائنات، وبحثه عن أحوال الموجودات، وعن الأفلاك والكواكب، وسائر الأشياء الطبيعية، خصوصًا الموجود الأولي الأزلي، وقال أيضًا: لا يمكن للإنسان تحصيل السعادة كلها إذا رُزق ما يكفيه، فإنه بدون ذلك لا يمكنه الاشتغال بالبحث عن ظريف الأشياء، ولا استعمال الفضائل، مثلًا: مَنْ لا مال معه لا يقدر على صُنع المعروف مع أحبابه الذي تنبسط منه النفس في حياتها، فلذلك كان يقول سعادة المرء تصدر عن ثلاثة أشياء:

الكمالات العقلية: كسداد الرأي وحسن التدبير والضبط، والكمالات البدنية: كالجمال والقوة واعتدال المزاج، والكمالات الدنيوية: كالغنى وطيب الأصل، وقال: إن الصلاح وحده لا يكفي في سعادة المرء، بل لا بُدَّ من كمالات الجسم والمعيشة، فإذن الحكيم يشقى بأحد سببين: إما الآلام، وإما الاحتياج للمال بخلاف النقيصة، فإنها تكفي في شقاء المرء، فإذا كان المرء بغاية السعة، واستكمل المنافع لا يمكن سعده ما دام متصفًا بنقيصة، وإن الحكيم لا يمكن خلوه في حكمته من بعض المكدرات، إنما مكدراته هينة، وإن الفضائل والرذائل ليست متباينة الأفراد على معنى أنه إذا وُجد أحدها عُدم الآخر، فإنه يمكن أن

الرجل الواحد يتصف بالصدق والإنصاف، وحزم الرأي، ومع ذلك تكون عنده شهوات نفسانية تخصه وكان يقسم المحبة إلى ثلاثة أقسام: أحدها: شفقة القرابة، وثانيها: الميل للألف، ثالثها: محبة الإحسان.

كان يزعم أن الاعتناء بالعلوم الأدبية يعين على التمسك بالفضائل كثيرًا، وقال: إنها أعظم ما يوجب تسلية الأديب إذا صار هرمًا، وقال وفاقًا لأفلاطون بوجود ذات أولي متصفة بصفة القضاء والقدر، وكان يقول: إن سائر أفكارنا أصلها الحواس، واستدل لذلك بأن الأكمه لا يفرق بين الألوان، والأصم لا يُفرق بين الأصوات، قال في سياساته: أعظم الممالك، وأتمها انتظامًا الولايات المحكومة بواحد بخلاف الجمهورية المتعددة حُكّامها، ونظير ذلك الجيش المحكوم برئيس واحد ينقاد له فإنه يظفر بمراده بخلاف الجيش المنقاد لعدة رؤساء، ويوضح ذلك أن الجمهورية إذا أرادت شيئًا، فإنه لا بد من اجتماعها وتشاورها، ويلزم لذلك جمع رؤساء أطراف الأقاليم، وذلك يحتاج لزمن ربما فاتت فيه الفرصة، أما الملك الواحد فربما نفذ أغراضه في زمن قدر زمن اجتماعهم، وأيضًا أرباب تدابير الجمهورية قد لا يضرهم خرابها لما أن أصل غرضهم غنى أنفسهم فقط، فربما تنافسوا مع بعضهم فيتولد الفشل في الأمر الذي ينشأ عنه الدمار بخلاف الملك الواحد، فإن مصلحته التي يحافظ عليها هي حفظ ولايته، فلا بد وأن يدوم عمارها وخيرها، وسئل ذات يوم: ما كسب الكذابين؟ فقال: عدم تصديقهم في شيء، وإن وافقوا الواقع، اتفق أنه تصدَّق على شرير فلاموه على ذلك، فقال: إنما تصدقت عليه لكونه من الآحاد لا لكونه شريرًا.

كان دائمًا يقول لتلامذته وأصحابه: العلم للروح، كالنور للعين، وتحصيل

العلوم وإن كان متعبًا مُرًّا، لكن ثمرته حلوة، وكان لما يغضب من الأثينيين يعيرهم بأنكم لما وجدتم القوانين كثيرة كالحنطة حافظتم على الحنطة، ولم تستعملوا أبدًا القوانين، وسُئل ما أسرع الأشياء محوًا من الذهن؟ فقال: المعارف، وفعل الجميل، وشكره، وسئل أيضًا عن الآمال، فقال: كالهوس الذي يراه النائم.

أهدى له ديوجينس تينة فنظر أرسطو في نفسه أنه إن ردها سخر به ديوجينس الذي كان كثير الهزل فأخذها، وقال متبسمًا: ضيع ديوجينس تينته، ولم يفز بمقصوده من عطيته.

كان يقول اللازم للأطفال ثلاثة أشياء: عقل، ورياضة، وتلمذة، كان إذا سُئل عن الفَرْق بين العلماء والجُهَّال، يقول كما بين الأحياء والأموات، كان يقول: إن العلوم زينة في العز وملجأ في الشدة، ومن أحسن تربية الأطفال فهو أولى بهم من آبائهم؛ لأنهم لم ينفعوهم بغير المعيشة، وأما المربون فقد علموهم ما ينتظمون به في سلك السعداء.

كان يقول الجهال أقوى في الوصاية من المراسلات، سئل: ما السبب الذي يقدم التلميذ في المعارف؟ فقال: يُلزِم نفسه دائمًا مساواة من تقدم عليه، ولا ينتظر أن يلحقه من دونه، سمع رجلًا يفتخر بكون من مدينة عظيمة، فقال له: الأولى لك الافتخار بتأهلك لهذا الوطن العظيم.

كان إذا تَفكَّر في معيشة الإنسان، يقول: يوجد أناس منهمكون على جمع الأموال مع الحرص كأنهم لا يموتون أبدًا، وآخرون يسرفون فيها كأنهم يموتون غدًا، كان إذا سُئل: ما هو الحبيب؟ يقول: روح في جسمين، سأله

جماعة؟ بِمَ نعامل أصدقاءنا؟ فقال: بما تحبون أن يعاملوكم به، وكان دائمًا يتأوه، ويقول بأعلى صوته: يا أحبابي، لا أحباب في الدنيا، سأله جماعة: لأي شيء تميل أنفسنا للجمال دون غيره؟ فقال لهم: سؤالكم عن هذا يدلني على أنكم كالعميان الذين لا يبصرون شيئًا.

كان إذا سُئل: ماذا اكتسبت من الفلسفة؟ يقول: هو عملي بالاختيار ما لا يعمله غيري إلا بالخوف من الشرائع، ويُقال: إنه في زمن إقامته بمدينة أثينا اصطحب صحبة عظيمة مع المخالطة بعَالِمٍ من مكان يهوذا فعلمه ذلك العالم علوم المصريين ودينهم، فبذلك لم يفته تعلم علم المصريين، الذي كانت تشد لمصر رحال كافة الناس لأجله، ثم إن أرسطو بعد استمراره بمكتبه ثلاث عشرة سنة، وهو يعلم في غاية الشهرة، اتهمه كاهن من كهنة السنبلة بأنه كافر فخاف أن يُعامل بما عُومل به سقراط، فخرج حالًا من أثينا متوجهًا إلى جزيرة اغريبوس، وقال بعضهم: إنه مات من شدة غيظه؛ بسبب عدم معرفته موجب زيادة المد والجزر في بحر «أوريب»، وزاد آخرون فقالوا: قد ألقى بنفسه في ذلك البحر قائلًا: إذ ذاك إن بحر أوريب ابتلعني لكوني لم أعرفه، وأثبت بعضهم موته بالقولنج، وكان قد بلغ من العمر ثلاثًا وستين سنة، فكان موته بعد موت إسكندر بسنتين.

صنع له أهل مدينة استاجيب مزارًا، وقرّبوا له القربان؛ كالآلهة، وكان أرسطو قد أَوْصَى قبل موته وصية فنفذها انطيباطر، ترك ولدًا يُسمى نيقوماخوس، وبنتًا تزوجت بحفيد ديمارطوس ملك مدينة لقدمونيا.

تاريخ اكسينوقراط الفيلسوف

تولى هذا الفيلسوف بعد اسبوسيب الحكم في مكتب أفلاطون في السنة الثانية من الأولمبياد العاشر بعد المائة، ومكث في الحكم خمسًا وعشرين سنة، وتُوفي في الأولمبياد السادس عشر بعد المائة.

كان من الفلاسفة المشهورين في مكتب أفلاطون، موصوفًا بكمال العقل والاستقامة والعفة، وكان من مدينة يقال لها: خلقدوان، وكان والده يسمى اغاثينور، وكان من ابتداء تعلمه تلميذًا لأفلاطون، واستمر كذلك، وكان دائمًا مشغوفًا به حتى أنه ذهب معه لجزيرة سيسيليا، التي كان أفلاطون يذهب فيها للملك دينيس الظالم، وكان هذه الفيلسوف مع عظم عقله بطيء الفهم ثقيله؛ ولذا كان أفلاطون حين يذكره ويذكر أرسطو يقول: أحدهما يحتاج إلى لجام، والآخر محتاج إلى منخاس. وتارة كان يقول سخرية باكسينوقراط: أي حصان أقطر فيه هذا الحمار.

كان اكسينوقراط سالكًا الصعوبة والجد، وكان أفلاطون يضحك عليه ويسخر منه، ويقول له أحيانًا: يا اكسينوقراط اذهب وقرِّب لأصنام اللطف قُربانًا؛ عسى يحصل لك شيء من آثارها. أفنى عمره وهو عاكف بالمكتب الأفلاطوني، كان حين يسلك فجاج أثينا وحاراتها التي يندر مشيه فيها، يخرج قباح أهل المدينة وينتظرونه بتلك الطرق ليعبثوا به ويخادعوه بأنواع الخداع، فكان هو مع تحيلهم بأنواع المصائب والمكايد على إيقاعه لا تغضبه أفعالهم، ولا توقعه بمحذور؛ لأن الإنسان متى أخذ بأزمة هوى نفسه تصير عنده قضايا التحيلات والمكايد عقيمة، ومما اتفق له أن امرأة يقال لها «افوونه» عقدت رهانًا على أنها تسلب عقله بعشقها، فاتفق أنه شرب مدامًا ذات يوم أزيد من عادته،

فتزينت بأحسن ما وجدت، ودخلت عليه بيته، وأطالت المكث معه، فمع ذلك لم يمكنها أن تصل لشيء من مقصودها، فاغتاظت لضياع سعيها في الهباء المنثور، وظنت أنها تمحو هذا العار بهجوه وذمه الذي هو حيلة المقلين الأشرار.

كان قليل الطمع جدًّا، فاتفق أن إسكندر بعث له جملة من الدراهم، فلم يأخذ منها إلا ثلاثة، ورَدَّ الباقي وقال للرسول الآتي بتلك الهدية: إن إسكندر عنده خلق كثيرون يطعمهم، فيحتاج حينئذ للدراهم أكثر مني. وأيضًا أراد انطيباطر أن يهدي له هدية مثلها، فلما بلغه شكر معروفه ومدحه امتنع ولم يأخذ شيئًا.

أعطي له على سبيل الجائزة وهو بجزيرة سيسليا إكليل ذهب، ليتميز به حيث تميز بزيادة الشرب عن غيره، فلم ينتفع به أصلًا، بل بمجرد ما عاد لمدينة أثينا، أخذ هذا الأكليل ووضعه في أقدام صورة صنمة عطارد وحرره لها، وكان في أغلب الأوقات يهدي لها أكاليل الأزهار.

أرسله الأثينيون مع جملة رسل إلى الملك فيليبس، فلاقاهم وأحسن لهم الملاقاة، حتى استمال قلوبهم وجذبها إليه حتى صيرهم كأنهم تحت أمره ممتثلين لقوله ما عدا اكسنينوقراط، فإنه لم يقبل منه هدية ولم يحضر له وليمة قَطُّ، بل ولا مذاكرته معهم.

فلما رجعوا جميعًا إلى مدينة أثينا قالوا: إنه لم يكن في إرسال اكسينوقراط معنا فائدة؛ لأنه لم ينفعنا في شيء. فاشتد غضب جميع الناس منه، أرادوا الحكم عليه بدفع غرامة، فعند ذلك أظهر للأثينيين ما وقع لرسلهم وأخبرهم بما فعلوه، وأرشدهم إلى الاحتراس منهم جدًّا، وأن يأخذوا حذرهم لئلا تفسد

الجمهورية، وذكر لهم أن فيليبس استمال قلوب الرسل بالهدايا والولائم، أما أنا فلم يصل لاستمالتي بشيء، فعند ذلك انقلبت البغضاء محبة وقابلوه بمزيد الاحترام والتبجيل بعدما شرعوا في معاملته بالإذلال والتنكيل، وصاروا لا يبحثون إلا عما يسره ويعجبه، وشاع خبر هؤلاء الرسل حتى أن فيليبس اعترف بأن رسل الأثينيين قبلوا هداياه ما عدا اكسينوقراط، فإنه لم يقبل منه شيئًا أصلًا.

كان انطيباطر في غزوة مدينة «لاميا» أسر جملة من الأثينيين، فأرسلت جمهورية الأثينيين اكسينوقراط لإنقاذ هؤلاء الأسرى، فلما وصل إلى انطيباطر دعا انطيباطر بالأكل قبل التكلم في شأن الأسرى، فقال له اكسينوقراط: تؤخر المائدة فإني لا أريد طعامًا إلا بعد تخليص أهل بلدي الذي بعثتُ بصدده. فحصل لانطيباطر شفقة من حب اكسينوقراط لوطنه، فأخذا في التكلم في المقصود، فتعجب انطيباطر غاية العجب من مداخلة اكسينوقراط معه، حتى جذبه وتوافقا على إطلاقهم فأطلقوا حالًا.

اتفق أنه كان بجزيرة سيسيليا عند دينيس الظالم، وإذا بالملك يقول لأفلاطون: لا بد من قطع أحد من الناس رأسك. فقال اسكينوقراط: هذا لا يقع أبدًا حتى تقطع رأسي. حضر انطيباطر بمدينة أثينا فذهب يسلم على اكسينوقراط، وكان إذ ذاك مشتغلًا بالكلام في المحفل، فلم يقطع كلامًا ولم يرد تحية، حتى تمم مرامه وكمل كلامه، وكان اسبوسيب من ذرية أفلاطون خليفة على مكتبه، فلما أحس بالكبر والهرم، ورأى أنه قد تعب، وأن العمر انصرم؛ طلب من اكسينوقراط أن يقوم مقامه فرضي بتلك الكرامة، وأخذ يعلم الناس على العموم، وكان إذا جاء مكتبه مَنْ يجهل الموسيقى والهندسة والهيئة، يقول له: اخرج من هذا المحل؛ لأنك جاهل بأساس الفلسفة ولذاتها.

كان اكسينوقراط لا يحب التفاخر والزينة، بل كان دأبه الخمول والعزلة، فكان يمكث كل يوم بعضًا من الساعات معتزلًا عن الناس، كان معتبرًا مهابًا عند الأثينيين، فقد اتفق انه حضر إلى القضاة ذات يوم لأداء شهادة في دعوى أقيمت لديهم، فلما دنا من المحراب ليحلف على صحة شهادته على عادة بلادهم، قام القضاة ومنعوه الحلف، وقالوا له: حيث وثقنا بأخبارك، فلا فائدة لليمين. كان بمدينة أثينا شاب يقال له بوليمون بن فيلوسترات من أعظم أهلها فسادًا، فاتفق دخوله مكتب اكسينوقراط لغرض من الأغراض وهو سكران وعلى رأسه تاج، فكان اكسينوقراط حينئذٍ يحرض على العفة والاستقامة فلم يقطع الكلام، بل زادت همته وقوته في الكلام أكثر مما كان، فاتعظ هذا الشاب جدًّا، حتى أنه من ذلك الوقت شرع في الإقلاع من ذنوبه وصمم على تنجيزه، فنجزه ومهر في الفلسفة؛ حتى صار خليفة اكسينوقراط على المكتب.

ألَّف اكسينوقراط جملة من الكتب نظمًا ونثرًا، وأُتحف إسكندر بواحد منها وافسطيون بواحد، كان لا يعتبر أحدًا أصلًا، فمن ثم كَثُرت أعداؤه في الجمهورية، فأراد الأثينيون إضراره، فعاملوه بالاحتقار وباعوه ليهلك، فاشتراه رجل من أرباب المظاهر بمدينة «فالير» يقال له: دمتريوس. وحرره وتحيل على الأثينيين حتى اقتصروا على عزله.

لما بلغ من العمر اثنتين وثمانين سنة، اتفق ذات ليلة أنه سقط على حوض صادفه تحت رجليه، فمات لوقته، وكانت مدة تعلمه في المكتب اثنتين وعشرين سنة، وكان ابتداء ظهوره في زمن لسيماقوس في الأولمبياد الثاني بعد المائة.

تاريخ ديوجينس الفيلسوف

تُوفي هذا الفيلسوف في السنة الأولى من الأولمبياد الرابع عشر بعد المائة، وعمره تسعون سنة، فعلى هذا تكون ولادته في السنة الثالثة من الأولمبياد الحادي والتسعين، كانت ولادته في الأولمبياد المذكور بمدينة «سينوب» من بلاد «بافيغونيا»، وكان يلقب بالكلبي، واسم أبيه ايزسيوس الصيرفي، فاتهم بأنه كان يصنع مع أبيه الدراهم الخارجية، فقبض على أبيه إلى أن مات في السجن، وأما ديوجينس فمن الرعب فر إلى أثينا، فلما وصل إليها ذهب إلى انتيثينوس فلم يقبله، بل وكزه بالعصا، وذلك أنه كان عازمًا على أن لا يقبل تلامذة أصلًا. فلم يرجع ديوجينس عنه بل طأطأ رأسه، وقال له: اضرب اضرب، ولا تخش شيئًا، فإنك لا تجد عصًا يابسة تطردني عنك ما دمتُ حيًّا. فمن جمود وجهه قبل انتيثينوس أن يتخذه تلميذًا.

ديوجينس هذا اضطر ليتعيش معيشة، فقير متغرب عن وطنه، منفي من بلده، لا يعاونه أحد على معيشته أيًا كان.

رأى ذات يوم فارة تجري آمنة من جهة إلى أخرى، ولم تخش دخول الليل عليها بلا قوت وثقب تبيت به، فتسلى بها على فقره، وعزم أن لا ينهمك في تحصيل معاشه، وأن يترك كل ما لا تتوقف عليه حياته، ثم بطن دلقه لكي إذا التف فيه يكون وطاءً له وغطاء، ولم يكن له من الأمتعة سوى عصا وخُرج وقدح خشب، فكان لا يمشي بدونها، لكن كان لا يتوكأ على العصا، إلا إذا ذهب إلى الفضاء، أو وقت المرض.

وكان يقول: ليس الأصم والأعمى معيبًا من الرجال، إنما المعيب مَنْ لا

خُرج له، وكان حافي الرجلين دائمًا، فلم ينتعل قَطُّ، ولو تغطت الأرض بالثلج، وأراد أن يعود نفسه على أكل اللحم نيئًا فلم يمكنه.

ترجى إنسانًا من معارفه أن يعطي له حجرًا من وطنه ليختلي فيه أحيانًا، فلما طالت المدة ولم يرد له جوابا اتخذ برميلًا وجعله مسكنًا، وصار يأخذه معه أينما توجه لا مسكن له سواه.

كان زمن الصيف وقت اشتداد الحر في سائر المواضع يتدحرج على الرمال الشديدة الحرارة، وزمن الشتاء حين يشتد البرد يلصق جسده بالرخام الذي ستره الثلج، قاصدًا بذلك تعويد نفسه على تحمل مشاق البرد والحر.

كان يحتقر جميع الناس وينسب أفلاطون وتلامذته للتبذير، وكذا كل مَنْ تفكه بالمآكل، وكان يسمى الخطباء عبيد الرعايا، كان يقول: تيجان الملوك سريعة العطب كالزجاج، وحب الظهور ليس إلا فخر المجانين. وبالجملة فلم يسلم أحد من هجوه وذمه.

كان يأكل ويتكلم وينام في أي محل صادفه، وربما قصد إيوان هيكل الشمس ليأكل فيه، ويصيح آه ما أحسن الأثينيين؛ حيث أسسوا هذا المكان اللطيف لآكل فيه.

كان غالبا يقول: متى تأملتُ حقيقة الحكام والحكماء والفلاسفة الذين في الدنيا؛ اعتقدتُ أن الإنسان بعقله يفوق عن البهائم، ولكن من حيثية أخرى حين أرى مَنْ يدعي الوحي والعرافين والمعبرين للأحلام، والذين إذا حصلوا مالًا أو جاهًا تكبروا، فلا أتمالك نفسي أن أظن أنهم أشد الحيوانات جنونًا.

رأى ذات يوم في حال سيره طفلًا يشرب بكفيه، فاستحيى من ذلك جدًّا، وقال: كيف تكون الأطفال أشد معرفة مني بالأشياء التي يدرك التخلي عنها. وأخرج عند ذلك قدحه من خرجه وكسره، حيث رآه متاعًا لا ينفعه، كان يمدح كثيرًا مَن تهيأ للزواج ولم يتزوج، كمدحه لمَن جهز لوازم سفر البحر ولم يسافر به، وكان ينظم في سلكهما مَن طلب لتعاطي الحكم بالجمهورية، فامتنع كمَن دعي لوليمة الملوك والأمراء فنأى عنها.

كان مولعًا بعلوم الأدب، زاهدًا في سائر العلوم الأخر، وكان حاد الذهن قوي المدركة، يستوعب المقام، بحيث لا يبقى لأحد بعده مقالًا فيه، كان رأيه في الزواج لا يرضى به ولا العامة الوحشيون كليًّا؛ لأنه رفض فيه رأي أرباب الشرائع والقوانين السياسية، بل ورفض القوانين الطبيعية، وجعل الخيرة هوى النفس.

كان يقول: متى احتاج الإنسان لشيء وأخذه، فلا ضرر عليه، وكان يود أن لا يحزن أحد من شيء أصلًا. ويقول: تسلية الإنسان نفسه أولى له وأوفق من القبض. وتكلم ذات يوم في مادة جلية نافعة مهمة، فكان الناس يمرون غير ملتفتين لاستماعه، فأخذ يغني، فأسرع الناس من كل جهة لاستماعه، فوبخهم حيث يجتمعون لسماع الهزء، وينفرون من سماع الجد النافع.

كان يتعجب من علماء الأدبيات، حيث يبذلون غاية جهدهم ويعذبون أنفسهم في الوقوف على بعض الوقائع الخرافية الهزلية، التي لا طائل تحتها، ويتركون أنفسهم لا يلتفتون إليها مع ما هم عليه من ضيق الحال.

كان يلوم أرباب الموسيقى والألحان على تحملهم المشقة في تطبيق الموسيقى

والألحان مع بعضها، مع أن عقولهم سيئة الترتيب، بأن الأولى لهم البداءة بتوفيق أحوال عقولهم.

كان يذم أرباب الرياضة على تسليهم برصد الشمس والقمر والكواكب، مع أنهم لم يعرفوا حقيقة ما تحت أرجلهم، ما كان أقل لومًا على الخطباء الذين لا همة لهم إلا تحسين الألفاظ، مع عدم عملهم بما يقولون، كان يلوم أيضًا البخلاء الذين يُظهرون الزهد والقناعة، ويثنون خيرًا على مَن زهد الدنيا، مع أن فكرتهم ليست إلا السعي في جمعها.

ما كان أبشع عنده من الناس الذين يذهبون للهياكل، فيقربون القربانات للآلهة ويدعوتها بحفظ العافية، وإذا خرجوا من تلك الأماكن اتخذوا، ولائم وانهمكوا فيها على لذات وشهوات قاتلة.

كان يقول في السبق إلى طرق الفضيلة اجتمع مع أفلاطون في وليمة بها مآكل عظيمة، فلما رآه لا يأكل سوى الزيتون، قال له: هلا يأكل مثلك على حد سواء من الأطعمة التي لأجلها سافرت إلى سيسليا؟ فقال أفلاطون: إن غذائي بتلك المدنية ما كان إلا الزيتون والكبر، كفعلي بهذه البلاد. فقال له ديوجينس: فلأي شيء ذهبت إلى سراقوسه بجزيرة سيسيليا؟ وبينما بعض أصحاب الملك دينيس الظالم في المحادثة مع أفلاطون في بيته، إذ دخل ديوجينس عليهم فوطأ بقدميه بساطًا ظريفًا لأفلاطون، قائلًا احتقر بفعلي هذا فرش كبر أفلاطون، فقال له أفلاطون: صحيح ولكن صنعك هذا هو عين الكبر.

أراد بعض السوفسطائية أن يظهر دقة عقله لديوجينس، فقال له: إنك لستَ أنا، وأنا رجل، فلستَ أنت برجل. فقال له ديوجينس: لو قلتَ أنتَ

لستَ أنا واقتصرت؛ لانتجت بنفسها، إنك لستَ برجل.

سُئل مرة: هل رأيتَ في بلاد اليونان رجالًا حكماء؟ فقال: رأيتُ صغارًا في مدينة لقدمونيا، فأما الرجال فلم تقع عيني على أحد منهم قط. مشى ذات يوم وقت الظهيرة بمصباح، فسئل عن ذلك، فقال: لعَلِّي أبصر رجلًا.

يحكى أنه صرخ بأعلى صوته في الحارات قائلًا: يا رجال. وصار يكررها حتى انفضت إليه جملة من العالم، فطردهم بعصاه، وقال لهم: أنا أطلب الرجال وما لكم.

اتفق أن ديموثينس أكل ذات يوم في محل السكر، فحانت منه التفاتة فأبصر ديوجينس فاختفى، فلما لمحه ديوجينس قال له: كلما اختفيت في مثل هذا المحل تمكنت فيه. أتى جماعة من الغرباء لزيارة ديموثينس الخطيب فرآهم ديوجينس، فتلقاهم وهو يضحك ويشير بإصبعه ويقول: انظروا جيدًا في خطيب أثينا الطيب.

ذهب مع رجل للفرجة على قصر عظيم الشكل، مزخرف البناء، منقوش بالذهب، مزين بالمرمر، فبعد تحققه منه، تأمله في زينته وحسن شكله، أخذ يسعل سعالًا قويًّا مرتين أو ثلاثًا، حتى جذب نخامة غليظة وألقاها في وجه ذلك الرجل الذي يفرجه، وقال له معتذرًا: إني لم أجد محلًّا وسخًا يصلح للقذارة غير وجهك.

دخل ذات يوم ولحيته قد صارت بين المحلوقة وغيرها على شبان بمكان لعبهم، فأساءوه حتى أخرجوه، فكتب أسماءهم في ورقة وعلقها بين كتفيه، وطاف بها الشوارع والأزقة ليراها الناس فيعرفوهم ويسقطوا من أعينهم. عَيَّره

أراذل الناس بالفقر وعابوه به، فقال لهم: لم أر أحدًا عوقب على فقره، ورأيتُ كثيرًا من الناس أرباب القبائح والخيانات، يعاقبون على خياناتهم وقبائحهم. طالما كان يقول أنفع الأشياء أقلها ثمنا، وذلك أن الصورة قد تبلغ ثلاثة آلاف دينار، ومد الدقيق يباع بيسير الدراهم.

دخل الحمام مرة فوجد ماءً قذرًا بالأوساخ جدًا، فقال: مَن اغتسل هاهنا، فأين يطهر بدنه ويزيل درنه. أخذه بعض أهل مقدونيا ليمثلوه بين يدي الملك فيلبس والد إسكندر الأكبر، فقال له الملك: مَن أنت؟ فقال له على سبيل التهكم: إني جاسوس طمعك. فتعجب الملك من حسن جوابه وفرح وأطلقه، وخلى سبيله، وكان يزعم أن الحكماء لا يحتاجون لشيء أبدًا، وأن سائر ما في الكون في قبضتهم، فكان يقول: إن سائر الأشياء لخالقها والحكماء أحبابه، وما كان بين الأحبة لا حرج فيه، بل هو مباح، فثبت حينئذٍ أن جميع الأشياء للحكماء، وكان وقت الاحتياج يقول: أنا لا أسأل الناس إنما أسأل الخالق.

ويحكى أن إسكندر توجه ذات يوم إلى مدينة قورنثه، للتفرج على ديوجينس لكونه كان هناك في ذاك الوقت، فرآه جالسًا في الشمس يدق برميله، فقال له: أنا الملك إسكندر الأكبر. فقال له ديوجينس: وأنا الكلب ديوجينس. فقال له إسكندر: أما تخافني. فقال له ديوجينس: أنت طيب أو رديء. فقال: بل طيب. فقال ديوجينس: ومَن الذي يخاف من الطيب؟! فعجب إسكندر من وفور عقله وانطلاق عنان لسانه، ثم بعد تحادثهما برهة، قال له إسكندر: إني أرى حاجتك لأشياء كثيرة، ومن سروري وفرحي إعانتك ومساعدتك عليها، فسلني ما تريد. فقال له ديوجينس: تحول من هذه الجهة، فقد منعت عني ضوء الشمس، وقطعت لذتي بها. فصار إسكندر في غاية العجب من زهد ديوجينس

لسائر الأشياء الدنيوية، ثم قال ديوجينس: أيّنا أغنى من هو قانع بعباءته وخرجه، أو الذي لم يقنع بعظيم سلطنته وسعة مملكته، بل اقتحم الأخطار لزيادة حدودها، واشتغل الليل بالنهار بشئونها. فعجب خواص إسكندر من كونه مع عِظَمِه احترم هذا الكلب ديوجينس، ولاطفه وبجَّله مع كون ديوجينس لم يقم له من محله، بل ولا اعتنى به. فلما استشعر إسكندر منهم بذلك التفت لهم، وقال: لو لم أكن الملك أسكندر، لأحببت أن أكون ديوجينس.

اتفق لديوجينس وهو مسافر في البحر لمدينة أجينا أخذ لصوص البحر لها، فساروا به إلى جزيرة كريد، وعرضوه للبيع بالسوق، فلم يتأثر من تلك النكبة التي نزلت بها، وبينما هو كذلك إذا رأى رجلًا اسمه اكزينادس، غليظ الجثة حسن الملبس، فقال لهم: ينبغي أن تبيعوني لهذا؛ لأني أراه يحتاج لمعلم. فلما دنا بقصد سومه قال له ديوجينس: تقدم يا هذا الصبي واشتر لك رجلا -يعني نفسه-. فسئل ماذا تعرف من الأشياء، فقال: سياسة الرجال والحكم عليهم. وقال للمنادي: صح في السوق مَنْ كان محتاجًا لمعلم فليأت لشرائي. وكان بائعه قد منعه الجلوس، ولم يمكنه منه أبدًا، فقال ديوجينس: لا ضرر في ذلك، فإن السـمك يشترى على أية حالة كانت، لكني أتعجب حيث لا يشترى غطاء القدر من النحاس إلا بعد امتحان حسن معدنه برنته، وأما شراء الرجال فيكتفون فيه بنظرهم فقط.

فلما تم سومه قال لمشتريه مع: إني الآن ملكك فاستعد لم آمرك به؛ لأني أكون عندك، إما بمنزلة حكيم أو وكيل، وعلى كلٍ يلزمك طاعتي عبدًا كنتَ أو حرًّا. ثم إن اكزينادس أعطاه أولاده ليعلمهم، فاعتنى بهم ديوجينس غاية الاعتناء حتى حَفَّظَهم غَيْبًا جميع منتخبات الأشعار، وكذلك مختصرًا في الفلسفة

ألفه لأجلهم، وصار يعلمهم الصراع والمسابقة على الخيل، والصيد، والقنص، وضرب القوس، والرمي بالمقلاع، وعوّدهم على القناعة في المعيشة، فكانوا يكتفون باليسير جدًّا، وشرب الماء القراح فقط، وأمرهم باستئصال شعورهم حلقًا إلى البشرة، وكان يأخذهم معه في الطرق عليهم الملابس الخشنة، وأغلب أوقاتهم بلا نعال ولا رداء. وكان لهؤلاء الأطفال مزيد محبة وشدة رغبة في ديوجينس، فكانوا يوصون عليه أهاليهم.

جاءه بعض أصحابه في مدة الأسر والحجر عليه، بقصد إنقاذه وإخراجه من ذل العبودية، فقال له ديوجينس: أَبِكَ جنون أو تهزأ بي، أما علمتَ أن السبع ليس أسيرًا عند مَنْ يطعمه، إنما المطعم للسبع هو أسيره.

سمع ذات يوم مناديًا يقول: إن ديوكسيبس غلب جملة من عظماء الرجال في الألعاب الأولمبيقية، فقال له: لا بل قل غلب جماعة من الأرقاء المساكين؛ لأن الذي غلب الرجال إنما هو أنا فقط.

كان إذا قيل له الآن ينبغي لك الاستراحة، فإنك صرت شيخًا هرمًا يقول: أترى الناس يشيرون على مَنْ يجري بما ينشطهن أو بما يثبطه، أفليس المناسب لي أن أبذل جميع قوتي. رأى وهو مار في الطريق رجلًا وقعت منه كسرة خبز، فاستحى أن يرفعها، فالتقط ديوجينس بعض قطع زجاجة مكسورة ودار بها في المدينة، قاصدًا بذلك أن الإنسان لا ينبغي له الحياء من شيء، حيث كان عرضه عدم الخسارة. وكان يقول: مثلي كمثل أرباب الألحان، يعلم غيره الصوت الحسن بالانتقال إلى غيره.

جاءه رجل يريد أن يكون تلميذه، فناوله ديوجينس فخذ خنزير، وأمره أن

يمشي به خلفه في أزقة المدينة، فاستحى الرجل ورمى به إلى الأرض وذهب، فرآه ديوجينس بعد مدة فقال له: ما أعجب حالك حيث كان الفخذ قاطعًا لمحبتنا.

رأى في سياحته امرأة خاضعة ساجدة أمام الأصنام، مكشوفة العجيزة، فأسرع إليها ديوجينس وقال: أما تخافي أيتها المسكينة كون المعبود الذي يبصر خلفك كما يبصر أمامك يراك على حالة مخلة بالحياء. كان إذا تفكر في معيشته وفقره يقول ضاحكًا: سائر أنواع اللوم والمعايب قد لحقتني، وإني وإن كنت لا دار لي ولا مدينة ولا وطن، وأتقوت يومًا بيوم، فإني جلد على مقاومة صروف الدهر، أقابل المال بالثبات والعفة، وأقابل العوائد بالحالة الفطرية الخلقية، وأقابل تكدرات النفس بالتدبير والعقل.

سأله رجل عن الوقت الذي يأكل فيه، فقال له: إن كنتَ غنيًا، فكُلْ في الساعة التي تعجبك، وإن كنتَ فقيرًا، فكُلْ في الوقت الذي يمكنك.

ترجاه الأثينيون أن يكون من حزبهم، ويتدين بأسرار ديانتهم، وحلفوا له أن مَنْ دخل في دينهم يكون من السعادة الأخروية في أعلى عليين، فقال لهم: إن هذا الأمر عجيب، حيث إن عقلاء الناس تدوم في الطين، والمتداخلين في طريقتكم مع شقائهم يحظون بجنان الخلد.

كان من عادته تعطير أقدامه، فسئل عن ذلك، فقال: إن رائحة العطر الذي يوضع في الرأس تطير في الهواء، بخلاف ما إذا عطرت الأقدام، فإن الروائح تصعد إلى الأنف.

اتفق أنه مرَّ بدار لأحد الخصيان القباح، فوجد مكتوبًا على بابها: لا يدخل

من هذا الباب شيء قبيح. فقال: فمَن أين يدخل صاحب الدار؟!

أراد بعض الفلاسفة أن يبرهن له على أن لا حركة له، فلم يجبه بل قام وتماشى، فقال له: ذلك الفلسفي ماذا تريد بمشيك؟ فقال: إبطال دعواك. كان إذا سمع متكلمًا في علم الهيئة والنجوم يقول له: متى كان نزولك من السماء؟

كان أفلاطون يقرر في تعريف الإنسان أنه حيوان ذو رجلين، لا ريش له، فأخذ ديوجينس ديكًا ونتفه وخبأه تحت عباءته، ولما دخل المكتب، أخرجه وطرحه وسط المكتب، وقال: هذا إنسان أفلاطون. فالتزم أفلاطون لتصحيح تعريفه أن يزيد ذو أظافر عريضة.

مَرَّ ذات يوم بمدينة ميغاره، فرأى أطفالهم جميعًا عرايا، ورأى الغنم مستورة بالصوف، فقال: غنم هذه المدينة أسعد من بني آدم. رأى الفيران الصغار تلتقط فتات طعامه من تحت السفرة وهو يأكل، فقال: قد بلغ ديوجينس أن صارت تأتي له الطفيلية.

سُئل وهو خارج من الحمام: أفي الحمام كثير من الرجال يغتسلون؟ فقال: لا، فقيل له: أفيه ازدحام عظيم؟ فقال: نعم. دُعي لوليمة فامتنع لكونه حضر إليها في اليوم السابق، ولم يثن عليه أحد في نظير حضوره.

اتفق أن رجلًا كان يحمل خشبة طويلة على ظهره، فصدمه بها على حين غفلة، ثم قال له: قِ نفسك. فقال له ديوجينس: قد ضربتني ثانية. وحصلت له واقعة نظير هذه مرة ثانية، فضرب حامل الخشبة بعصاه، وقال: كن أنت على حذر.

مَرَّ في مطر غزير فابتلت عباءته من جميع جهاتها، حتى رثى لحاله جميع من رآه، وكان أفلاطون إذ ذاك حاضرًا بالمصادفة، فقال لهم أفلاطون: إنما يحزنه ذلك حقيقة إذا لم يره عليه أحد منكم. صفعه رجل ذات يوم، فقال: إني لا أعلم أنه يلزمني أن أضع على رأسي سلاحًا يقيه. سُئل مرة: كم تأخذ نظير الصفعة الواحدة من ضاربك؟ فقال: بيضة حرب.

اتفق أن ميدياس لكزه ذات يوم جملة لكزات بيده، ثم قال له: اذهب فاشكني وأنت تدفع ثلاثة آلاف دينار غرامة. ففي ثاني يوم أخذ ديوجينس قضيب حديد، وضرب ميدياس به على رأسه ضربة شديدة، وقال له: اذهب فاشكني وأنت تدفع نظير تلك الغرامة.

سأله لوسياس العقاقيري: هل تعتقد وجود إله؟ فقال له: أيخفى عليَّ مع معرفتي أنه عدوك الأكبر. ورأى رجلًا ينغمس في الماء ليتطهر، فقال له: يا مسكين، لو اغتسلت إلى غد بهذا الماء، لم يعصم لسانك بذلك عن الخطأ، فكيف يطهرك من الذنوب.

رأى غلامًا في حالة مخلة بالحياء، فسار إلى معلمه وضربه بالعصا، وقال له: لِمَ علَّمت تلميذك الفعلة القبيحة. أتاه رجل ليريه حسابًا عمله في برج من الأبراج السماوية، فقال له ديوجينس: هذا شيء ظريف يمنع مثلنا أن يموت جوعًا. كان يلوم الذين يشكون المعيشة، ويقول: هؤلاء الرجال دائمًا يطلبون ما ظاهره خير، ويتركون ما هو الخير في الواقع والحقيقة.

كان يعرف استحسان كثير من الناس لمعيشته، ولكن لما رأى القليل منهم شرع يقلده قال: إني كلب عظيم، ولكن لم يتجاسر الذين يعرفوني ويستحسنون

طريقتي على الانضمام إليَّ للصيد. كان دائما يلوم الذين يتطيرون من الأحلام، ولا يتأملون ما يخطر ببالهم في اليقظة، فيعبرون الخطرات النومية، وبينما هو يتنزه ذات يوم رأى محفة جميلة ظريفة بها امرأة، فقال أيليق أن يكون مثل هذا قفصًا لمثل هذا الحيوان القبيح.

كان الأثينيون يحترمونه احترامًا كليًّا، حتى إنهم عاقبوا شابًّا بملأ من الناس كان قد كسر برميل ديوجينس وأعطوه برميلًا آخر. كان جميع الناس يغبطون قاليثينس على أكله مع إسكندر غداءً وعشاءً، أما ديوجينس فكان يقول: أما أنا فإني أرثي لحاله في ذلك بخصوصه، وكان اقراطير يبذل جهده في التحيل على جلب ديوجينس عنده، فقال له ديوجينس: أما أنا فأختار أكل الخبز فقط بأثينا على تعيشي في عز قصورك.

وهدد بيرديقاس ذات يوم ديوجينس بالقتل إن لم يأت لزيارته، فقال له: أقل الهوام السمية يمكنه ذلك، ولكني أحلف لك أن ديوجينس ليس محتاجًا في راحته لبيرديقاس بالكلية ولا لعظمه، ثم صاح، وقال: إن الخيرات الإلهية كثيرة أنعمت على سائر الرجال بالأرواح، وأما اللذات المعنوية فمجهولة عند الناس الذين لا همة لهم إلا المآكل اللطيفة والتعطرات. رأى ذات يوم رجلًا يُلبسه عبده نعله، فقال له: إنه لم يبقَ لك عليه من أنواع السرور إلا أن يمخطك فما منفعة يديك، ورأى مرة حين سياحته قضاة يحكمون في رجل سرق جامة في الخزينة العمومية، فقال: انظروا هؤلاء لصوص كبار ساحبون لصًّا صغيرًا.

كان يقول: إن الغني الجاهل كشاة مُغطاة بجل من ذهب، وكان ذات يوم في وسط السوق فصار يخمش بدنه بأظافره، ويقول: ليت كثرة ذلك في البطن يمنع بها الإنسان جوعه وقت ما يجب. دخل ذات يوم الحمام فرأى شابًّا يتحرك

بحركات متوازنة لكنها مُخلة بالحياء، فقال له: كلما أتقنت حركتك وأحكمتها زادت بك قلة الحياء.

مَرَّ بالطريق مرة فرأى مكتوبًا على باب بيت رجل مُسرف أنه معرض للبيع فقال: إني من قبل ذلك أعرف جيدًا أن كثرة السُّكر تُوجب صاحبك للقيء. لامه رجل في التغرب بالبلاد، فقال له: يا أيها المسكين إني مسرور بذلك جدًّا، حيث كان سببًا لصيرورتي فلسفيًّا. وقال له رجل آخر بعد ذلك بقليل: إن السيبنيين يحكمون عليك بالنفي الدائم، فقال: وأنا كذلك حكمت عليهم بالبقاء الدائم في بلدهم القبيحة على شاطئ البحر الأسود.

وكان يترجى الأصنام أن يُمنوا عليه باللطف فسُئل عن سبب طلب ذلك منها، فقال: لأعوِّد نفسي على أن لا أجاب فيما أطلب، ولما كان فقره يحوجه إلى طلب الصدقة يقول لمن يراه أولًا: إن كنت قد أعطيت أحدًا غيري شيئًا فاعطني مثله، وإن لم تكن أعطيت أحدًا شيئًا فاجعلني أول من تعطيه.

سُئل ذات يوم عن طريقة دينيس الظالم مع أصحابه، فقال: كان يصنع معهم كالإنسان الذي يستعمل الزجاج في حال امتلائه، ثم يتركه بعد فراغه. لمح بالخَمَّارة رجلًا قد أسرف في ماله وضيَّعه وهو يتعشى بالزيتون فقط، فقال له: لو كان فطورك على مثل هذا الطعام لكان عشاؤك أحسن من هذا. قال الشهوات غير الملايمة تصير منبع جميع المصائب التي تقاسيها البشرية.

وكان يقول: الصلحاء من الناس هم مظهر الآلهة. وكان يقول: إن البطن آفة العمر. كان يقول: إن الكلام الحسن المرتب كسيلان العسل، وإن العشق شغل أهل البطالة.

سُئل ما أسوأ الحالات قال: الهرم مع الفقر. سُئل أي شيء أحسن في الدنيا قال: الحرية، وتجاسر عليه رجل وسأله ما أشد الحيوانات عَضًّا؟ فقال: أما من الناس المتوحشين فالرجل السباب، وأما من المتمدنين فالرجل المداهن. رأى في سياحته نسوة متعلقة بفروع الزيتون، فقال: ليت سائر أشجار الزيتون تثمر مثل هذه الفاكهة دائمًا. أتاه إنسان وسأله ما السن الذي يستحق الإنسان الزواج فيه، فقال له: ما دام الإنسان صغيرًا، فإن وقت زواجه لم يأتِ ومتى صار كبيرًا فقد فات وقته. سُئل ما سبب اصفرار الذهب، فقال: كثرة حُسَّاده. قيل له ذات يوم: إن عبدك مينيس قد هرب، وألحوا عليه في طلبه، فقال: يا عجبًا لكم، حيث إن أحدنا لا غنى له عن الآخر، فما يكون جربي، وسأله أحد الظلمة ذات يوم عن أجود معدن لصناعة الأصنام؟ فقال: هو المعدن الذي صُنعت منه صورة هرموديوس واستيوجيتون اللذين هما أشد أعداء الظلمة. بينما أفلاطون -ذات يوم- يوضح آراءه في بعض مباحث، فتكلم على شكل لوح الطاولة والقدح، فقال له ديوجينس: إني بالمشاهدة أتصور حقيقتهما جيدًا، ولكن لا أدري شكلهما، فقال له أفلاطون: صدقت؛ لأن معرفتهما بالمشاهدة لا يلزم لها إلا البصر، وأما معرفة أشكالهما فمتوقفة على الذهن.

سُئل ذات يوم عن سقراط، فقال: هو رجل مجنون. رأى شابًا قد احمر وجهه جدًا من الخجل،فقال له: هكذا هكذا يا بني، فإن هذا لون الفضيلة. جاءه ذات يوم اثنان من الفقهاء ليحكماه بينهما فحكم بالمعاقبة عليهما معًا، وذلك أن أحدهما كان متهمًا بالسرقة، والآخر كانت شكواه بلا سبب، حيث إن المسروق ليس ملكه، بل كان لآخر وسرقه منه، وسُئل عن سبب تصدق الناس على العمي والعرج، وعدم تصدقهم على الفلاسفة، فقال: إن سائر الناس متأهلون للعمى والعرج، وليس كل أحد أهلًا للفلسفة، وسأله رجل ألك خادم.

أو خادمة؟ فأجابه لا، فقال له: فمن يدفنك؟ فأجاب: من احتاج لبيتي.

تجرأ عليه رجل، وقال له: إنك كنت تصنع الدراهم المغشوشة، فقال له: نعم كنت في السابق كما أنت الآن، ولكن ما أنا عليه الآن لا تصله طول عمرك. دخل ذات يوم مدرسة أحد المعلمين فوجد فيها قليلًا من التلامذة، وكثيرًا من صور من اخترع الفنون اللطيفة، فقال له ديوجينس: إذا حسبنا تلك الصور تكون تلامذتك كثيرة. سُئل من أي بلد أنت؟ فقال: من الدنيا، يُشير بذلك إلى أن العاقل لا يحتاج للتعلق ببلدة مخصوصة.

رأى رجلًا مُسرفًا مارًّا بطريق فسأله دينارًا، فقال له ذلك المسرف: لمِ طلبت مني دينارًا، وتطلب من غيري درهمًا فقط؟ فقال: لأنه يعطيني مرة ثانية، وأشك في أني أجدك بعد ذلك على حال تعطيني فيها مرة أخرى. وسُئل يومًا: هل الموت مؤلم؟ فقال: إنَّا لا نحس به وقت وقوعه، فكيف يمكن أن يكون مؤلمًا. رأى يومًا رجلًا لا يُحسن الرمي وهو يُصوِّب بآلة رميه إلى غرض فأسرع ديوجينس إلى ذلك الغرض، وجعل رأسه أمامه، فسُئل: لمِ ذلك؟ فقال: مخافة أن يصيبني.

لما كان يُقال له: إن كثيرًا من الناس يهزءون بك، يقول: وماذا يضرني مع أني أريد ذلك، وأظن أن الحمير حين تضرب أسنانها وتبرزها وقت نهيقها، إنما تفعل ذلك للضحك على مثل هؤلاء الناس، فقيل له: وهل يكترث مثل هؤلاء بما تصنعه الحمير؟ فقال: كيف أكترث أنا بهم.

سُئل ذات يوم لمِ لَقَّبوك كلبًا؟ فقال: لأني أتملق لمن يعطيني، وأنبح على من منعني، وأعض من يؤذيني. سُئل من أي أنواع الكلاب أنت؟ فقال: أكون

وقت جوعي من جنس السلاق أتلاعب لجميع الناس، ووقت شبعي كالكلب العقور أعض كل من قابلني، ورأى انكسمينس الخطيب مارًّا بالطريق، وكان كبير البطن جدًّا، فقال له ديوجينس: أعطني بعض بطنك تصنع معي جميلًا كبيرًا، ويخف عنك هذا الثقل، ولما كانوا يعيِّرونه بالأكل في الطرق والأسواق، يقول لهم: إن الجوع يعتريني هناك كما يعتريني في محال آخر.

لما رجع من مدينة لقدمونيا إلى مدينة أثينا سُئل من أين جئت؟ فقال: من مدينة الرجال إلى مدينة النساء. كانت عادته أن يُشبِّه معشوقات الملوك بنبيذ عظيم مسموم، وكان يُسميهن سلاطين الملوك؛ لأنهن ينلن منهم كلما طلبن. تعجب بحضرته يومًا رجل من كثرة الهدايا الموجودة بهيكل العافية، فقال له ديوجينس: يا هذا، لو كانت الهدايا ممن يموت لوجد به أكثر من ذلك، واجتمع حوله جماعة، وهو يأكل وسط الطريق ونادوه باسم الكلب، فقال: بل أنتم الكلاب؛ لأنكم اجتمعتم حول من يأكل.

تقابل مع رجل من المصارعين لا معرفة له، وكاد يموت جوعًا؛ فشرع يجعل نفسه حكيمًا، فقال له ديوجينس: الآن قد وجدت طريقة لأخذ ثأرك ممن كانوا يضربونك. كان عنده لرجل عباءة فطلبها منه، فقال له ديوجينس: إن كنت ملكتها لي فقد صارت ملكي، وإن كنت ما أعطيتها لي إلا عارية، فأنا الآن مستعملها، فاصبر حتى لا يكون لي بها حاجة، ولما كانوا يلومونه بالشرب في الخَمَّارة، يقول: وها أنا أحلق رأسي في حانوت الحلاق، وأحسن إليه رجل فسمع الناس يثنون عليه، بذلك فقال: الأوفق شكرهم لي؛ لأني مستحق لتلك العطية.

سُئل ماذا ربحت من فلسفتك؟ فقال: لو لم تنفعني إلا في التجلد على تَحمل المشاق التي من البعيد تَزوها بي لكفى في سروري منها. لما علم أن الأثينين

أعلنوا بأن إسكندر هو «بخوس» يعني: إله الشراب، قال لهم مستهزئًا: وأنا لم تجعلوني «سيرابيس» يعني: إله النار. لاموه على الإقامة بالأماكن القذرة، فقال: الشمس تدخل في أماكن أقذر من هذه بكثير ولا تتسخ.

تجرأ عليه رجل، وقال له: حيث إنك لا تعرف شيئًا، فكيف تجرأت بجعل نفسك في رتبة الفلاسفة؟ فقال: لو لم يكن لي من الفضل إلا تشبهي بهم، لكفى في عدي منهم. أتوه بتلميذ يومًا ومدحوه له بالعقل والمعارف والنباهة والأخلاق الحميدة، فتأنى ديوجينس حتى أتموا كلامهم، ثم قال لهم: حيث كان كاملًا جدًّا فلا حاجة له بي، ولمَ جئتم به إليَّ، ودخل متفرجًا عند خروج الناس منه، فسئل: لمَ ذلك؟ فقال: هذا ما عَوَّدت عليه نفسي طول عمري.

لما طرد دينيس الظالم من مملكته المساة سيراقوسه، وذهب إلى مدينة قورنثه، وأداه فقره إلى تعليم الشباب كي لا يموت جوعًا، دخل مدرسته ديوجينس ذات يوم فسمع تصويت الأولاد، فظن دينيس أنه جاء ليسليه على فقره، فقال لديوجينس: قد شكرت معروفك فانظر تقلبات الدنيا، فقال له ديوجينس: يا مسكين، إني متعجب من حياتك إلى الآن ألست الذي عسفت في الظلم بأهل مملكتك، وإني الآن أراك لا تصلح أن تكون معلمًا في المكتب، كما أنك لم تصلح ملكًا، ورأى ذات يوم أناسًا يقربون قُربانا للآلهة رجاء أن يرزقوا بغلام، فقال لهم: إنكم تفكرتم في الغلام ولم تتفكروا أن يكون صالحًا.

رأى شابًا يتكلم مع قلة الحياء، فقال له: أما تستحي، حيث تخرج من قراب العاج سلاحًا من الرصاص. كان يقول: إن الذين يعلمون الصلاح، ولا يعملون به، كمثل آلات الموسيقى تخرج منها أصوات مطربة ولا إحساس عندها. قال له رجل ألم أصلح للفلسفة؟ فقال له: يا مسكين، حيث لا ترجو

معيشة طيبة فَلِمَ حياتك. رأى شابًا يصنع شيئًا مع قلة الحياء، فقال له، أما تستحي تبخس ما أنعم عليك به خالقك.

كان يقول أغلب العالم في ذلة، وذلك أن العبيد في طاعة ساداتهم، والسادات في هوى أنفسهم وسائر الأشياء متقومة بالعوائد فبعض الناس عودوا أنفسهم على المعيشة اللذيذة والفخر والحظ بالشهوات، فلا يمكنهم أن يتحولوا عنها أبدًا، والبعض الآخر عاشوا على احتقار التلذذات والشهوات.

في مذهبه الكلبي أن الحياء من ضعف النفس، ولذلك كان لا يستحي من صُنع أقبح الأشياء أمام الناس، ويقول: إن الأكل شيء عظيم فما يمنع الإنسان أن يأكل في الطرق والأسواق كأكله في بيته. سُئل أي محل تريد أن تُدفن فيه بعد موتكم؟ فقال: في وسط الخلاء، فقيل له: أفلا تخاف أن تكون غنيمة الطيور والوحوش؟ فقال: ضعوا بجنبي عصا كي أطردها بها حين تأتي، فقيل له: إنك إذ ذاك لا إحساس عندك، فقال: حينئذٍ ما الضرر في كونها تأكلني.

قال بعضهم أنه لما بلغ عمره تسعين سنة أكل فخذ بقرة نيئًا فنشأ له عنه تُخمة فتوفي بها، وقيل: إنه حين صار هرمًا قَتَل نفسه بأن جذب نفسه ولم يخرجه، فذهب إليه أصحابه في الصباح ولما وجدوا عادته في الانتباه من النوم تغيرت ووجدوه مُلتفًا بعباءته كشفوها فإذا هو ميت فتنازعوا أيهم يجهز جنازته، حتى أدّى للعراك، فأتى القضاة وأكابر مدينة قورنثه وسكنوهم، وشهدوا جنازته العظيمة، ودفنوه بجانب باب المدينة جهة البرزخ، ونصبوا بجانب قبره عمودًا من رخام فوقه صورة كلب من رخام جزيرة «باروس»، وكان موته وموت إسكندر الأكبر الذي مات في بابل في يوم واحد، وكان ذلك في الأولمبياد الرابع عشر بعد المائة، وأهدي إلى قبر ديوجينس جملة صور عظيمة مكتوب عليها.

تاريخ أقراطيس الفيلسوف

كان عصريًا لبوليمون، وخليفة أكسينوقراط في المكتب الأفلاطوني، وكان موجودًا في الأولمبياد الثالث عشر بعد المائة.

كان من الفلاسفة الكلبية، وهو من أجلِّ تلامذة الشهير ديوجينس، وهو ابن اسقوندوس الطيوي، وكان من عائلة شهيرة جدًّا، وكان من أرباب الأموال الكثيرة.

كان ذات يوم بمحل لعب فرأى تيلفوس ترك أمواله لأجل أن يكون فلسفيًا كلبيًا، فتأثر هو من ذلك وصمم على التشبه به فباع عقارات وطنه بأكثر من مائتي دينار وأودعها عند أحد الصيارفة، وقال له: إن رأيت عقول أولادي لا تصلح للفلسفة فادفعها إليهم وإلا ففرقها على أهالي «طيوا» لما أن الفلاسفة لا احتياج لهم إلى المال فأتاه أهله وترجوه أن يعدل عما شرع فيه إلى غيره فطردهم من داره وضربهم بعصاه.

كان يلبس في الصيف عباءة ثقيلة جدًّا، ويلبس في الشتاء ثيابًا خفيفة جدًّا؛ ليتعود على مشاق الحر والبرد، وكان لا يستحي أن يتقصد دخول البيوت والتلفت فيها، حتى إذا رأى ما لا يعجبه وبَّخ صاحبه عليه فيتمرن على ذلك، وكان يمشي خلف الأسافل ويسبهم ليسبوه فيتعود مقاساة نحو هذه الأحوال، وكان ضنك المعيشة جدًّا، وما شرب غير قراح الماء كبقية الفلاسفة الكلبيين.

كان في زمنه ميتروقليس الخطيب الذي كان لا يمكنه أن يظهر لعموم الناس؛ لأنه كان سلس الريح ويعسر عليه منعه، فمن شدة خجله لزم العُزلة بمنزله، وصمم عليها بقية عمره، فلما سمع بذلك أقراطيس أكل ترمسًا حتى

ملأت الأرياح بطنه، فذهب إلى منزل ميتروقليس وكلّمه كلمات ظريفة؛ ليظهر له أنه لا ينبغي هذا الحياء، وقال له: حيث لم يقع منك إلا كما يقع من كل أحد فما الحياء من الأمر العام. وبينما هو يكلمه إذا بالترمس أثّر أثره فتقوى هذا الخطيب بما صنعه أقراطيس حتى عاد يلوم نفسه، وصار لا يبالي بلوم الناس على مثل ذلك، وتعلق تعلقًا كليًا بأقراطيس، حتى حرق جميع كتبه التي تعلمها من تيوفراسط، وتبع مذهب الكلبية حتى ربى تلامذة كثيرة، وصار محترمًا عند الفلاسفة، واشتهرت تلامذته شُهرة عظيمة في سائر اليونان؛ ولكن لما أحسّ باهرم سَئِمَ الحياة، وقتل نفسه خنقًا.

كان أقراطيس بشع المنظر جدًّا، حتى يظهر أن قباحته ورداءته خارقة للعادة، وكان يخيط على عباءته جلود الغنم؛ فلذا كان عند أول رؤيته يصعب تمييزه من أي نوع من أنواع الحيوانات، وكان ماهرًا جدًّا في الألعاب، وكان إذا حضر المحافل العامة لمصارعة ونحوها لم يتمالك الحاضرون منع أنفسهم من الضحك عليه؛ لقُبح وجهه وملبسه الخارج عن العادة، وكان هو لا يبالي بذلك، ويرفع يديه يصيح: تصبر يا أقراطيس، فإن الذين يسخرون منك ويهزءون بك الآن سيكون غدًا، ويحسدونك حين يعرفون جُبن أنفسهم، وأنت تجد نفسك بذلك سعيدًا.

ذهب ذات يوم ليترجى بعض المعلمين أن يُنعم على أحد تلامذته بالصفح، فَقَبّل فخذه بدلًا عن تقبيل ركبته المعتاد، فاستغرب هذا المعلم ذلك وظهر غمه منه، فقال له أقراطيس: لا يضرك ذلك أليس فخذك كركبتك. كان يقول: يستحيل أن يجد الإنسان أحدًا لم يُذنب أصلًا، ولا يقدح في ظرافة الرمانة بعض الحبات العفنة.

كان يحثُّ تلامذته على عدم التعلق بزهرة الدنيا أصلًا، ويقول لهم: أنا لم أدرك من الدنيا إلا ما تعلمته، وتركت سواه للذين يحبون فخر الدنيا. كان كثيرًا ما يحملهم على الهروب من حظوظ الدنيا بقوله: لا يليق للفلسفي من الأوصاف إلا الحرية، ولا مالك أصعب من الشهوة. كان يقول: إن الجوع كافٍ في إذهاب العشق، فإن لم يذهبه في مبدأ أمره قطع عرقه في العاقبة، فإن لم يذهبه الجوع، فلا حيلة في إذهابه إلا قتل الإنسان نفسه.

كان إذا نظر في أخلاق أهل عصره الفاسدة عيَّرهم بالسفه، حيث يصرفون أموالهم في النقائص الملايمة لشهواتهم، ويتأثرون على أقل قليل يصرف في محله. ألَّف رسالة في عوائد أهل بلاده، وقال فيها ما نصه: عطية الطباخ عشرة دنانير، وعطية الحكيم درهم واحد، وعطية المتملق مقدار عظيم، وعطية الناصح كالهباء، وعطية الزواني أموال جسيمة، وأما نصيب الفيلسوف عندهم فهو فلس.

كان إذا سُئل: ماذا اكتسبت من الفلسفة؟ يقول: معرفة أني أتعود على الاكتفاء في الغذاء بالبقول، وأن أعيش بلا هم وحيرة. أرسل له ديمتريوس الفاليري ذات يوم مقدارًا من النبيذ والخبز فغضب جدًّا من توهم ديمتريوس أن الفيلسوفي يحتاج للنبيذ، وردَّ إليه زجاجته بحالها مع الأنفة والشدة، وقال: ليت الخبز بهذه البلاد يجري كما يجري النبيذ.

لما كان أقراطيس قد بلغ الغاية في الجسارة والتمكن من أغراضه أعجب غاية التعجب «هوبرخيا» أخت ميتروقليس، حتى أنها لم تمل لسائر من خطبها من عظماء الناس، وهددت أهلها بأنهم إن لم يُزوجوها بأقراطيس لتقتلن نفسها، فاحتال أهلها على إزالة ذلك من ذهنها فلم يجد تحيلهم شيئًا، فسعوا إلى نفس

أقراطيس، وطلبوا منه بإلحاح ألّا يجيبها لما طلبت، فلما لم يمكنه توفية مرامه معها، قام لها على قدميه وخلع ثيابه ليريها احدوداب ظهره واعوجاج أعضائه، وطرح عباءته وخُرجه وعصاه إلى الأرض، وقال لها: لأجل أن لا تغتري هذا متاع الذي تريدين التزوج به، وما يملكه من الدنيا، فإن أحببتِ، تزوجي فلا تظني أن يساري أكثر من ذلك، أو أني أطلب غيره فلم تتردد في زواجه، بل بادرت بإيثاره على جميع طلابها الآن، ومن تظن طلبه لها غدًا، ولازمته في سائر المحلات، حتى في حضور جميع المحافل.

بينما هي معه ذات يوم في وليمة عند ليساقوس شرعت في قياس سفسطائي تخاطب به تيودورس الحاضر بهذه الوليمة، فقالت: إذا عمل تيودورس بعض الأشياء ولم يلم عليها. فهويرخيا إذا عملت هذا الشيء بعينه لا ينبغي أن تلام عليه، وتيودورس لما ضرب نفسه بيده لم يعمل شيء يُلام عليه. فهويرخيا إذا صفعت تيودورس على قفاه بهذه الضربة لا تُلام وصفعته بكفها فلم يجبها عن هذا القياس بشيء في الحال، ولكن أخذ عباءتها من فوق كتفها، وقال: انظروا هذه المرأة التي تركت فرشها وجمالتها إلى هذا، فقالت له: صحيح، ولكن أتظن أني أخطأت، حيث قدمت الفلسفة على سائر ما تصنعه النساء.

وُلِدَ لها من هذا الزواج العظيم غلام يُسمى «باسقليس»، وكان أبوه وأمه معتنيين بتربيته وتعليمه الفلسفة الكلبية. سأل إسكندر أقراطيس ذات يوم، فقال له: أتراني إذا أعدت لك تجديد مدينة وطنك كما كانت يحصل لك سرور؟ فقال له: هذا غير لازم لأني لا آمن أن يأتي إسكندر آخر فيهدمها ثانيًا.

كان أقراطيس يقول: لا أحسن ولا أفخر من التوطن في الفقر، وازدراء سائر المفاخر فلا يكون للدنيا تسلط، وإني أعيش معيشة ديوجينس لا أحسد

أحدًا على لذات الدنيا. كان يقول: إن أغنى الأكابر العظام، مثل الشجر الذي ينبت على رءوس الجبال، والصخرات الوعرة التي لا يمكن أن يصل لثمارها غير الغراب والحداة؛ فحينئذٍ لا ينتفع بتلك الأموال إلا المتملقون من الرجال، والقباح من النساء، فالغني حينئذٍ بين هؤلاء بمنزلة عجل بين قطيع من الذئاب.

لما كان يسأل عن مقدار الزمن الذي يُحصل فيه الإنسان الفلسفة، يقول: حتى يعرف أن الناس الذين يسوسون الجيوش ليسوا إلا كقادة الحمر. كانت طريقته كبقية الفلاسفة الكلبية إهمال سائر العلوم ما عدا علم الآداب. وعَمَّر زمنًا طويلًا حتى مَسَّه الهرم جدًّا وانحنى ظهره، ولما أحس بأن أجله قد دنا، قال: متأوهًا متفكرًا يا ذا القتب، من بعد أن عشت زمانًا طويلًا توضع في القبر عن قريب، وتنظر هناك قصور جهنم، وتوفي على غاية من الهرم في وقت عزه وشهرته، وكانت وفاته تقريبًا في الأولمبياد الثالث عشر بعد المائة، وكان في ذلك الوقت ظاهرًا مشهورًا في مدينة «طيوا» حتى غطى اسمه ذكر الكلبيين من أهل عصره، وهو الذي عَلَّم «زينون» الفيلسوف رئيس الفلاسفة الشاكين.

تاريخ بيرهون الفيلسوف

كان موجودًا قبل زمن أبيقورس قريبًا من الأولمبياد العشرين بعد المائة، وكان بيرهون مخترع المذهب المسمى بيرهوني واسقيطيقي وهو مذهب المشككة، وأبوه أفليسطرقس من «مورا»، واجتهد في أول أمره بالنقش والتصوير، ثم بعد ذلك صار تلميذًا لادريزون، ومن بعده تتلمذ لانكسرخوس الفيلسوف، وتعلق به كليًا، حتى تبعه في السفر إلى بلاد الهند، وفي مدة سفره كان له اشتياق كلي إلى مجاورة المجوس وغيرهم من حكماء المشرق، ومن بعد أن تعلم جميع مذاهبهم لم يكفه ذلك؛ بل ظهر له أن سائر الأشياء غير مدركة الحقائق، وأن الحقيقة مخفية في هُوٍّ لا قرار له، وأنه لا أصوب من الشك في كل شيء وعدم القطع بشيء.

كان يقول: إن الناس في ترتيب معائشهم يسلكون عوائد بلادهم، وإن كل إنسان لا يفعل شيئًا إلا بحسب العادات، ويمارس كل الأشياء على حسب القوانين والعوائد المؤسسة في كل بلد من غير ما يدري أن هذه القوانين جيدة أو رديئة.

كان في ابتداء أمره فقيرًا خاملًا، فلما أخذ في صناعة التصوير، ومكث مدة طويلة في بلده يشتغل بتلك الصنعة، تيسر أمره ونجح بمرامه، وكان دائم العُزلة عن الناس معتكفًا عنهم لا يحضر مجامعهم، بل لا يُخالط أحدًا أبدًا، وكان كثير الأسفار، ولا يخبر أحدًا بالجهة التي يريد التوجه إليها، وكان يقاسي الشدائد والصعوبات العظيمة من غير أن يظهر منه تألم أو ضجر من ذلك، وكان مسلمًا في جسده إلى الحوادث ولا يمنعه خطر عن مقصده، فربما أثر أن نحو العجل يمر فوقه ولا يرضى أن يميل عن طريق مشيه، فلذا كان يتبعه كثير أحبائه خوفًا

عليه من ذلك، ويجتهدون في إمالته عن الطريق وقت الحاجة لها، وكان عقله معتدلًا، وملبسه لا يختلف في سائر الفصول، وإذا شرع في الكلام مع أحد لا يقطعه ولو ذهب الشخص الذي كان يكلمه لسبب اقتضى ذهابه حتى كان كلامه مسموع لسامعه، وكان يعامل الناس ويخالقهم بحالة واحدة لا يميز أحدًا في المعاملة عن أحد.

حاز الشهرة عند جميع اليونان في أقل زمن وقلَّده كثير من الناس، ولما ظهر فضله لأهل بلده احترموه احترامًا كليًّا، حتى إنهم جعلوه خليفة دينهم، وعَدَّه الأثينيون من أهالي مدينتهم ليتشرفوا به، وكان ابيقورس الفيلسوف يحب محادثته ومكالمته، ويلتذ بسماع قصة معيشته وأحواله، وكان جميع الناس يعتقدون كمال حريته، وخلوه من هموم الدنيا، والكبر والأوهام، وقد حكى طيمون الفيلسوف أن بيرهون هذا كان محترمًا مفخمًا قريبًا من احترام الإله، وقد قضى مدة عمره على حالة محبوبة وعيشة هنيئة مع أخته «فيلسطه» كانت صنعتها أنها قابلة تولد النساء، وكان يذهب السوق؛ لبيع الطيور الصغيرة، والخنازير الصغيرة ويكنس بيته وينظفه بنفسه.

تبعه كلب ذات يوم، وأراد أن يعضه فدفعه بيرهون عن نفسه، فقال له بعض الحاضرين: إن هذا ليس مذهبك، فإنك دائم التسليم فتأوه قائلًا: ما أصعب خروج الإنسان من أوهامه فإنه يعسر تنزهه عنها بالكلية، ومع ذلك فيلزم الإنسان بذل جميع جهده، وصرف سائر همته عله يخلص من هذه الصفات، وبينما هو ذات يوم في سفينة صغيرة في البحر، إذ هبت ريح عاصف على غفلة؛ فحصل للسفينة خطر عظيم أزعج ركابها الذين معه، وأما هو فدامت طمأنينته مع هذا الخطر، وأشار لهم إلى خنزير صغير بجانبه يأكل بهدوء

وسكون، فقال لهم: إنه ينبغي للحكيم أن يبذل جهده حتى يصل إلى قوة القلب والسكون إلى رتبة هذا الحيوان الصغير.

كان في جسده قرحة عظيمة اضطر معالجها ذات يوم إلى الجرح والقطع لمحلها، فقطع وحرق ولم يظهر منه تألم ولا تأوه؛ بل لم يعبس وجهه، ولم يُحرِّك أهدابه، وكان يعتقد أن أعلى ما يبلغه الإنسان في الدنيا من الكمالات إمساكه عن الجزم بشيء ما، وتلامذته جميعًا اتبعوه في ذلك فكان من أصولهم أنه لا شيء محقق، ثم انقسموا، فمن قائل: إن الحقيقة ربما أدركت بطول البحث، ومن قائل باستحالة إدراكها، ومن قائل: إنه لا جزم إلا بقضية واحدة، وهي الجزم بأن لا جزم بشيء، ومن قائل: بأنه يشك أيعرف شيئًا أم لا، وكان بعض هذه الآراء معروفًا قبل ظهور بيرهون، ولكن لما لم يتعرض أحد فيما سبق لاتخاذ رأي منها مذهبًا له، كان هذا هو السبب في شهرة بيرهون باختراع هذا المذهب، وأنه رئيس فرقته.

والذي حمل هذا الفيلسوف على تعليق الحكم بالأشياء، وعدم الجزم بحقيقة، هو أن معرفتنا للأشياء، إنما هي عبارة عن إدراك النسبة بين بعضها مع بعض، وأما الأشياء في حد ذاتها فمجهولة الحقائق عندنا جهلًا كليًا، فإنك مثلًا تجد ورق الصفصياف تستطيبه المعز ويجده الإنسان مُرًّا، ونبات الشوكران يسمن الطير السمائي، ويقتل الإنسان، و«ديموفون» الذي كان وكيل مائدة إسكندر أحرقه الظل وجد جسده برد الشمس عليه، و«أندرون المرلي» جاب جميع رمال «برقه»، ولم يظمأ أصلًا.

وبعض الأشياء يعد في بلد من العدل والإنصاف، ويعد في غيرها من الجور والإجحاف، وكذلك يكون الشيء فضيلة عند أمم رذيلة عند آخرين، فإن العجم يتزوج الرجل منهم بنته بلا نكير، وذلك موبقة عند اليونان، وبعض

الأمم لا يقول في الزوجة بالوحدة، وباقي الأمم ينبذون هذا القول والسرقة محمدة عند أمة تسمى «القيلقية»، ويعاقب عليها عند اليونان، وأرسطيس له في اللذة مقالة تباين مقالة انتيثينس، ومقالة أبيقورس تباينهما معًا.

وبعض الفلاسفة يثبت القضاء والقدر، وبعضهم ينفيهما، والمصريون يدفنون موتاهم، والهنود يحرقونهم، والبيونيون يطرحونهم في البحيرات، وبعض الأشياء لونها في الشمس يخالف لونها في القمر، ولونها في ضوء الشمعة، وعنق الحمامة يظهر بألوان مختلفة على حسب الجهات التي ينظر هو منها، وشُرب قليل النبيذ يقوي المعدة، وكثيره يعكر الحواس، ويُفسد العقل، والشيء الذي هو على يمين الإنسان هو على يسار آخر، وبلاد اليونان شرقية بالنسبة لبلاد إيطاليا، غربية بالنسبة لبلاد العجم، وبعض الأشياء مستغرب في بعض الأماكن، مبتذل في أماكن أخر، والرجل يكون أبًا بالنسبة لبعض الناس، وأخًا بالنسبة لبعض آخر، وبالجملة فالتنافي في أحوال الأشياء هو الذي حمل بيرهون وتلامذته على عدم تعريف شيء بالحد لزعمهم أنه لا شيء في الدنيا معروف بالحقيقة بنفسه؛ بل لا بد في معرفته من مقابلته مع غيره لإدراك النسبة بينه وبين غيره، ولما كانوا لا يعرفون شيئًا محققًا تركوا جميع البراهين، قائلين: إن البرهان إنما يؤسس على شيء واضح ضروري لا يحتاج لدليل، ولا شيء في الدنيا بهذه الصفة، لما أن ما تتراءى بداهته من الأشياء يلزمنا أن نُبيِّن حقيقة العلة التي أوجبت بداهته ولا سبيل إلى ذلك.

وقد وافق هذا الفيلسوف أوميروس -شاعر اليونان- في تشبيه الناس بأوراق الشجر التي لا يزال يخلف بعضها بعضًا، ويأخذ الجديد منها محل ما سقط من القديم، وعاش من وقت ما عرفه الناس في غاية الاحترام والتبجيل، توفي وعمره أكثر من سبعين سنة.

تاريخ بيون الفيلسوف

كان هذا الفيلسوف تلميذ ثيوفراسطيس خليفة أرسطو في مكتب فرقة الفلاسفة المشائين، قريبًا من الأولمبياد الرابع عشر بعد المائة، ومكث زمنًا طويلًا يتعلم في المكتب الأفلاطوني، ثم لما لم تعجبه دراستهم، وكان دائمًا يضحك على التماثيل التي به ويسخر منها، ترك المكتب بالكلية، وأخذ عباءة وعصا وخرجًا، وتمسك بمذهب الفلاسفة الكلبيين، ولكن لما وجد فيه ما لا يعجبه، أضاف إليه عدة أصول من مذهب تيودورس تلميذ أرسطيس وخليفته بمكتب القيروانيين، وتلقى أخيرًا عن ثيوفراسطيس خليفة أرسطو.

كان بيون دقيق العقل يحسن علم المنطق والشعر والموسيقى، وكان له إدراك خاص في علم الهندسة، وكان يحب كثيرًا طيب المآكل، وكان كثير الشهوات الشيطانية، ولا يطيل المكث بمكان، بل يديم التنقل في المدن، وكان يرى في جميع الولائم، وكانت مزيته فيها إضحاك الجلساء وإظهار النكات اللطيفة، ومن حيث أنه كان ظريفًا مألوفًا، كان كل إنسان يود مجالسته وإطعامه.

بلغه ذات يوم أن بعض أعدائه أهدى للملك أنتيغونوس بعض حكايات تتعلق برداءة أصل هذا الفيلسوف، فلم تتأثر نفسه من ذلك، بل ولم يظهر أنه بلغه ذلك، فأرسل الملك إلى بيون، وزعم أنه يفحمه من الكلام ويحيره، فقال له: أخبرني باسمك واسم بلدك، وأصلك وحرفة أهلك، فلم يتحير من ذلك، بل قال: كان أبي رجلًا عتيقًا، وكان يبيع دهن الخنزير والسمن، ولا أعلم هل كان جميلًا أم لا، بسبب أن وجهه الآن مشوه بآثار ضرب سيده له، وكان تتاري الأصل، وكانت بلدته على شاطئ نهر بورثينيس، فوقعت المعرفة بينه وبين أمي

بشارع مطروق لعموم الناس صدفها فيه فتزوجها هناك، ولا أدري أي ذنب ارتكبه أبي حتى بيع هو وزوجته وأولاده، وكنت أنا في ذلك الوقت شابًا صغيرًا جميل الصورة، فاشتراني أحد الخطباء، وأوصى لي بجميع أمواله، فلما مات مزقتُ حالًا ورقة تلك الوصية وحرقتها بالنار.

وذهبت إلى مدينة أثينا، وتعلمت فيها علم الفلسفة فها أنت قد عرفت الآن اسمي واسم أبي وبلدي وجميع أصلي، كمعرفتي بذلك، فهذا ما أمكنني معرفته والإخبار عنه، وكذلك أعرف أن من أحب أن يؤلف لك في هذا المقصد كتابًا. لم يفدك بأكثر من ذلك.

وسئل ذات يوم عن أشقى الناس، فقال: هو الذي يعلق غاية طمعه بأن يعيش سعيدًا، ويقضي عمره في المعيشة اللذيذة الهنيئة لما أن ذلك مستحيل. كان يقول: الشيخوخة مورد الآلام، وإليها ترجع جميع المصائب أفواجًا، وإنه لا ينبغي للإنسان أن يعد من أعوام عمره إلا الأعوام الفخار الذي اكتسبه، وأن الجمال خير لدنى لا كسبي، وأن الغنى هو مجمع المقاصد العظيمة؛ لأن الإنسان بدونه لا يبلغ مرامه، ولو بلغت براعته ما بلغت.

قابل ذات يوم رجلًا أكل جميع أمواله وعقاراته، فقال له: إن الأرض ابتلعت امفياروس، وأما أنت فقد ابتلعتها. أتى إليه ذات يوم رجل متمشدق مقبض فضولي الكلام، وقال له: أريد أن أسألك بعض أشياء، فقال له بيون: أقضي لك جميع أغراضك بشرط أن لا تسألني بنفسك، بل أرسل إليَّ بما تريد. وكان ذات يوم بسفينة مع بعض المجرمين فأخذ تلك السفينة جماعة من لصوص البحر، فقال بعض المجرمين لبعض: إن عرفونا هلكنا. فقال بيون: وأنا إن لم يعرفوني هلكت.

أتاه ذات يوم بعض الحساد حزينًا، فقال له: هل مرت بك مصيبة، أو رأيت خيرًا لغيرك. كان إذا مر به أحد من البخلاء، يقول له: أنت لست سيد مالك، بل مالك هو سيدك. وكان يقول: إن البخلاء يحفظون أموالهم ويحرصون عليها، كأنها لهم حقيقة، ويحترسون من الإنفاق منها كأنها لغيرهم. وكان يقول: أصعب الآلام عدم معرفة التجلد عليها. وكان يقول: لا ينبغي للإنسان أن يعير أحدًا بالشيخوخة والهرم؛ لأن بلوغ ذلك أمنية كل أحد. وكان يقول: إعطاء الإنسان من ماله، أحسن من تمنيه زيادته بمال غيره؛ لأنه يمكن للمرء أن ينتظم في سلك السعداء بأقل مال، ومتى علَّق أمانيه بمال غيره، انتظم في سلك الأشقياء.

وكان يقول: إن المجازفة والمخاطرة لا تليق بالشبان في بعض الأوقات، وأما الشيوخ فينبغي لهم دائمًا استنصاح العقل واستعمال الحزم في كل شيء. وكان يقول: إذا صاحبت أحدًا فاستبق صحبته على أي حال كان صاحبك حذرًا من أن يظهر للناس أنك صاحبت الأشرار أو قاطعت الأخيار. وكان يقول لأصحابه: لا تعتقدوا أنكم تمكنتم من الفلسفة، حتى لا تحرككم الإهانة ولا الإكرام.

وكان يرى أن حزم الرأي بالنسبة لسائر القوى الباطنة، كالبصر بالنسبة لباقي الحواس الظاهرة، وكان يقول: إن جحد الإله قرين سوء لا يلايم النفس، ولا تذعن له لما أن الإنسان متى تجاسر على شيء ولامته عليه نفسه، ظن أن ذلك من غضب إلهي استحقه فنفسه دائمًا تمانعه. كان يقول: إن طريق جهنم سهل جدًّا، بحيث يدخلها الإنسان متناعس الطرف. كان يقول: إن الذين لم يتوصلوا إلى الفلسفة، وتعلقوا بغيرها من العلوم البشرية، كعشاق المرأة المسلسلة،

يقنعون بمجالسة خادمتها عند فقدها. كان ذات يوم بجزيرة رودس، فرأى أن الأثينيين الذين بهذه الجزيرة، لا يجهدون إلا في الفصاحة وانشاء الأشعار، فشرع يعلم الفلسفة، فلامه بعض الناس على عدم عمله كغيره، فقال لهم: إنما جئتكم بالحنطة، فكيف تبغون مني بيع الشعير.

كان إذا سئل عن الأخوات المسماة «بنايد»، المذكورات في خرافات اليونان، اللاتي يصببن الماء دائمًا في وعاء مخروق بجهنم، ولا يخرجن منه حتى يمتلئ، مع أن ذلك غير ممكن، يقول: يكون الرثاء لحالهم أعظم لو حكم عليهن بالادلابانية لا منفذ لها أصلًا.

بعدما عاش معيشة المذنبين أدركه مرض شديد بجزيرة «خلفيس» حتى أذبله مدة طويلة ولفقره، وكونه لا يمكنه تحصيل متعهد، أرسل إليه الملك انتيفونوس عبدين وسريرًا هدية، ليتتفع بذلك في أي مكان. يقال: إن بيون في وقت مرضه ندم على احتقاره للآلهة، وصار يبتهل إليهم ليشفى من هذه الحالة الشنيعة، وكان يذهب ويتبرك بشم لحوم القرابين التي كانت تهدى لها، ويعترف بذنوبه، ومن طروء ضعف عقله، سلم نفسه لعجوز ترقى كي تداويه، فمد لها ذراعه ورقبته لتملأهما له تمائم وطلاسم، ولا زال يتبع الأوهام الخارقة للعادة حتى صار بابه مزينًا بشجر الغار، وتهيأ لأن يستعمل سائر ما يقال له لصحة بدنه وبقاء عمره، ومع ذلك فلم تجد معالجاته أصلًا، بل مات بعلته التي تولدت له من فساده.

تاريخ أبيقور الفيلسوف

وُلِدَ هذا الفيلسوف في السنة الثالثة من الأولمبياد التاسع بعد المائة، وتوفي في السنة الثانية من الأولمبياد السابع والعشرين بعد المائة، وعمره اثنتان وسبعون سنة. أبيقور هذا كان من عشيرة يقال لها «فيليادة»، ووُلِدَ بمدينة أثينا قريبًا من الأولمبياد التاسع بعد المائة، ولما بلغ من العمر أربع عشرة سنة، اجتهد في تعلم الفلسفة، وقرأ مدة من الزمن بجزيرة «شامس» على المعلم «بمفيلس» الأفلاطوني، ولما لم تطمئن نفسه لهذا المذهب، خرج من المكتب ولم يتخذ له معلمًا آخر بعده، وصار كما قيل يعلم بعد ذلك علم النحو واللغة، وقيل: إنه انتهى أمره أنه سئم ذلك أيضًا، وصار يسر من كتب ديمقريطس التي انتفع بها جدًا، وساعدته على تدوين مذهبه، ولما بلغ من العمر ثنتين وثلاثين سنة، اشتغل بتعليم الفلسفة في «متلينا»، ثم انتقل منها وعلم في «لامبساق».

فبعد خمس سنين رجع إلى أثينا، وأسس فيها فرقة جديدة، واشترى بستانًا عظيمًا، وصار يزرع فيه بنفسه، وأسس فيه مكتبه، ومكث في عيشة لذيذة هو وتلامذته الذين كان يعلمهم، وهو يتماشى معهم أو يشتغل في البستان، وكان يحفظهم جميع الحكم التي يفيدهم إياها عن ظهر قلب، وهرعت إليه الناس من جهات اليونان للسرور بسماعه ومشاهدته، وهو في هذه العزلة، وكان خلقه الصداقة وصفاء النفس ولين الجانب، محبوبًا لجميع الناس، ذا شفقة جدًّا على أهله وأصحابه، وكان معهم بكليته في الظاهر والباطن، وكان يجود عليهم بكل ما عنده، ويوصي تلامذته صراحة بالشفقة على الأرقاء، وكان هو أيضًا يشفق على ما يملكه، ويعاملهم معاملة الكاملين، ويأذن لهم في التعلم، ويهتم في تعليمهم بنفسه كأنه تلامذته.

كان دائمًا غذاؤه الخبز والماء والفواكه والبقول النابتة في بستانه، وربما قال لبعض الناس: ائتني بما تيسر من اللبن والجبن؛ كي ألتذ به نفسي. قال «لابرقه»: هذه معيشة هذا الفيلسوف الذي اتهمه الناس في معيشته باللذات والشهوات. قال «قيقرون» في مؤلفه المسمى «كتاب الفلاسفة»: ما أشد قناعة أبيقور بالقليل.

كانت تلامذة أبيقور تقلده في قناعته وفضائله، فكانوا يتعيشون بالبقول واللبن لا غير، وكان قليلهم يشرب يسير النبيذ، وعامته لا يشرب إلا الماء القراح، ولم يرض أبيقور أن يجعل أموال تلامذته شيوعًا مثل تلامذة فيثاغورس، قائلًا: إن طريقة فيثاغورس في هذا دلالتها على عدم الوثوق بالتعاون، لو احتيج إليه أقرب من دلالتها على الاتحاد. كان يعتقد أنه لا أشرف من الاشتغال بالفلسفة، وإن الصغار لا يمكنهم البداءة فيها في حداثة سنهم، وكذلك الشيوخ لا يليق بهم السآمة منها؛ لأن المقصود منها أن يعيش الإنسان سعيدًا، وهذا مقصد كل عاقل. والسعادة التي يتكلم عليها الفلاسفة هي السعادة الضرورية، يعني حالة راحة يصلها الإنسان بقدرة إلهية قال أبيقور: إنها ليست عبارة عن مجرد لذات الحواس، بل هي راحة القلب وعافية البدن، فكان يرى أن الخير الكامل هو اجتماع هذين الشيئين في آن واحد.

كان يقول: الفضيلة هي أقوى الطرق إلى معيشة الإنسان سعيدًا؛ لأنه لا شيء أحلى من كون الإنسان يعيش على مقتضى الحكمة والصلاح، ولا يعمل ما يلام عليه، ولا يحس في نفسه بإصابة الذنب، ولا يؤذي أحدًا، ويصنع الجميل مهما أمكن، فبالجملة لا يهمل من واجبات الحياة شيئًا، فمن هذا ينتج أن لا سعيد إلا أرباب الصلاح، وأن الفضيلة لا تفارق الحياة الهنيئة.

كان لا يسأم من كثرة مدحه للقناعة، وكف النفس عن شهوتها، وهذه الصفة الثانية، هي داتما سبب صفاء العقل وحفظ العافية، بل ربما جبرت خلل العقل أو البدن الطارئ، وكان يقول: ينبغي للإنسان تعويد نفسه على اليسير؛ لأن هذا أصح الكيمياء؛ وذلك لأن الإنسان عند جوعه واضطراره يتلذذ بهين الأكل أكثر من ألذ المطاعم، وأيضًا فمهما كانت أغذية الإنسان معتادة مجردة عن نفيس الأطعمة، كانت أقوى لبدنه، فلا يتكدر رأسه، بل يستنير عقله، ويخلو عن الشغل بمثل ذلك، فحينئذ يتفرغ المرء للبث عن حقائق الموجودات، وترجيح بعض الأمور على بعض، فإذن يكون للولائم إذا صنعت غبًّا موقع عظيم، ويستوي عند الإنسان حلول النكبات، أو يهون عليه تحملها بسهولة، بحيث أنه يكتفي بما تدعو إليه الحاجة، بخلاف مَنْ عوَّد نفسه على التعيش بالملاذ والزخارف.

كان يقول: لا يمكن للإنسان، وإن خرق العادة في بذل الجهد أن يتجنب سائر ما يفسد جسمه، ويكل عقله تجنبًا كليًّا، فإذن لا بد له من تجنب بعض اللذات، وإن كان مألوفًا في نفسه، إذا ترتب عليه من المكاره ما يفوق ملايمته للنفس، كما أن بعضها وإن كان فيه ما ينفر في ذاته، يقبل عليه الإنسان إذا ترتب عليه خير أكثر من شره.

كان يقول مخالفًا للقيروانيين: إن البلادة لذة دائمة، وإن القوى الباطنية أكثر أحساسًا وتأثرًا من القوى الظاهرية، وعلَّل ذلك بأن الجسم لا يتأثر من الألم إلا وقته، بخلاف العقل فإنه يتأثر بالحال والماضي والمستقبل. كان يقول: إن الروح جسمانية، معللا ذلك بأنها محركة لأجسامنا، مشاركة لها ألمًا ولذة، وإنا في حالة ثقل النوم نتيقظ بها بغتة، وبها تتغير ألواننا على حسب ما يعرض لها من

الحركات والأعراض، وأثبت أنه لا يمكن أن تتعلق بالجسم ما لم تكن جسمانية، فكان يتصورها بأنها ليست إلا منسوجات مادية دقيقة جدًا، منبثة في جميع أجزاء البدن، التي هي جزءه، فنسبتها له كالرجل واليد والرأس، ومنه ينتج أنها تهلك بموتنا، وتتفرق كالأبخرة المتصاعدة، وتفقد الإحساس كما فقده الجسم، فإذن لا يخشى من الموت لعدم إيلامه لما أن الإيلام منوط بوجود الإحساس والموت إعدام الإحساس، فإذن لا نسبة بينه وبيننا لعدم المشاركة والاتصال، فمتى كنا لم يكن، ومتى كان لم نكن.

وفي الحقيقة متى كان الحي موجودًا في الدنيا، فالأوفق بالطبيعة أن يريد الإقامة بها بمقدار سروره فيها، ولا ينبغي له أن يكون خروجه منها أشق عليه من الانصراف من المائدة بعد الشبع. كان يقول: قَلَّ مَن يلتذ من الناس بحياته؛ وذلك لأن كل إنسان يحتقر حالته الراهنة، ويأمل أن يكون المستقبل أحسن من ذلك، فتخترمه المنية على غفلة قبل بلوغ الآمال، فهذا موجب شقاء الإنسان في حياته، فلا أحسن من التمتع بفرصة الحالة الراهنة، وعدم الوثوق بالمستقبلات، ولا ينبغي له أن يعد السعد بمقدار ما عاش من السنين على وجه الأرض، بل هو ما عاشه منها معيشة هنيئة، فكان يقول: قصر الحياة مع الهناء خير من طولها مع التكدر. وضرب لذلك مثلًا بالمآكل، فإن اللذة ليست في كثرة لحومها التي لم تهيَّأ تهيأ حسنًا، بل هي في لذة المطعم، وإن لم يكن بكثرة، فينبغي اغتنام اللذة متى أمكنت، وأما التسلي بأنا سنفقد لذات الدنيا بالموت، فلا يجدي؛ لأنا حين ذاك لا نشتهيها، بل لا نحتاجها، كما كنا في بطون أمهاتنا.

كان يقول: إن من ضعف الرأي خوف الإنسان من جهنم، وإن ما ذكره جاهلية اليونان من أنواع عقابات جهنم، ككون البعض يعاقب بالجوع والظمأ

الدائم، والبعض يعاقب بأن يدحرج حجرًا مستديرًا من أسفل جبل إلى أعلاه، كلما دحرجه عاد إليه والبعض يكلف أن ينضح بدلوه حتى يملأ حوضًا متخرقًا، ونحو ذلك فإنما هي خرافات واختراعات للتنبيه على مكاره الدنيا، وأنه ينبغي للإنسان أن يتجنب ما يزعجه مما لا يستعمل إلا لتنكيد معيشة الدنيا وتضييع الهناء.

كان يقول: إنما ينتج الحرية استواء سائر الأشياء خيرًا كانت أو شرًّا عند الإنسان، وكان يرفض القول بالقضاء والقدر، ويقول: الأخبار بالمغيبات هوس لا أصل له لما أنه لا يمكن لأحد معرفة المستقبلات الاختيارية الوقوع، حيث لا سبب ضروري لها.

كان يتكلم على الألوهية مع الجلال والأدب، ويقول: ينبغي للإنسان أن لا ينسب للألوهية إلا الكمالات، وكثيرًا ما كان يمنع الناس صراحة أن ينسبوا للإله شيئًا لا يليق بمن شأنه البقاء وسائر الكمالات. وكان يقول: ليس المشرك مَن رفض الآلهة المعبودة للعامة، بل الشرك في نسبة القبائح إليها كما تنسبه لها العامة. وكان يقول: إن منصب الألوهية يستحق العبادة لعظمتها وشرف ذاتها، فتعبدها بتلك الملاحظة لا خوفًا من شرها ولا طمعًا في خيرها.

وقد ذم هذا الفيلسوف ما عليه العامة من البدع التي أوقعتهم في أعظم الكبائر، وكان دين وطن هذا الفيلسوف يقول بجواز الأعراض البشرية على الآلهة، أما هو فكان يرى أنها ذوات سعيدة مسكنها أماكن منعمة منزهة عن الرياح والأمطار والثلج، يحفها هواء طيب ونور ساطع، وشغلها التمتع بما هي فيه من النعيم. كان ينزهها عن جميع ما يحير البشر، ويقول: إنها لا تتأثر بشيء من أفعالنا، فلا ترضيها طيباتنا ولا تغضبها سيئاتنا، فكان يزعم أنها إذا اهتمت

بشئون العالم، أو أدخلت أنفسها في سياسته وتدبيره، تكدرت معيشتها الهنيئة، واستنتج مما تقدم أن الأدعية والصلوات والنذور ونحوها لا تنفع عندها بشيء، وأنه لا فائدة للاستعانة بها، ولا للسجود بمحاريبها، فلا يدفع ذلك شيئًا من النكبات التي تقع، ولكن يجب على الإنسان أن يتلقى الحادثات بطمأنينة بلا عجب.

كان يقول: ليس العقل هو الذي تصور الآلهة، وإن الخوف الذي جاء للناس مع هدوئهم، إنما يجيء غالبًا من المنامات، حيث يخيل للإنسان أنه يرى فيها خيالات عجيبة، فيتراءى له أن تلك الخيالات تخوفه وتهدده مع العظمة والكبرياء اللائقين بصورها العظيمة، فيتمثل للإنسان في نومه أنه يراها تفعل أمورًا عجيبة، ولما كانت هذه الخيالات تتكرر في جميع الأزمان، وكان كثير من الآثار يظهر أنه مجهول الأسباب توهم كثيرٌ من أرباب المعارف الهينة في كثير منها كالشمس والقمر والنجوم لما رصدوها ورأوا حركاتها المنتظمة، أن هذه الخيالات الليلية ذوات أزلية قادرة، وجعلوها قارة في وسط الفلك، حيث يشاهد نزول الصواعق والبرق والبرد والمطر والثلج، وجعلوها رئيسة تسيير هذا الفلك العجيب، الذي هو دولاب الدنيا، ونسبوا إليها كل ما جهلوا أسبابه من الآثار على ما زعمه هذا الفيلسوف، أن هذا كله هو سبب اتخاذ المحاريب والمعابد، وعلى ما زعمه أيضًا فسائر العبادة التي تؤدى للآلهة لا أصل لها إلا ما ذكره قبل.

وأما الأماكن العجيبة التي يعتقد اليونان أنها مقام تلك الآلهة، فهي كما قاله «لوقريقه» عن أبيقور أنها لا يمكن تصور أن بينها وبين قصور الدنيا أيًّا كانت مشابهة؛ لأن الآلهة حيث كان جوهرهم لطيفًا لا يمكن العقول إدراك كنهه،

يلزم أن يكون بين أماكنهم وبين جواهرهم مناسبة في اللطف.

اتفق سائر الفلاسفة على أنه على حسب ما جرت به عادة الطبيعة لا يصدر موجود عن معدوم، ولا يؤول موجود إلى العدم لما قد صح بالتجربة، أن الأجسام يتكون بعضها من آثار بعض، فينتج من هذا أن لها سببًا عامًّا، وهذا السبب هو الذي يسمونه مادة أولية.

واختلفوا في بيان هذه المادة الأولية، فزعم أبيقور أنها الذرات يعني أجسام دقيقة بسيطة، فزعم أن سائر الأجسام تتركب منها. وذهب أيضًا إلى أصل ثانٍ غير الذرات وهو الفراغ، ولكن لم يجعله أصلًا لتركيب الأجسام، وإنما يقول: إنه أصل لحركاتها؛ لأنه لو لم يكن للفراغات الصغيرة انتشار في جميع الأجسام، لم يمكن تحرك شيء، بل كانت أجرام المادة تبقى متلاصقة ببعضها كالصخرة الواحدة، فلا يتولد عنها شيء.

كان يقول: بقدم هذه الذرات، وأنه لا يعقل عدد صورها، وإن أمكن حصره، ولكن لكل صورة من هذه الصور ما لا يحصى من الذرات، وزعم أن زنة الذرات هو السبب في حركاتها، فبتصادمها تشتبك ببعضها، وأن اختلاف طرق ترتيبها وانتظامها يتولد عنه ما نشاهده في الكون من الآثار المختلفة من غير أن يكون شيء من هذه الآثار معلولًا لعلة غير تلك المصادمة، التي تقع بين عدة مقادير من الذرات مختلفة الصور، وكان يشبه هذه الذرات بحروف المباني؛ حيث يحدث عنها كلمات مختلفة على حسب اختلاف المادة التي تتركب منها الكلمات في الحروف، مثلًا كلمة «بكر» و«ركب» و«كرب» و«ربك» كلمات مختلفة مع اتحاد حروفها، وليس اختلافها إلا من اختلاف هيئة التركيب بالتقديم والتأخير، فكذلك الذرات التي يتقدم منها بعض الأجسام، إذا كانت

مرتبة على وجه معين، تكون منها صورة كذا، وإذا رتبت على وجه آخر تكونت منها صورة أخرى، ولكن مع ذلك فلا يقول بأن جميع الذرات أيًا كانت صالحة للدخول في تركيب سائر الأجسام أيًا كانت، فمن الظاهر أن الذرات التي تكون فرو الصوف، لا تصلح أن تكون الألماس، كما نشاهد أن كثيرًا من الكلمات يباين غيره في سائر حروفه.

كان يزعم أن هذه الذرات الصغيرة دائمة الحركة، وهذا هو العلة في كون ما في الوجود من الحوادث لا يدوم بحالة واحدة، بل يصغر تارة، ويعظم أخرى بما ينضم إليه مما نقص من الآخر، وبعضها يقدم والآخر يأخذ من الزيادة والقوة يومًا فيومًا، فبناءً على ذلك لا يمر على الشيء الواحد إلا زمن واحد، وكلما أخذ في الفساد انتزعت منه أجزاء وانضمت إلى آخر وصنعت في العادة جسمًا يخالف ما تحللت منه فبهذا لا يفسد شيئًا أبدًا وإن لم يبق إلا زمنًا واحدًا، وإنما يتراءى أن الشيء يؤول للزوال، كأنه انعدم بالكلية، وكان ابيقور يزعم أنه مر على الذرات زمن وهي متفرقة، ثم اجتمعت مصادفة واتفاقًا، ولا تزال تتكون منها دنيا، ويزوالها تتكون غيرها، وهكذا، وهذا الزوال إما بواسطة نار كما إذا دنت الشمس جدًا من الأرض، فأحرقتها، وإما بهزة مهولة تقلب جميع الأشياء، وتفسد دولاب العالم.

وبالجملة فهلاك كل دنيا يحصل بسبب من أسباب عديدة، ولكن من الآثار الهالكة تتركب دنيا أخرى، نشرع حالًا في توليد حيوانات جديدة، بل الظاهر أن الدنيا التي نحن بها الآن، إنما هي اجتماع آثار ما بقي من حوادث مهولة، وقعت في سالف الأزمان، كما يشهد لذلك ما يشاهد في البحار من المهاوي التي لا قاع لها، وسلاسل الجبال الشامخة، وطبقات الصخرات الطويلة العريضة المختلفة

الأوضاع، المتباينة التقاطع، ويشهد لذلك أيضًا اختلاف ما بباطن الأرض من المعادن، والأنهر التي تحت الأرض، والبحيرات الكامنة فيها، والمغارات والكهوف، ويشهد لذلك أيضًا ما فوق سطح الأرض من التقاطع، فإنك تجدها مشقوقة بالبحار والبطائح والبوغازات والجزائر والجبال.

وكان يزعم أن العالم لا نهاية له، وأن هذا العالم العظيم لا وسط ولا أطراف له، وأن أي نقطة تتصورها في العالم، فإنه يبقى علينا أيضًا أماكن أخر تقطع ولا يوجد له آخر، وكان يقول: من الجنون تمدح الإنسان بأن الدنيا خلقت محبة للناس، بل الظاهر أن الآلهة بعدما مكثوا زمنًا طويلًا في الراحة؛ استحسنوا أن يغيروا حالتهم الأولية بغيرها.

وكان يقول: إن الأرض قد تَوَلَّد منها فيما سبق أُناس وحيوانات أخر، كما يتولد عنها الآن الفيران، وبنات عرس، والديدان، وسائر الحشرات، وكان يزعم أن الأرض في ابتدائها وقت ما كانت جديدة، كانت سمينة نطرونية، فلما صارت الشمس تسخنها شيئًا فشيئًا تغطت بالأعشاب والأشجار الصغيرة، ثم ارتفع على سطحها نفاطات وخراجات على شكل الفقاقيع، وبعد مدة كافية لنضجها، انفتحت جلدتها العليا وخرج من تحتها حيوان صغير صار يتحرك شيئًا فشيئًا ذاهبًا من الأماكن الرطبة التي تولَّد منها ودخله النفس فيها، وكان يقطر من هذه الأماكن جداول من اللبن؛ لغذاء هذه الحيوانات الصغيرة.

ومن هذه الحيوانات الكثيرة الأصناف عدة عجيبة الخلقة سيئة التركيب؛ فمنها: ما لا رجل له، ومنها ما لا فم له، ومنها ما لا رأس له، ومنها ما أعضاؤه ملتحمة بهيكل بدنه؛ بحيث إن كثيرًا منها فقد من عدم قدرته على التقوت بنفسه، أو لعدم إمكان تحصيل النسل الذي يكون من اجتماع الذكر بالأنثى، فلم

يبقَ منها إلا ما كان حسن التركيب، وهي الأنواع الموجودة الآن.

كان يقول: إن في مبادئ الدنيا لم تكن الحرارة والبرودة، واختلاف الأمزجة شديدة كما هي الآن؛ بل كانت في مبدأ أمرها كغيرها في الانتظام، والناس الذين خرجوا من الأرض، كانوا وقت خروجهم منها أقوى مما نحن عليه الآن، فكانت أجسامهم مُغطَّاة بالشعر الخشن، مثل شعر الخنازير، ولم يكن عندهم تألم من رديء المأكول، ولا من فساد الهواء والفصول.

ولم يكن من عادتهم اللبس؛ بل كانوا ينامون عرايا على أديم الأرض في أي محل أدركهم الليل به، وكانوا يتقون المطر بالأشجار الصغيرة، ولم يكن لهم في ذلك الوقت ائتناس ببعض، بل ولا اجتماع، بل كان كل أحد لا يعرف غير نفسه، ولا يشتغل إلا بخاصة راحتها، وقد تَولَّد من الأرض أيضًا غابات أشجارها دائمة النمو، فأول ما ابتدأ الناس يتغذون بثمر البلوط، وثمر الأشجار الصغيرة الثمرات الرديئة، وكان لهم أحيانًا منازعات مع الخنازير والسباع، فأخذوا يتجمعون طوائف طوائف؛ ليتقوا ضرر هذه الحيوانات الوحشية، وابتنوا لهم أخصاصًا صغيرة، وشرعوا يصطادون الحيوانات، ويتخذون جلودها ثيابًا يلبسونها، ثم اختار كل واحد منهم لنفسه امرأة، وعاش معها معيشة خصوصية، فتولَّد منها أولاد وبمداعبة الآباء مع أبنائهم خفَّ توحشهم ولان جانبهم، فهذا أصل الائتلاف والتأنسات، والجمعيات البشرية، ثم ائتلف الجار بالجار، وانقطعت عداوة كل لصاحبه.

وكانوا أولًا يقضون أغراضهم بالإشارة بالأصابع إلى الأشياء، ثم اخترعوا للسهولة بعض أسماء للأشياء مصادفة، ثم ألَّفوا لغة خشنية يستعملونها في إفادة بعضهم بعضًا ما في ضميره.

كان يقول: إنهم قبل ظهور النار، كانوا ينضجون ما احتاج النضج بحرارة الشمس، فكانوا يتضجون فيها لحوم الصيد، فنزل برق من السماء ذات يوم فأحرق بعض أشياء دفعة واحدة، فالناس الذين عرفوا منفعة النار عوضًا عن أن يطفئوها، لم يتفكَّروا إلا في حفظها، فكل إنسان أخذ منها في خصه شيئًا لاستعماله في تنضيج مأكولاته، ثم بنوا بعد ذلك مُدنًا، واقتسموا الأرض بلا مساواة؛ بل أخذ الذين لهم قوة وشجاعة أكثر من غيرهم وجعلوا أنفسهم ملوكًا، وأكرهوا غيرهم على طاعتهم، وبنوا لهم قلاعًا وحصونا؛ لأجل إبعاد هجوم وغارات من جاورهم.

وكانوا في ذلك الوقت لا يدافعون عن أنفسهم إلا بأيديهم وأظافرهم وأسنانهم وبالأحجار أو العصي، فهذا هو سلاحهم الذي كانوا يستعملونه عند المنازعة. وبعدما احترقت عدة غابات؛ بسبب مجهول وجدوا معدنًا يجري في عروق الأرض إلى حفر صغيرة فيتجمد فيها فتعجبوا من بهجة هذا المعدن، واستنتجوا من ذلك أنه بواسطة النار يمكنهم أن يعملوا منه ما يشاءون، ولكن لم يتذكروا في أول الأمر إلا عمل الأسلحة، وكانوا في هذا المعنى يختارون معدن النحاس على الذهب؛ لأن أسلحة الذهب كانت دون أسلحة الحديد في القطع، ثم صنعوا من النحاس لجم خيلهم، وآلة حراثتهم، وكل ما احتاجوا إليه.

وقبل ظهور الحديد، كانوا يتخذون الملابس من قطع الأشياء المختلفة ويربطونها ببعضها قطعًا قطعًا، فلما وقفوا على منافع هذا المعدن، وما يصلح له عرفوا وسائط اتخاذ الأقمشة من خيط الصوف والكتان؛ لأجل راحة أنفسهم. أما بذر الأرض فقد عرفوه من طبيعة الأرض، حيث إن الناس في ابتداء الدنيا رأوا أن ثمر البلوط الذي يسقط من شجره على الأرض يتولَّد منه أشجار تُشبه

أصله، فلما أرادوا زرع البلوط ببعض الأراضي بذروا بها ثماره وقاسوا على ذلك بقية النباتات فكل إنسان صار يبذر ما يحتاج إليه على منوال ما رآه، ولما كان النبات يطيب بطيب حراثة الأرض شرع كل إنسان في الاجتهاد العظيم في الفلاحة.

وإلى هذا الزمن القوة والمهارة هي التي كانت جارية وبمجرد ما تعاملوا بالذهب وافتتن الناس به صار كلٌّ لا يتفكر إلا في كنزه وادخاره فاغتنى كثيرهم بهذه الواسطة، وترك الناس التعلق والميل إلى الملوك السالفة وقصروا ميلهم على الأغنياء، وقتلوا الملوك، ومن ذلك الوقت صار الحكم للرعايا في أنفسهم فأسسوا شرائع وقوانين، واختاروا لهم قضاة وحُكَّامًا لأجل التمسك بها وتدبير المصالح العامة.

فكلما فقدت هذه الأمم توحشهم زاد ائتناسهم ببعض، وشرعوا يدعون بعضًا للمآكل والمشارب، وكانوا بعد تمام الأطعمة يلذذون أنفسهم باستماع أغاني الطيور، ويبذلون جهدهم في تقليدها، ويؤلفون مغاني على الأهوية التي يسمعونها من الطيور.

ثم لما سمعوا للرياح هديرًا لطيفًا في داخل القصب، كان هذا حاملًا لهم على اختراع المزامير، ولما تعجبوا من الأجسام السماوية حملهم ذلك على الاجتهاد في تعلم الهيئة، ثم لما داخلهم الطمع والحرص في أخلاقهم، شرعوا يحارب بعضهم بعضًا؛ لينتزع كل ما في يد خصمه فنشأ من ذلك شعراء ينظمون ما كان يصدر في تلك الوقائع العظيمة من الحسن وغيره، وكثرة البطالة التي سلكوها فيما بعد؛ كانت سببًا لتبحرهم في إتقان الفنون التي حملتهم الضرورة على وضعها، بل ربما اخترعوا فنونًا ليست ضرورية، حملهم عليها

قصد الترفه، وحسن الحال.

وأما كون الأرض الآن لا يتولد عنها آدميون ولا سباع ولا كلاب، فقد أجاب عنه ابيقور بأن صفة الولود التي كانت قائمة بالأرض انقطعت وصارت الأرض عقيمة كالمرأة المسنة فإنها لا تلد، وأن الأرض التي لا تحرث، تكون في أول أعوام إحيائها، بحيث يخرج منها أكثر مما يخرج منها فيما بعد، وإننا إذا قلعنا أشجار غابة، فإن قرار الأرض لا يخرج منه أشجار مشابهة لما نزعناه، بل أشجار أخر تخبث عن أصلها مع الصغر والوحاشة كالشوك ونحوه، ولا مانع من أنه لم تزل الأرض تلد إلى الآن أرانب وثعالب وخنازير وغيرها من الحيوانات، ولكن هذا يحصل في الأماكن المتباعدة عنا فلا نعرفه، فلهذا لا تظن وقوعه، وكذلك لو لم نر أصلًا من الفيران إلا ما تولَّد بين الفيران لظننا أن الفيران لا تتولَّد من الأرض بلا توسط ذكر وأنثى.

ولما اختلفت الفلاسفة في الطرق التي يتوصل بها إلى معرفة الحقيقة، قال ابيقور: أعظم طريقة تُوصِل إلى ذلك هي الحواس، وإننا لا نعرف شيئًا إلا بأخبارها ولا شيء لنا نميز به الصحيح من الباطل غير الحواس.

وكان يقول: إن الذهن في مبدأه لم يكن فيه تصور شيء، بل كان كلوح خالٍ لا شيء به، فلما تكونت الجوارح الجسمانية تواردت عليه المعارف تدريجًا بواسطة الحواس، فصار قابلًا للتفكر في الأشياء الغائبة، ولا مانع من كونه يخطئ، حيث إنه يتصور الغائب حاضرًا، بل ربما تصور ما لا وجود له بخلاف الحواس، فإنها لا تدرك إلا الأشياء الحاضرة حال حضورها، فلذلك لا تخطئ أبدًا في وجود الأشياء، ولهذا كان من الجنون أن الإنسان في صورة الخطأ لا يستعين بالاستخبار من حواسه؛ لأجل أن يستعين بالبراهين على صدق فكره أو كذبه.

وللفلاسفة في تفسير الإبصار عدة طُرق، فقال ابيقور: إنه دائما يخرج من جميع الأجسام مقادير كثيرة من السطوح الصغيرة المشابهة لنفس الأجسام، في هذه السطوح الصغيرة تملأ الهواء وبواسطتها تُدرك الأشياء الظاهرة المحسوسة.

وكان يزعم أن الشم، والحر، والصوت، والنور، وغيرها من الأوصاف المحسوسة ليست مجرد إدراك للروح، بل جميع هذه الأشياء في الحقيقة ليست جزءًا من الإنسان بالكلية، وإنما هي أمور خارجية في الواقع كما هي كذلك في الظاهر، فهي مقدار من المواد مصور ومهيأ للتحرك على وجه خاص، هو الشم والحر والصوت والنور، فهي مستقلة خارجة عن جميع الحيوانات، مثلًا: الأجزاء الصغيرة التي تنفصل من أجزاء روضة تملأ الهواء حول تلك الروضة بمشموم ذي رائحة لطيفة، هي التي يشمها المار بها، وإذا ضربنا ناقوسًا فإن الهواء المحيط به يمتلئ بصوت حاد مشابه لما نسمعه حينئذٍ، وإذا أشرقت الشمس ظهر في الهواء نور ساطع شبيه بما تراه وقتئذ، وأما كون الشيء الواحد يظهر مختلفًا لحيوانين مختلفين فما ذاك إلا من اختلاف شكل باطن هذين الحيوانين، مثلًا: ورق الصفصاف مُر في فم الإنسان حلو في فم المعز، فهذا دليل على كون داخل الإنسان والمعز لا تماثل بينهما.

الفلاسفة الإسطوانيون مع ما هم عليه من التشدد والصعوبة والتعاظم، حصلت لهم غِيرة عظيمة من كثرة تلامذة ابيقور ومن أحبابه الذين كانوا يتعلقون به دائما، وإن كانت طريقته مخالفة لطرائقهم، فمن الغيرة بذلوا جهدهم في إبطال طريقته حتى إنهم ذكروا في كتبهم كلامًا قبيحًا سبًّا له، فكان هذا سببًا في كون أتباعه بعد موته ظنوا نقصه مع أنه كان على طريقة مستقيمة ومعيشة منظومة.

قد مدح «أجربجوار» عفة ابيقور، فقال: قال ابيقور: إن اللذة منتهى أغراض الناس بأفعالهم ،ولأجل أن يثبت أنها ليست عبارة عن مطلق لذة الحواس، بل هي استقامة الحال، عاش دائمًا غير عفيف، منهمك على اللذات، ليثبت قوله بالفعل. كان لا يحب الدخول في حُكام الجمهورية، بل كان يؤثر راحة المعيشة على زحمة الحكم، وتصوير الأثينيين صورته في أشهر أماكنهم دليل على احترامه وتبجيله، وكان كل من اجتمع به لا يفارقه إلا مترودروس، فإنه تركه لأجل تلقي العلوم بمدرسة «كرنياد»، ولكنه لم يمكث فيها إلا نحو ستة أشهر، ثم عاد إلى ابيقور، ومكث معه حتى مات، وكان موته قبل موت ابيقور بمدة قليلة، وبقي مكتبه بعد موته، كما كان حال حياته حتى في زمن ما هجرت المكاتب الأخر، ولما بلغ من العمر ثنتين وسبعين سنة مرض بمدينة أثينا التي كان مستمرًا على التعليم فيها، وكان داؤه حصر البول، وكان يؤلمه ألمًا شديدًا فتصبر عليه، فلما أحسَّ بأنه قد حان وقت وقرب هلاكه وموته، اعتق جملة من عبيده، وفرّق أمواله، وأوصى بأن يعمل ليوم ولادته، وولادة أهله موسم في كل سنة، فكان ذلك الموسم يوافق عاشر شهر «جامليون».

وأعطى بستانه وكتبه لهرماقوس ميطلين، الذي جعله خليفة بعده، وشرط أن تعطى كذلك لكل خليفة بعده، وكتب لايدوميني هذا الخطاب، ونصه: ها أنا الآن بفضل الله تعالى في آخر يوم سعيد من عمري، وإني معذب بدائي الذي يرعى مثانتي وأحشائي أكلًا لا يتصور أقسى منه، ومع ما أذوقه من هذه الآلام، فإني أتسلى وأتصبر حين أتذكر البراهين التي زينت بها علم الفلسفة، فأرجو منك اعتمادًا على ما ظهر لي من حبك لي ولمذهبي، أن تستوصي بأولاد مترودروس.

ثم إنه بعد أن مضى عليه وهو في المرض أربعة عشر يومًا، ذهب إلى حمام حار قصدًا فلما دخله طلب كأسًا من نبيذ صاف فشربه فمات حالًا، وأوصى أحبابه وتلامذته الحاضرين عنده ألا ينسوه ولا ينسوا أصول مذهبه، وكانت وفاته في السنة الأولى من الأولمبياد السابع والعشرين بعد المائة، وحزن على فقده جميع الأثينيين.

تاريخ زينون الفيلسوف

كانت وفاة هذا الفيلسوف في الأولمبياد التاسع والعشرين بعد المائة، وكان شيخ الفرقة الإسطوانيين، وكان من مدينة «قيتيا» بجزيرة قبرص، وفي ابتداء أمره قبل الشروع في شيء، ذهب يتفاءل من بعض الكهنة؛ لأجل أن يفهم ما الذي يفعله حتى يعيش سعيدًا، فأجابه الكاهن بإبهام، وقال له: لا بد أن لونك يصير كألوان الموتى، ففسره زينون بأن معناه أنه يتعلق بقراءة كتب الأقدمين، واعتقد ذلك، فابتدأ في القراءة، وبذل جميع جهده اتباعا لإشارة الكاهن.

كان ذات يوم آتيًا من مدينة «قيتيا» ومعه شيء من ارجوان الصوريين فكسرت السفينة التي هو بها، وتلف ما كان معه بمينا «بيري» فحصل له غم عظيم من تلك الخسارة، فجاء إلى مدينة أثينا، فدخل عند بياع كتب، وابتدأ في قراءة المقالة الثانية من كتاب زنفون؛ ليسلي غيظه، فحصل له من قراءتها سرور عظيم، أزال تكدر خاطره، فسأل الكتبي عن مسكن هؤلاء الناس الذين يتكلم عليهم زنفون، وإذا بأقراطيس الكلبي مارًّا بالمصادفة على غفلة، فأشار الكتبي إلى الكلبي بأصبعه، وقال لزينون: اتبع هذا الرجل، وكان سن زينون في ذاك الوقت ثلاثين سنة، فتبع أقراطيس، وكان هذا أول يوم صار فيه تلميذًا له، وكان زينون شديد الحياء والخجل، فلذلك لم يمكنه أن يتعود على طريق الكلبيين، فلما رأى أقراطيس أن هذه الطريقة تشق عليه أراد أن يقوي عزمه عليها، فأعطاه ذات يوم قدرًا ممتلئة عدسًا وأمره أن يدور بها في طرق مدينة «سيراميقه»، فاحمر وجه زينون من شدة الخجل؛ بسبب ذلك، فاختفى به خشية أن يراه أحد، وهو على هذه الحالة، فقال له أقراطيس: لأي شيء هربت يا مكار مع أن هذا لا ضرر عليكم فيه.

وكان زينون يحب علم الفلسفة، وكان دائم الشكر للدهر على غرق أمواله في البحر، وكثيرًا ما كان يصيح قائلًا: ما أطيب الهواء الذي غرقني، حيث آل بي إلى طيب، واستمر يقرأ على أقراطيس أكثر من عشر سنين من غير أن يمكنه التخلق بقلة حياء الكلبيين، ثم لما أراد أن يترك معلمه ليذهب إلى استيلفون المغاري ليتلقى عنه العلوم جذبه أقراطيس من عباءته وحجزه قهرًا عنه، فقال له زينون: يا أقراطيس، إن الفيلسوف لا يحجز بإمساك أذنه، فأقم لي برهانًا على أن طريقتك أحسن من طريقة استيلفون، فإن لم تحقق لي ذلك يكون عندك في الحقيقة جسمي وعقلي يكون دائمًا عند استيلفون.

مكث زينون عشر سنين أخرى عند استيلفون واكسينوقراط وبوليمون، ثم بعد ذلك خرج وأسس له مذهبًا، وعما قريب انتشرت شهرته في سائر بلاد اليونان وصار في زمن قليل أحسن فلاسفة جميع البلاد، وهرع إليه كثير من الناس من سائر الجهات للتلقي عنه والتلمذة، ومن حيث إن زينون كان يعلم التلامذة جالسًا بإيوان ذي أعمدة سُميت فرقته الإسطوانيين.

كان الأثينيون يفتخرون به جدًّا حتى جعلوه أمين مفاتيح البلدة، وشيَّدوا له صورة، وأهدوا إليه تاجًا من الذهب، وكان السلطان انطيغونوس يمدح ويستحسن دائمًا هذا الفيلسوف، ولا يمكن أن يأتي مدينة أثينا إلا ويذهب إلى سماع درسه، وكان في أغلب الأوقات يأتي إلى زينون ويأكل معه، أو يأخذه للأكل معه عند ارسيوقلي الآلاتي، ولكن زينون ألزم نفسه أن لا يجتمع معه فيما بعد في وليمة ولا جمعية عامة، لتدوم الحشمة بينهما، ثم إن انطيغونوس بذل جهده في جلب زينون إليه فطلب أن يسامحه من ذلك السفر، وأرسل عوضًا عنه بيرسيوس وفيلوميد، وكتب له معهما جوابًا صورته أنه حصل لي غاية الفرح

والسرور من حبك واشتياقك للعلوم، وأنه لا يصلح لردك عن لذة حواسك ويدعك تتبع الحقائق إلا حب الفلسفة.

وقال فيه أيضًا: إنه لولا كبر سني، وقلة عافيتي منعاني عن الخروج لأتينك كما تشتهي، ومن حيث عدم إمكان ذلك قد أرسلت إليك اثنين من أعظم أصحابي مماثلين لي عقلًا ومذهبًا، وأشد مني قوة، فإذا كلمتهما بجد واتبعت ما يعلمانه لك من الأصول الفلسفية، رأيت أنك لا تفقد شيئًا من السعد الكامل.

كان زينون طويل القامة، نحيف الجسم، شديد سواد الجلد؛ فلذا لُقِّب بالنخلة المصرية، وكان رأسه مائلًا على كتفه، وكان غليظ الرجلين مريضهما يلبس دائمًا خفيف الأقمشة التافهة القيمة، وكانت معيشته غالبًا بالقليل من الخبز والتين والعسل والنبيذ الحلو، ولم يأكل مطبوخًا أصلًا، وكان ماسكًا بأزمة هواه وشهوته، بحيث إنهم إذا أرادوا ضرب المثل بعفة أحد، قالوا: إنه أعف من زينون، وكان يمشي بتؤدة وهيبة، وكان حاد الفطنة، صعب الأخلاق، وإذا تكلم عبس جبهته، ولوى فمه، ومع ذلك فكان إذا حضر في محفل حظ، يكون طلق الوجه بشوشه، ويحظ الحاضرين، ولما كان يسأل عن سبب هذا التغير، يقول: إن طبيعة الترمس المرارة، ولكنه إذا نُقِعَ في الماء مُدة حلا.

كان وجيز العبارة، وإذا سُئل عن سبب ذلك، يقول: على العاقل اختصار كلامه ما أمكن، وكان إذا أراد توبيخ أحد قَصَّر في الكلام مع الكناية والتعريض.

حثه ذات يوم شاب على جواب قضية لا يسع جوابها عقل هذا الشاب فاحضر له زينون مرآة، فلما نظر الشاب وجهه فيها، قال له زينون: هل رأيت

هذه الصورة تقبل مثل جواب هذه الأسئلة؟

كان يقول: إن تمويهات الخطباء مثلها كمثل دراهم سكندرية حسنة الظاهر خسيسة المعدن، وكان يقول: إن أضر ما يظلم به الشبان تربيتهم على الفخار، إنها اللائق تربيتهم على الأدب، وعلى فعل ما يليق، فإن الحكيم قافزيوس لما رأى ذات يوم أحد تلامذته محشوًّا بالكِبْر صفعه، وقال له: إن تعاليك لا يتسبب عنه صلاح حالك، فأما صلاح حالك فيتسبب عنه رفعتك على غيرك. كان إذا قيل له: ما تعريف صديقك؟ يقول: ما كان إياي، وكنت إياه.

ذهب ذات يوم في وليمة كانت عملت لرسل الملك بطليموس، فالتزم الصمت وقت الأكل، فعجب الرسل من ذلك، وسألوه: أتريد تبليغ شيء عنك إلى الملك؟ فقال: بلغوه إنا رأينا إنسانًا يعرف الصمت. هؤلاء الإسطوانيون كانوا يرون إنه ينبغي لكل إنسان أن يعيش بمقتضى الطبيعة على معنى ألَّا يفعل ما يخالف حكم العقل، الذي هو قانون عمومي مشترك بين جميع الناس، وإنه ينبغي لكل أحد التمسك بالفضيلة لذاتها لا لما يترتب عليها من ثواب، فإنها بذاتها كافية في إسعاد المرء، فمن تمسك بها تمتع بكمال الراحة ولو أحاط به التعب الشديد. وإنه لا نافع إلا ما كان صلاحًا ولا نفع في الذنب.

وإن تنزيه الحواس بالشهوات لا يعد من الخير في شيء؛ لأنها مدنسة للمرء ولا خير في المدنس. وإن الحكيم لا يخاف شيئًا ولا يتزين بشيء؛ لأنه قد استوى عنده الفخار والعار، إنما طبع الحكيم شدة الأخلاق وصفاء الباطن، ولا يمنع من شرب النبيذ ولكن لا يشرب حتى يصل حد السُّكر مخافة أن يضيع لحظة من عمره مع الخلو عن استعمال العقل، وينبغي للعاقل تعظيم المعبود، وتقريب القربان له، واجتناب الفساد بأنواعه، وأن الحكيم دون غيره هو الذي يعرف أن

يحب، وأنه ينبغي له أن يدخل نفسه في مصالح الجمهورية، لإبعاد ذميم الخصال عنها، وحث الأهالي على حميد الخلال؛ لأنه دون غيره هو الذي يميز الحق من الباطل، وأنه مختص دون غيره بأنه لا يميل ولا يضر أحدًا ولا يعجب من شيء مما يعجب منه غيره.

كان يقول: إن جميع الفضائل مشتبكة ببعضها، بحيث لا يتم لأحد فضيلة من الفضائل ما لم تكمل له سائرها، وإنه لا واسطة بين الفضيلة والرذيلة؛ لأن الأمور حيث انقسمت إلى معوج ومعتدل فكل عمل إما خير وإما شر بلا ثالث.

عاش زينون حتى بلغ من العمر ثماني وتسعين سنة، ولم تصبه فيها علة، وحصل التأسف على موته، ولما سمع بوفاته السلطان انطيغونوس تأثر عليه، وقال: أواه من تلك الخسارة التي خسرتها، فسئل عن سبب اعتبار هذا الفيلسوف، فقال: ما ذاك إلا لأني مع كثرة ما أهديت إليه لم تدنسه الهدايا بالذل لي، وترجى هذا السلطان الأثينيين أن يكون مدفن هذا الفيلسوف بقرية قيرميق.

كما تأسف عليه السلطان، تأسف عليه الأثينيون أكثر منه، وأكابر أهل الحل والعقد مدحوه على رءوس الأشهاد بعد موته ولأجل أن يكون الهواء وبواسطتها ندرك الأشياء الظاهرة المحسوسة، وكان يزعم أن الشمّ والحر والصوت والنور وغيرها من الأوصاف المحسوسة، ليست مجرد إدراك للروح، بل جميع هذه الأشياء في الحقيقة ليست جزءًا من الإنسان بالكلية، وإنما هي أمور خارجية في الواقع كما هي كذلك في الظاهر، فهي مقدار من المواد مصور ومهيأ للتحرك على وجه خاص، هو الشم، والحر، والصوت، والنور، فهي مستقلة خارجة عن جميع الحيوانات، مثلًا: الأجزاء الصغيرة التي تنفصل من أجزاء روضة تملأ الهواء حول تلك الروضة بمشموم ذي رائحة لطيفة هي التي يشمها

المار بها وإذا ضربنا ناقوسًا، فإن الهواء المحيط به يمتلئ بصوت حاد مشابه لما نسمعه حينئذٍ وإذا أشرقت الشمس ظهر في الهواء نور ساطع شبيه بما نراه وقتئذٍ.

وأما كون الشيء الواحد يظهر مختلفًا لحيوانين مختلفين فما ذلك إلا من اختلاف شكل باطن هذين الحيوانين مثلًا: ورق الصفصاف مر في فم الإنسان حلو في فم المعز فهذا دليل على كون داخل الإنسان والمعز لا تماثل بينهما.

الفلاسفة الإسطوائيون مع ما هم عليه من التشديد والصعوبة والتعاظم حصلت لهم غيرة عظيمة من كثر تلامذة أبيقور ومن أحبابه الذين كانوا يتعلقون به ذاتيًا، وإن كانت طريقته مخالفه لطرائقهم فمن الغيرة بذلوا جهدهم في إبطال طريقته حتى أنهم ذكروا في كتبهم كلامًا قبيحًا سبًّا له فكان هذا سببًا في كون أتباعه بعد موته ظنوا نقصه مع أنه كان على طريقة مستقيمة ومعيشة منظومة.

قد مدح «أجريجوار» عفة أبيقور، فقال: قال أبيقور: إن اللذة منتهى أغراض الناس بأفعالهم، ولأجل أن يثبت أنها ليست عبارة عن مطلق لذة الحواس، بل هي استقامة الحال عاش ذاتيًا غير عفيف منهمك على اللذات ليثبت قوله بالفعل.

كان لا يحب الدخول في حُكَّام الجمهورية، بل كان يؤثر راحة المعيشة على زحمة الحكم وتصوير الأثينيين صورته في أشهر أماكنهم دليل على احترامه وتبجيله، وكان كل من اجتمع به لا يفارقه الأمترودروس، فإنه تركه لأجل تلقي العلوم بمدرسة «كرتياد»، ولكنه لم يمكث فيها إلا نحو ستة أشهر، ثم عاد

إلى أبيقور ومكث معه حتى مات.

وكان موته قبل موت ابيقور بمدة قليلة، وبقي مكتبه بعد موته كما كان حال حياته حتى في زمن ما هجرت المكاتب الأخر، ولما بلغ من العمر ثنتين وسبعين سنة، مرض بمدينة أثينا التي كان مستمرًا على التعليم فيها، وكان داؤه حصر البول، وكان يؤلمه ألمًا شديدًا فتصبر عليه، فلما أحسَّ بأنه قد حان وقته وقرب هلاكه وموته اعتق جملة من عبيده، وفرق أمواله وأوصى بأن يعمل يوم ولادته وولادة أهله موسم في كل سنة، فكان ذلك الموسم يوافق عاشر شهر «جامليون»، وأعطى بستانه وكتبه هرماقوس ميطلين الذي جعله خليفة بعده، وشرط أن تعطى كذلك لكل خليفة بعده وكتب لايدوميني هذا الخطاب ونصه:

ها أنا الآن بفضل الله تعالى في آخر يوم سعيد من عمري، وإني معذب بدائي الذي يرعى مثانتي وأحشائي، أكلًا لا يتصور أقسى منه ومع ما أذوقه من هذه الآلام، فإني أتسلى وأتصبر حين أتذكر البراهين التي زينت بها علم الفلسفة فأرجو منك اعتمادًا على ما ظهر لي من حبك لي ولمذهبي أن تستوصي بأولاد مترودروس ثم إنه بعد أن مضى عليه وهو في المرض أربعة عشر ويومًا، وذهب إلى حمام حار، قصدًا، فلما دخله طلب كأسًا من نبيذ صافٍ فشربه فمات حالًا.

وأوصى أحبابه وتلامذته والحاضرين عنده ألّا ينسوه ولا ينسوا أصول مذهبه، وكانت وفاته في السنة الأولى من الأولمبياد السابع والعشرين بعد المائة، وحزن على فقده جميع الأثينيين.

فهرست كتاب تاريخ الفلاسفة

المكتبة الفلسفية

ترجمه من الفرنسية إلى العربية
الأستاذ/ السيد عبد الله حسين

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة
ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٣٨٤١١
فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com